الأعمال الإبداعية

مهرجان القراءة للجميع

مكتبة الأسرة ١٩٩٨

العسل المر

يوسف عزالدين عيسى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

العسل المر

العسل المر

يوسف عز الدين عيسى

مهرجان القراءة للجميع ٩٨

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

العسل المر

يوسف عز الدين عيسى

الغلاف للفنان :

جمال قطب

الإشراف الفني:

للفنان محمود الهندى

المشرف العام

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفية

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب

مقدمة



ومازال نهر العطاء يتدفق، تتفجر منه ينابيع المعرفة والحكمة من خلال إبداعات رواد النهضة الفكرية المصرية وتواصلهم جيلاً بعد جيل - ومازلنا نتشبث بنور المعرفة حقاً لكل إنسان ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

شبَّت التجربة المصرية «القراءة للجميع» عن الطوق ودخلت «مكتبة الأسرة» عامها الخامس يشع نورها ليضيء النفوس ويثرى الوجدان بكتاب فى متناول الجميع ويشهد العالم للتجربة المصرية بالتألق والجدية وتعتمدها هيئة اليونسكو تجربة رائدة تحتذى فى كل العالم الثالث، ومازلت أحلم بالمزيد من لآلىء الإبداع الفكرى والأدبى والعلمى تترسخ فى وجدان أهلى وعشيرتى أبناء وطنى مصر المحروسة، مصر الفن، مصر التاريخ، مصر العلم والفكر والحضارة.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم

تواصل مكتبه الاسرة ٩٨ رسالتها التنويرية وأهدافها النبيلة بربط الأجيال بتراثها الحضارى المتميز منذ فجر التاريخ وإتاحة الفرصة أمام القارئ للتواصل مع الثقافات الأخرى، لأن الكتاب مصدر الثقافة الخالد هو قلعتنا الحصينة وسلاحنا الماضى فى مواكبة عصر المعلومات والمعرفة.

د. سميرسرحان

(١)

كطيف عارب من حلم ، كانت تخطو بين أشجار حديقة منزلها تلمس كل شجرة بطرف اصبعها وتنطق رقما ، وعندما وصلت الى الرقم العشرين بعد الأربعمائة سمعت أمها تناديها من ناحية مبنى البيت بصوت منغم :

ـ سوسن ، سوسن ٠

ـ نعم يا ماما ٠

ـ تعالى يا حبيبتى ، أنا عاوزاك

ـ حاضر يا ماما ٠

كانت الأم واقفة أمام الباب الداخلى للبيت فوق أعلى درجة من درجات السلم المؤدى الى الحديقة ٠ انطلقت سوسن تعدو نحوها وقفزت درجات السلم برشاقة ٠ وقفت أمام أمها التى سألتها :

ـ ماذا كنت تعملين يا حبيبتى ؟

ـ أعد أشجار الحديقة ٠

كان هذا آخر ما توقعته الأم فضحكت وقالت .

ـ تعدين أشجار الحديقة ؟! وهل هذا معقول ؟ انها حديقة لا اول لها ولا آخر ، تحتـــاجين لشــهر على الأقل لتعــدى جميع اشجارها ، ولماذا تعدين الشجر ؟

ـ أتســلى ٠

ـ هل تعلمين في اى يــوم من الأيام نحن ؟

قالت بعد فترة تفكير قصيرة :

ـ اليوم ؟ اليوم يوم الخميس ٠ لا ، انه يوم السبت ٠ لا ، بل هو الثلاثاء ٠

ثم أردفت قائلة بأسف :

ـ الحقيقة انا لا أعرف اليــوم يا ماما ، فجميع الأيام هنا متشابهة ، لا فرق بين يــوم وآخر ٠

ـ أهكذا ؟ ولكن اليوم ليس كباقي الأيام ٠ اليوم عيد ميلادك يا حبيبتي ، وهو أسعد يوم عندى ٠ هل تنسين عيد ميلادك وتذهبين لتعدى الشجر ؟ تعالى معي يا روحى ٠

دخلتا البيت واتجهتا نحو غرفة سوسن التى تتلقى فيهـا دروسها ٠ نظرت الأم من نافذة الغرفة وقالت :

ـ تعــالى انظــرى ٠

وقفت سوسن بجوارها ونظرت من النافذة ٠ قالت الأم :

ـ هــل ترين ؟

ـ أرى ماذا ؟

ـ ألا ترين دادة بركة ؟

ـ أجل ، أراها ، ماذا تعمل ؟

ـ تزرع شجرة برتقال جديدة . أنت تعلمين أننا نزرع شجرة برتقال جديدة كل عام يـوم عيـد ميلادك . ها هي ذي الشجرة السابعة عشرة . تعالى معى .

سارتا معا حتى دخلتا غرفة نـوم الأم . فتحت الأم الصوان واخرجت علبة من القطيفة ، فتحتها واذا بداخلها عقد من اللؤلؤ . قالت الأم :

ـ هـل تعجبـك هـذه الهـدية ؟

قالت سوسن وقد انبهرت عند رؤية العقد :

ـ يـاه .. الله !!

ـ هـــل أعجبــك ؟

ـ انه أجمل عقد فى الدنيا .

احتضنت أمها وباستها وقالت :

ـ أنت أعظـــم أم .

أخرجت الأم من الصوان رداء أرجوانيا ورفعته من المشجب قائلة :

ـ وهذا الرداء ، البسيه يا حبيبتى

ضحكت سوسن فرحة وأسرعت بارتدائه ووقفت أمام المرآة .. ونظرت اليها الأم باعجاب وقالت :

ـ من المستحيل ان يوجد فى جميع أنحاء الدنيا أجمل منك .

احتضنت سوسن أمها وقالت والفرحة تهز كيانها :

ـ اشكرك يا ماما . أنا فرحانة جداً .

امسكت الأم يد سوسن وسارتا معاً . قالت وهما فى طريقهما الى غرفة الطعام :

ـ هيـا اطفئى الشموع .

عندما دخلتا الغرفة وجدتها سوسن مزينه بالأوراق الملونة وعلى منضدة الأكل كعكة ضخمة غرست فيها سبع عشرة شمعة دقيقة الحجم وازدحمت المائدة بالوان الطعام . صاحت الأم قائلة :

ـ يا بركة .

ـ نعم يا ستى .

ـ تعـالى واحضرى معك نظاجة وعواطف ومرجانة ، تعالين جميعا ، سوسن ستطفىء شمع عيد ميلادها .

دخل الغرفة طابور من الخدم يتقـدمه بركة ، وهى ممتلئة الجسم ، بيضاء فى نحو الخمسين ، وخلفها نظاجة وهى بيضاء على جانب من الجمال فى نحو الثلاثين ، وخلفها عواطف وهى سمراء جميلة فى نحو الثلاثين وخلفهن جميعاً مرجانة وهى شديدة السمار فى نحو الأربعين ذات لهجة نوبية ، وجميعهن ما عدا بركة ، من ذوات القوام النحيل . اصطففن جميعاً حول المائدة ووقفت سوسن أمام الكعكة جنب أمها .

قالت بركة :

ـ كل سنة وانت طيبة يا ستى سوسن .

ـ وانت طيبة يا بركة .

ـ كل سنة وانت طيبة يا ستى

ـ وانت طيبة يا عواطف ٠

ـ كل سنة وانت طيبة يا ستى ٠

ـ وانت طيبة يا مرجانة ٠

ثم احتضنت الأم ابنتها وباستها قائلة :

ـ كل سنة وانت طيبة يا روحى ٠

ـ وانت طيبة يا ماما ٠

نظرت الأم الى الخدم وقالت :

ـ هيا ندعو لهـا جميعاً كما نفعل كل عام ٠ يا رب أطل عمرها ٠

قلن جميعاً معـاً:

ـ يا رب أطل عمرها ٠

قالت الأم :

ـ وأرح قلبهـا ٠

قلن معـا :

ـ وأرح قلبهـا ٠

قالت الأم وفى صوتها نبرة حزن :

ـ وجنبها يا رب ما قاسته أمها ٠

قلن جميعـاً :

ـ وجنبها يا رب ما قاسته أمها ٠

أخذت سوسن تطفيء الشموع فزغردت بركة · باست الأم سوسن قائلة وقد لمعت الدموع في عينيها :

ـ عقبال كل سنة ·

جلس الجميع حول المائدة لتناول الطعام معا كعادتهن كل عام في مثل هذا اليوم ، بعد ذلك ذهبت سوسن الى غرفتها وخلفها جميع الخدم ، وانسحبت الأم الى غرفة نومها شاعرة بشيء من الحزن لا تعرف سببه ·

في صباح اليوم التالى ، عندما كانت الأم جالسة في البهو ، وبركة متربعة على الأرض بالقرب منها ، سمعتا صوت (السقاطة) ، وهى كتلة من الحديد الصلب على هيئة تمثال رأس امرأة يحدث صوتا عندما يقرع حديدة مثبتة في الباب ، فالبيت خال من الكهرباء يضاء بالمصابيح والشموع ·

انتفضت بركة وقالت للأم بفزع :
ـ شخص يقرع الباب يا سيدتى ، هل أفتح أم ··
قالت الأم قبل أن تكمل بركة الجملة :

ـ سأعطيك مفتاح الطاقة التى بالباب ، افتحيها وانظرى لترى القادم وتعالى خبرينى ، فقد تكون أم علية جاءت لتعطينى النقود ·

أخذت بركة مفتاح الطاقة وذهبت لترى القادم ثم عادت لتقول لسيدتها :

ـ بالباب سيدة تقول انها المدرسة الجديدة ، أرسلتها الست أم علية ·

ـ أجل ، نسيت أن اليوم موعد ارسالها ٠

اخرجت من علبة في الصوان مفتاحاً كبير الحجم سلمته لبركة قائلة :

ـ ها هو ذا مفتاح البوابة ، أدخليها وأغلقي الباب بالترباس كما كان ٠

ـ حاضر يا ستي ٠

قالت الأم وهي تصافح المدرسة :

ـ أهلا وسهلا يا ست أمينة ٠ تفضل اجلسي يا حبيبتي ٠

ثم صفقت وصاحت قائلة :

ـ يا بركة ٠

ـ نعم يا ستي ٠

ـ ارسلي لي سوسن ٠

ـ حـــاضر ٠

دخلت سوسن بشعرها الكستنائي المرسل على ظهرها وعينيها المبتسمتين ووجهها الذي ابدع الخالق صنعه ليكون نموذجاً لعبقرية الخلق وكمال التكوين وقوامها الذي تتمناه اية أنثى من نسل آدم ، لم يكن ينقصها سوى جناحين لتصبح ملاكا ٠ ظلت المدرسة ناظرة اليها مبهورة لا تقوى على تحويل بصرها عنهـا ، ثم أفاقت وكأنها كانت في حلم عندما قالت الأم :

ـ سلمي يا سوسن على الست أمينة ، مدرسة اللغة العربية الجديدة ٠

قالت سوسن وهى تصافح مدرستها :

ـ أهلا وسهلا يا أبلا ·

ـ أهلا بك يا حبيبتى ، ما شاء الله ، تبارك الخلاق ·

والتفتت الى الام وقالت :

ـ ربنا يحفظها لك يا ست منيرة ·

فقالت الأم :

ـ تسلمى يا حبيبتى ·

ثم التفتت الى ابنتها وقالت :

ـ اخرجى انت الآن يا سوسن ·

ـ حاضر يا ماما ·

بعد أن خرجت وأغلقت الباب قالت الأم :

ـ بالأمس كان عيد ميلادها ·

ـ عقبال مائة عـام ·

ـ تسلمى يا حبيبتى ·

اطرقت الأم الى الأرض لحظة متفكرة ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ شوفى يا ست أمينة ·

ـ أفنـــــدم ·

ـ كما تعلمين ، سوسن ابنتى الوحيدة ، وهى كل ما احرص عليه فى هذه الدنيا ، ولم أشأ أن الحقها بأية مدرسة ، فأنا أحضرت لها المدرسات هنا فى البيت ليدرسن لها جميع المواد التى تدرس

بالمدارس ، وحضرتك ستدرسين لها اللغة العربية بدلا من المدرسه السابقة ٠

ـ أجـــل ٠

ـ السيدة عنايات التى اتفقت معك على المجئ٠ قالت لى انها شرحت لك كل الشروط التى احرص على توافرها فى جميع السيدات اللاتى يدخلن هذا البيت ، هل اطلعتك على هذه الشروط ؟

ـ أجـل ، ذكرت لى جميع الشروط ٠

ـ لا تؤاخذينى ، اذا رغبت فى التاكد ليرتاح قلبى من هذه الناحية ٠ أنت كنت متزوجة ، اليس كذلك ؟

ـ أجـل ، وانفصلت عن زوجى منذ عامين ٠

ـ حسن ٠ هذا أول شرط من شروطى ، لابد ان يكون قد حدث زواج وطلاق ٠ وماذا كان سبب الانفصال ؟

ـ كان مجرماً ، قاسيت منه الكثير ٠

قالت الأم بلهفة :

ـ ماذا كانت شكواك منه ؟

ـ كان طامعاً فى القروش القليلة التى كنت أشقى للحصول عليها ٠ كان حيواناً متوحشاً ، يكتفنى ويضربنى حتى كسر ذراعى ٠ ذراعى اليمنى هذه ٠

قالت الأم وكانها تصغى الى موسيقى عذبة او اغنية شجية ٠

ـ هيه ، وماذا أيضا ؟

- كان يأخذ فلوسي وينفقها على أصدقائه · لم احتمل الاستمرار في الحياة معه فطلبت الطلاق · ظل يماطل ويتهرب من الطلاق حرصاً على المبلغ الذى يغتصبه منى ، ولما عجزت عن احتمال العذاب تركت العمل وعندما أصبحت بلا مرتب طلقنى ·

- كلهم هكذا صنف الرجال ، وحوش مفترسة ، طالما قاسيت منهم · لهذا السبب لا أريد لابنتى سوسن أن تتزوج واريد منك أن تساعدينى على تحقيق هذا الهدف وتفعلين كما تفعل جميع المدرسات الأخريات ·

- ماذا يفعلن ؟

- منذ سنوات ونحن نبذل كل جهدنا لشحن قلب سوسن بكراهية الرجال حتى كرهتهم وكرهت أباها الذى لم تره عيناها ، لذا اشترط على كل من يدخلن هذا البيت ان يكن اكتوين بنار الرجال ، واوصيهن أن يقصصن على سوسن المآسى التى لحقت بهن بسبب وحشية الرجال وخيانتهم ، ويصورنهم لها فى صورة الوحوش المفترسة التى تفتك بالنساء ، وأن النساء ينبغى أن يهربن منهم ويبتعدن عنهم ليتجنبن الحزن والعذاب ·

أطرقت الى الأرض لحظة وقد بدا الشجن فى ملامح وجهها ، ثم رفعت رأسها وأردفت قائلة :

- منذ أكثر من ستة عشر عاماً اشتريت هذا البيت بحديقته الواسعة فى هذا المكان المنعزل ، وامعانا فى العزلة اشتريت الأرض الزراعية المحيطة به من جميع الجهات · كانت سن سوسن فى ذلك الوقت لا تزيد على عشرة شهور ولم تخرج من بابه حتى اليوم ، ولن

تغادره أبداً ، ورفعت أسواره هذا الارتفاع الكبير حتى لا ترى سوسن رّجلا ولا يستطيع أى رجل رؤيتها ، اذ من واجبى الاطمئنان عليها وحجبها عن كل الدنيا لتعيش فى أمان ، زودت البيت بكل ما تشتهيه النفس حتى لا تحتاج لأى شىء خارج أسواره ولا تشعر بان شيئاً ينقصها . غرست فى حديقته مزيداً من الفاكهة والأزهار وأشجار الزينـة ، وصنعت لها بحيرة كبـيرة جميلة تجدف بزورقها فوق مياهها ، هذا عدا حمامين للسباحة ، أحدهما صيفى والآخر شتوى جدرانه وسقفه من الزجاج غير القابل للكسر . صنعت لها جنة على الأرض بعيدا عن عيون الرجال . وأقمت لها فى أنحاء متفرقة من الحديقة أراجيح والعابا ، وجميع أنواع التسلية ، وغمرتهـا بالجواهر والحلى الثمينة التى تفوق الحصر ، ووضعت تحت تصرفها عدداً من الخادمات ، وكل ما قد يخطر على البال وما لا يرقى اليه الخيال . انها تعيش هنا على أكف الراحة . جعلتها أسعد فتاة فى الدنيا . أين تجد الرجل الذى يسعدها أكثر من ذلك ؟

ظلت المدرسة مصغية لحديث الأم اصغاء تاماً ، ثم قالت :

ـ الرجال ؟ لعنة الله عليهم وعلى سـيرتهم . انهم خونة ، يقابلون الاحسان بالاساءة .

ثم قالت بعد لحظة تردد :

ترى هل أستطيع معرفة سبب تغيير المدرسة السابقة ؟

ـ خانت العهـد .

قالت المدرسة فى دهشة :

ـ خانت العهد ؟ كيـف ؟

ـ ذات يـوم وأنا أفتش فى الكراسات ضبطت موضـوع

للانشاء طلبت المدرسة من سوسن الكتابة فيه ، بعنوان « ليس كل الرجال ذئابا » تصوري يا ست أمينة ؟ هل من المعقول أن تسمم عقل سوسن بمثل هذه الموضوعات الاجرامية ؟ انها محاولة لتحطيم كل ما فعلته طوال هذه الأعوام ·

وتهدج صـــوت الأم وهي تنطق الجملة الأخـــيرة · قالت المدرســـة :

ـ كيف تقول هذا ؟ انها تستحق الطرد ·

جلست سوسن فى غرفة الدراسة تتلقى من المعلمة الجديدة درس اللغة العربية ·

قالت المدرسة :

ـ اكتبى يا سوسن عنوان موضوع الانشاء ·

امسكت سوسن القـلم وارهفت السـمع استعدادا لكتابة العنوان · قالت المعلمة :

ـ كل الرجال ذئاب وثعابين ·

قالت سوسن :

ـ وعقارب أيضاً يا أبلا ، ماما تقول ذلك ·

وبدأت تكتب الموضوع · عندما انتهت من كتابته طلبت منها المدرسة أن تتلوه فأخذت تقرأ :

ـ نعـم ، كل الرجال ذئاب مفترسة وثعابين سامة وعقارب تحقن السم فى اجساد النساء المساكين اللائى يقعن فى حبائلهن · اننى من حسن حظى لم ار رجلا منهم فى حياتى ، فان أمي الحبيبة جنبتنى تلك المصيبة · ولم أر أبى ولم أر صورته ، فلقد توفى

منذ سنوات . ولكن والدتى حدثتنى عنه كثيراً حتى أصبحت من خلال حديثها أتصوره وحشاً مفترساً له أنياب كأنياب الثعبان .

– عشرة على عشرة . أفكارك وتعبيراتك جميلة جدا .

فى اليوم التالى كانت الأم جالسة وحدها فى البهو . نادت سوسن فلم تستجب لندائها ، فصفقت ونادت بركة . أقبلت بركة مهرولة فسألتها الأم :

– أين سوسن ؟

– انها فى الجنينــة . انها كعادتها فى ليالى القمر تدندن وتعزف على العود جنب النافورة .

– سأذهب اليها ، هيا معى .

هبطتا سلم البيت المؤدى الى الحديقة وسارتا بين الأشجار حتى وصــلتا الى مكان قريب من النافورة واختبأتا خلف شجرة ضخمة . كانت سوسن جالسة محتضنة العود تضبط أوتاره ثم بدأت تغنى بصوت رخيم :

يا بــدر يا اللــى سبيت العيــن بنـــورك الحـــلو الفتــان
كان فــين جمالــك غــايب فــين عن العيون وبقى له زمان

همست بركة فى أذن الأم قائلة :

– انها دائماً تغنى للقمر والنجوم والشجر والطيور ومثــل هذه الأشياء .. قالت الأم وكأنها فى حلم :

ـ هل يوجد فى الدنيا صوت أجمل من هذا الصوت ؟
استمرت سوسن فى غنائها :

بين الغمـام تفضـل هـايم ... وأسـهر معـاك والروض نايم
أنظـر اليـك تظهر وتغيب ... وليـه تسـيبنى وتظلمنى
هو انت لك فى الدنيا حبيب ... غير اللى سهران مستنى ؟
وازاى أعيش أنا من غيرك ... والعيـن بتتهنى بنـورك
خليك معـاى يا بـدر حرام ... تفوتنى وتغيب بالأيام

م الليـل لليـل أستنى لقـاك
ياما شفت الويل وأنا باستناك
وتمر على وعينيك فى عينى ولا تسأل فى

أناجى حسـنك وأغنى ... وأغير من النجمة اللى معـاك
مفيش أمل تسـأل عنى ... وانا اللى طول عمـرى أهواك

نادت الأم ابنتها قائلة :

ـ سوسن ٠
ـ نعم يا ماما ، لم أكن أعرف انك هنا ٠
ـ أغنيتك هذه جميلة جدا
ـ أنا التى كتبتها ولحنتها ٠

قالت بركة :

ـ ما شاء الله ، ربنا يحميك

قالت الأم

ـ هيا يا روحي نامي ، لقد سهرت الليل أكثر من العادة .

ـ حاضر يا ماما .

أوت سوسن الى فراشها ، ويبدو أن نومها لم يكن مريحا فلقد سمعوها تصيح قائلة :

ـ ابعدوه ابعدوه عني . ماما . ماما .

هرولت الام وخلفها طابور الخدم الى غرفة سوسن وسألتها بلهفة .

ـ ما بك ؟ ما بك يا حبيبتي ؟

قالت سوسن مختنقة بالبكاء :

ـ رأيته في الحلم .

ـ من هو ؟

ـ أبي .

ـ اجل ، رأيته

ـ ولكنك لم تريه ولم ترى صورته .

ـ رأيت رجلا يجرى خلفى ويقول انه أبى ، فظللت أجرى هاربة منه وأصرخ ولكنه ظل يطاردنى ، وكلما اختبأت منه فى مكان أجده قادما نحوى ٠

ـ ولكنك لم ترى أى رجل ٠ ما شــكل هذا الذى رأيته فى الحلم ؟

ـ شكله مخيف ، أرعبنى ٠

ـ كيــف ؟

ـ عيناه كبيرتان مستديرتان جاحظتان وأنفه طويل ووجهه ويداه مغطاة بشعر غزير كأنه قرد وأسنانه بارزة من فمه بروزا كبيرا وفمه كفوهة القربة ٠

ـ انه منظــر أبيك بالضبط ٠ وما الذى جعلك ترينه فى الحلم هذه الليلة ؟

ـ لست أدرى ٠

ـ نامى يا حبيبتى ٠ نامى ولا تخافى ٠

ـ أخشى لو نمت أن أراه فى المنام مرة أخرى ٠

ـ لن تريه أبدا ٠ هل كنت تفكرين فيه عند النوم ؟

ـ لم يخطر على بالى مطلقا ٠ ابقى معى يا ماما ، لا أريد النوم وحدى هذه الليلة ٠

ـ سأنام معـك الليلة يا حبيبتي وأضـمك الى حضـنى ، لا تخافى ٠

(٢)

صحت الأم من نومها مبكرة فلم تجد سوسن معها ، فصاحت منادية :

ـ سوسن ، سوسن ٠

لم تحضر سوسن ولكن دخلت بركة ، قالت لها الأم :

ـ اين سوسن ؟

ـ رأيتها فى حمام السباحة ٠

ـ أهكذا فى الصباح الباكر ؟ أخشى أن تصاب ببرد أو سعال ٠ ارسليها لى ٠

ـ حـاضر ٠

حضرت سوسن مبتلة الشعر وعلى كتفها فوطة ٠ سألتها امهـا :

ـ قمت من النوم فلم أجدك ٠ أين كنت يا حبيبتى ؟

ـ لم أستطع النوم بعد حلم الأمس ٠

- كيف تسبحين في هذا الصباح الباكر ؟ ألا تخشين البرد والزكـــام ؟

- لم أشعر بأي برد فالجو جميل ولم أمكث في الماء سوى عشر دقائق .

- وأين كنت طوال هذه المدة ؟

- وجدت قطة والدة جنب حمام السباحة ظللت أتفرج على القطط الصغار وهم يرضعون . كان منظرهم جميلا جداً يا ماما .

- قالت الأم بنبرة سخرية :

- وأين كان أبوهم ؟ هل رأيته ؟

- لا يا ماما ، لم يكن معهم .

- هذا طبيعي ، فهو كالرجال أبناء آدم ، ترك أطفاله لأمهم تتعب وتشقى بهم دون أن يعيرهم أي اهتمام ، تماما كما فعل أبوك . كل صنف الذكر قلبه مثل الحجر .

في الرابعة بعد الظهر كانت سوسن جالسة مع أمها في البهو تتسلى برسم لوحة يبدو فيها ركن من أركان الحديقة . توقفت سوسن عن الرسم وبدت وكأنها تريد أن تقول شيئاً لأمها ، وبعد فترة تردد قالت :

- مـــامـــا .

- نعم يا حبيبتي

- أريد الاستفسار عن شيء ولكنني أخشى أن تغضبي مني .

ـ هل من المعقول أن أغضب منك ؟ استفسرى يا حبيبتى عن كل ما تودين الاستفسار عنه ٠

ـ هل توفى أبى أم ما زال حيا ؟

لم تستطع الأم السيطرة على أعصابها فقالت بشيء من الانفعال :

ـ ألم أمنعك يا حبيبتى من الكلام فى هذا الموضوع ؟ لماذا تفكرين فى أبيك الذى لم تريه ولم يرك ؟

ـ من أجل هذا أفكر فيه أحياناً ٠ أنا لا أعرف منظره ٠

ـ منظره فظيع ، بشع ، لقد سبق أن وصفت لك منظره القبيـــح ٠

ـ هل هو حى ؟

ـ كـــلا ، مـــات ٠

ـ متى مـــات ؟

ـ بعد ستة شهور من ولادتك ، واشتريت هذا البيت بعد وفاته مباشرة ، وأقمت هذه الأسوار العالية لنعيش بعيدا عن الدنيا ٠

ـ هل غضبت منى يا ماما ؟

قالت الام وقد سيطرت على أعصابها

ـ لا يا حبيبتى . لا توجد أم تغضب من ابنتها . ولكننى لا أحب أن تشغلى فكرك مرة أخرى بمثل هذه الأشياء الكريهة وأود أن أراك سعيدة دائماً ٠

ـ أنا أسعد من فى الدنيا ·

دخلت بركة وقالت :

ـ مدرسة الموسيقى تريد الدخول يا سيدتى ·

قالت الأم لسوسن :

ـ اذهبى يا حبيبتى انتظرى معلمتك فى غرفة الدراسة ·

ـ حاضر يا ماما ·

فى أثناء تسليم مفتاح البوابة لبركة همست الأم قائلة :

ـ اسمعى يا بركة ، أريد منك أن تحكى لسوسن الليلة قبل نومها بعض الحكايات التى لقنتها لك ·

ـ حاضر يا ستى ، لا تمر ليلة دون أن اقص عليهـا هذه الحكايات واظل أعيد وازيد فيها حتى تنام ·

ـ يجب الانتباه جيداً · لقد سألتنى اليوم عن أبيها ·

قالت بركة بدهشة :

ـ سألت عن أبيها ؟ ما الذى ذكرها الآن بهذه المصيبة ؟

ـ لست أدرى · على أية حال يجب الحذر والعمل على القضاء على هذه الأفكار السود التى بدأت تحوم حولها كالغربان ·

أوت سوسن فى هذه الليلة الى فراشها مبكرة · قفزت الى سريرها برشاقة ، كعادتها ، ووقفت بركة بالقرب منها · قالت سوسن :

ـ أريد أن أنام يا بركة · اجلسى واحكى لى حكاية ·

قرفصت بركة جنب السرير وقالت :

ـ طبعك لم يتغير يا ستى سوسن منذ كانت سنك ثلاث سنوات . لم يكن يحلو لك النوم الا اذا حكيت لك حكاية . كنت تقولين لى : « يا بلكه قولى لى حكاية » . أريحى رأسك على الوسادة يا حبيبتى وسأقص عليك قصـــة حتى يغلبك النوم وتنامى . سأحكى لك الليلة عن أبيك وكيف كان يعذب والدتك .

قالت سوسن معترضة :

ـ سمعت منك هذه الحكاية مليون مرة ، احكى لى حكاية اخـــرى .

ـ لا يا حبيبتى ، لا يوجد أحسن من هذه الحكاية . انها قصة طويلة لا نهـاية لها . لقد عذب والدتك وقاست منه كثيراً المسكينة . كل الرجال هكذا ، انهم خونة لا أمان لهم . المرأة منا تأتمن الثعبان ولا تأتمن أى رجل .

ـ احكى لى يا داداة ، كل حكاياتك حلوة .

اعتدلت بركة فى جلستها وقالت :

ـ ذات يـوم كنت أغسل الصـحون فى المطبخ ، وكالعادة سمعت أباك يشتم والدتك بأعلى صـوته ، ثم سمعت صراخها ، تركت الصحون وجريت لأعرف سبب الصراخ ، فوجدت ....

توقفت بركة عند هذه الكلمـة ولم تكمل الجملة ، فقالت سوسن بلهفة :

ـ ماذا وجدت يا داداة ؟

ـ ربنا يغفر لأبيك . وجدته ممسكاً بشعر والدتك يطوح بهـا يميناً ويسـاراً ويهوى على جسدها بعصا من الخيزران بكل قوته . رميت نفسى عليها لأمنعه من الاستمرار فى ضربها فدفعنى

دفعة قوية رمتني على الأرض وركل والدتك بقدمه فأخذت تتلوى من الألم ، لن أنسى هذا اليوم أبداً ٠

بكت سوسن ، فقالت لها بركة :

ـ كفى بكاء يا حبيبتي فقد مضى كل هذا وانتهى ٠ وهكذا كل الرجال ، وحوش ، اللهم احفظنا منهم يا رب ٠

قالت سوسن وهي مختنقة بالبكاء :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ ظلت المسكينة تتألم ، ثم ذهبت الى غرفتها وجلست فيها وحدها ، فجلست معها وظللنا نبكي معا طوال النهار ، فوالدتك أصيلة لا تعرف كيف تدافع عن نفسها أو ترفع صوتها بل تحبس همها في قلبها ولا تشكو لأى مخلوق ٠ لقد قاست وصبرت كثيراً ٠ أدعو الله ألا يحكم عليك بالزواج يا حبيبتي ، احفظنا منه يا رب ٠ لم أر في حياتي جنس بنت تزوجت وارتاحت

ـ ولماذا يتزوجن البنات يا دادة ما دام الزواج مؤلما لهذه الدرجـــة ؟

ـ مساكين ، واحسرتاه عليهن ، فهن لا يعـرفون الحقيقة ٠ ولو وجدن من ينصحهن لفضلن الموت على الزواج ٠ والدتك تستحق الشكر ، فلقد صانتك هنا في البيت ومنعت عنك مصائب كثيرة ٠ لا أحد في الدنيا يحبك ويعطف عليك مثلها ٠

ـ وانت يا دادة ، ألا تحبينني ؟

ـ كلنا نحبك يا حبيبتي ، ولكن اذا أردت الحقيقة ، لا حب مثل حب الأم ٠ وأمك بالذات أحسن أم رأيتها في حياتي ٠ لم أر

أطيب ولا أرق ولا أحن منها . لا تحمل هم الدنيا ما دمت معها . أنا لو نسيت فلن أنسى يوم كنت مريضة وظلت والدتك ساهرة جنبك ثلاثة أيام بلياليهم لم تر عيناها النوم ودموعها تسيل على خدها . كل مناديل البيت وملاءات البيت غرقت في دموعها ، وعندما جاءت الدكتورة لتكشف عليك ، وجدت والدتك أشد منك مرضاً ، مرضت من أجلك . أين هي من أبيك ؟ الله يرحمه ويغفر له ، ولو اني متأكدة من ان ربنا لن يغفر له أبداً ، كنت عندما تبكين وانت في الثانية من عمرك ..

قاطعتها سوسن قائلة :

ـ وهل كان أبي حيا عندما كانت سني سنتين ؟

ـ أجل ، كان حيا .

ـ ولكن ماما قالت لي انه توفي وأنا سني سنة شهو

قالت بركة متلعثمة :

ـ أجل . هو كذلك ، وماذا قلت أنا ؟

ـ قلت انه كان حيا عندما كانت سني سنتين .

قالت باضطراب :

ـ هل قلت ذلك ؟ لا يا حبيبتي انا لم أقل ذلك بل قلت انك . يحرسك الله ويصونك ، عندما كنت سعلي وأنت مريضة وسنك شهران كان يصيح قائلا انه لا يستطيع النوم بسبب سعالك ويذهب لينام في غرفة أخرى . هكذا كل الرجال ، أنانيون ، لا يهتمون الا بأنفسهم .

ـ وزوجك ، هل كان يعذبك ؟

ـ ألم أقص عليك يا حبيبتي العذاب الذي قاسيته منه الى أن أكرمني الله وخلصني منه ؟ ..

ـ احـــكي لي مـــرة أخـرى .

ـ أحكي لك يا حبيبتي ، فلا بركة لي سواك ، سأقص عليك حكاية جديدة لم أحكها لك من قبل .

قالت سوسن بلهفة :

ـ قولي يا بركة .

ـ كان زوجي ينفق على أصحابه بلا حساب ويحاسبني عن النكلة والمليم . ظل ثوبي الوحيد يحك جســدي أكثر من ثلاث سنوات ، وتشجعت ذات يوم وطلبت منه شراء ثوب جديد يسترني. فاذا به ينتفض وينقض علي ويشدني من شعري ..

ـ هل جميع الرجال يشدون النساء من شعورهن ..

ـ أجـل يا حبيبتي ، جميع الرجال مصـابون بهذا الداء الأغبـــر .

ـ ألم يكن من المستحسن أن يقص النساء شعرهن حتى لا يجد الرجال شيئا يشدونهن منه ؟ وماذا حدث بعد ذلك يا دادة ؟

ـ شدني من شعري ليقذف بي من الشباك قائلا انه لم يعد يطيق رؤية خلقتي . وظل يشدني من شعري نحو الشباك ليرميني في الحارة وأنا أحاول التخلص منه فلم أستطع ، فنحن النســاء ضعيفات لا نســتطيع أن نغلب الرجال . وبغتة ، طرح بي في الحـــارة ..

قالت سوسن بفزع شديد :

ـ رماك في الحارة ؟! وماذا حدث لك ؟

ـ لم يحدث لي أي شيء يا حبيبتي ، فلقد كنا نعيش في البدروم . قمت ونفضت عن ثوبي التراب ورجعت الى البيت .

قالت سوسن بدهشة :

ـ عدت الى البيت بعد كل هذا ؟

ـ أجل ، فأنا عنيدة . كان يرميني من الشباك فأعود اليه من الباب .. عندما وجدني مصممة على البقاء في البيت لأربه خلقتي ترك هو البيت ثم عاد ومعه بعض أصحابه المتشردين وطلب مني أن أعمل قهوة ، فعملت القهوة . ويبدو أن صرصاراً لئيماً في حجم البلحة تسلل الى الكنكة دون ان أشعر به ، ويسلم مقامك يا ستي صببت القهوة وقدمتها للضيوف ، واذا بالصرصار من نصيب الملهي على عينه زوجي . ومن أول شفطة من الفنجان طلع الصرصار في فمه ، فطفح القهوة واذا بها تصيب وجه صاحبه الجالس أمامه وكأنها مندفعة من خرطوم حريق . ومن سواد قلب زوجي ظن أنني وضعت الصرصار في القهوة عمدا فقذف في وجهي يمين الطلاق ليظهر بمظهر الرجولة أمام السفلة الذين معه ، ومن فرحتي ، ودون أن أشعر ، انطلقت من فمي زغرودة ، وحمدت الله الذي أنقذني منه . نامي يا حبيبتي فلقد سهرت كثيرا هذه الليلة . لعنة الله على الرجال وعلى سيرتهم التي تشبه الثعابين .

في الصباح ، بينما كانت سوسن في حمام السباحة سمعت صوتا يناديها :

ـ ستي سوسن ، ستي سوسن .

التفتت نحو مصدر الصوت وقالت :

- ماذا تريدين يا عواطف ؟

- تعالى ، والدتك تريد رؤيتك لأمر مهم .

أسرعت بالخروج من الماء، ولفت جسدها بالبشكير واسرعت عواطف نحو الأم وسوسن تهرول خلفها .

ترى ماذا تريد منى ماما هذا الصباح الباكر ؟ هل هو موعد الفطور ؟ لا ، لو كان الأمر كذلك لأخبرتنى عواطف ، وانا لا اتناول فطورى فى هذا الموعد . ترى ما هو هذا الشىء المهم ؟

كانت الأم واقفة وبجوارها قطة تموء مواء حزينا . لم ترد تحية الصباح التى ألقتها عليها بنتها وأشارت نحو القطة قائلة :

- تعالى تفرجى يا سوسن ، انظرى .

قالت سوسن بخوف ولهفة :

- ما بها هذه القطة يا ماما ؟

- انها مسكينة تتعذب .

كادت الدموع تطفر من عينى سوسن وهى تقول :

- لماذا تتعذب كل هذا العذاب ؟

- انها تلد .

- تلد ؟ وهل كل من يلد يتعذب هكذا ؟

- اجل ، الولادة عذاب . انظرى كيف تتلوى من الالم .

لمعت الدموع فى عينى سوسن وقالت :

ـ هل تتألم منذ وقت طويل ؟

ـ منذ أكثر من ساعة · أرايت كم تتعذب الأم لتلد ، والأب لا يعيرها اى اهتمام ولا يشعر بوجودها ؟ النساء مساكين ، العذاب جزء من حياتهن ، ولكن العاقلة هى التى تبتعد عن العذاب ·

ـ وكيف تبتعد عن العذاب ؟

ـ لا تتزوج · هانت ذى ترين اول ثمرة من ثمرات الزواج ، الولادة ، وهى مرة كالحنظل ·

ـ حنظل ؟ ما هو الحنظل ؟ ·

ـ ثمرة شديدة المرارة ·

التصقت سوسن بأمها كأنها تحتمى بها من وحش مفترس قائلة :

ـ شىء مرعب يا ماما ·

ـ احتضنتها أمها وباستها ثم قالت :

ـ انا لا أريد لك ان تتعبى يا حبيبتى · لا أحب أن تشعرى بالألم فى أية لحظة من لحظات حياتك ·

احتضنت سوسن أمها وقالت وهى مختنقة بالبكاء :

ـ يا حبيبتى يا ماما ، ليس لى فى الدنيا سواك ·

(٣)

عندما دخلت الأم غرفة سوسن فى المساء وجدتها جالسه الى مكتبها وأمامها كتاب مفتوح لا تنظر اليه ، بل كانت تحرك يدها

وكأنها تهش شيئاً وقد بدت غاضبة وفي ملامحها شيء من الفزع ·
قالت الأم بلهفة :

— ماذا تفعلين يا سوسن ؟

— ابعد هذه الفراشة عن الشمعة · انها مسكينة توشك أن تحترق · انظري يا ماما تدور حول النار ؟ انها فراشة مجنونة ستحرق نفسها ·

واردفت قائلة ويدها تطرد الفراشة :

— هش · ابعدي عن هنا ·

ولكن الفراشة لم تبتعد بل التهمتها النار · شعرت سوسن باكتئاب وقالت :

— خسارة · احترقت · احترقت يا ماما ·

بدت الأم وكأنها ارتاحت لاحتراق الفراشة وقالت :

— تستاهل · لماذا تحوم حول النار ؟

في صباح اليوم التالي ، جلست سوسن مع امها تتناولان فطورهما تحت شجرة مانجو بالقرب من حمام السباحة · بدت سوسن شاردة الذهن وكان شيئاً مهماً يشغل بالها · بغتة قالت لأمها :

— ماما ·

— نعم يا حبيبتي

— أحيانا اجلس وحدي أتفكر واتعجب ·

ـ مم تتعجبين يا حبيبتي ؟

ـ هل يوجد من البنات من يتزوجن حتى الآن ؟

ـ يوجد مغفلات كثيرات يدخلن النار بمحض اختيارهن ·

ـ ولماذا تزوجت أنت ؟

ـ كنت مغفلة ، لم أجد من ينصحني · ورثت عن أبي أموالا لا تعد ولا تحصى ، كان هذا سبب تعبي في الدنيا ·

ـ وكيف يكون المال سببا في الشقاء ؟

ـ جعل الشبان يحومون حولي ·

ـ كما تحوم الفراشات حول النار ؟

لم تستطع الأم السيطرة على غضبها عندما قالت :

ـ لا ، هذا التشبيه غير سليم · هل تشبهينني بالنار ؟

قالت سوسن وقد آلمها أن تغضب أمها :

ـ لا يا ماما ، انا لا أقصد ذلك · لقد خرجت هذه الجملة من فمي دون ان اشعر لأن منظر الفراشـــة المسكينة التي احترقت لا استطيع نسيانه ·

تركت الأم حديث الفراشة وواصلت ما كانت ترويه :

ـ كنت في شبابي جميلة مثلك ·

ـ أنت ما زلت جميلة يا ماما ·

غمغمت الأم قائلة وكأنها تحدث نفسها :

ـ فى هذا البيت يتساوى الجمال والقبح · ما قيمة الجمال فى الدير ؟

ـ ما معنى هذا يا ماما ؟

ـ لا شيء يا حبيبتى · كنت جميلة وغنية ، ولكن لم يخطبنى أحد لجمالى ، بل لأموالى . كل الرجال يجرون وراء المال ، كلهم فى هذا سواء · ولشدة كراهيتى للمال انتقيت أفقر من تقدم لى وتزوجته · كان الوحيد الذى يتظاهر باحتقاره للمال · ولكنه ظهر على حقيقته بعد الزواج ، فلقد اكتشفت اجرامه · كان يدبر خطه شيطانية ليتخلص منى ويرث مالى ويتزوج غيرى ، فطردته من البيت كما تطردين الثعلب وانفصلت عنه ·

قالت سوسن وقد دمعت عيناها :

ـ هذا الرجل ، هل كان أبى ؟

ـ أجل ، هو · هل توجد سفالة فى الدنيا أكثر من ذلك ؟

بحزن عميق قالت سوسن :

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ فكرت فى الهروب من الدنيـــا · انا وانت ، واقسمت لا أسمح لأى رجل بعد ذلك أن يدخل بيتى وصممت على ألا يراك أو ترى أحدا منهم ، فلقد رأيت أن هذا هو الطريق الوحيد نحو السعادة ، ونعيش فى جنة بعيدا عن عيون الرجال ونتمتع بأموالنا بدلا من أن يستولى عليها الرجال ، ولذا اشتريت هذا البيت ، سنعيش فيه ونموت فيه ·

ـ الم يكن من الأفضل عدم وجود الرجال لتبدو الدنيـــا جميلة ؟

ـ لقد طردناهم من دنيانا ، فهذا البيت هو دنيانا أنا وأنت ولا يهمنا وجودهم فى أى مكان آخر ما دمنا نعيش هنا فى جنة خالية منهم ٠

ـ ولماذا خلق الله الرجال يا ماما ؟

ـ ليعذبوا النســاء ٠

ـ وهل يريد الله للنساء أن تتعذب ؟

ـ لا يريد الله تعذيب أحد ، الناس هم الذين يعذبون أنفسهم ٠

أقبلت نظاجة ووقفت فى صمت ٠ عندما انتهت الأم من الحديث نظرت اليها وقالت :

ـ ماذا تريدين يا نظاجة ؟

ـ مدرسة الموسيقى تنتظر سيدتى سوسن ٠

ـ اذهبى يا حبيبتى الى درس الموسيقى ٠

ـ حاضر يا ماما ٠

جلست سوسن فى غرفة الدراسة تعزف على البيانو ومدرستها بالقرب منها تنصت اليها ٠ قالت المدرسة بعد انتهاء العزف :

ـ عزفك جميل جدا يا سوسن ، ولكننى مستخسراه ٠

قالت سوسن بدهشة :

ولماذا تستخسرينه ؟

- كنت أحب أن يسمعه جميع الناس ، ولكن بكل أسف لا يسمعه سوانا نحن الاثنتين .

قالت سوسن وملامح الدهشة ما زالت بادية في وجهها :

- وكيف لا يسمعها سوانا ؟ انني أعزف هذه الألحان لماما ولجميع الخدم ويسمعها أيضاً القمر والنجوم والشجر والعصافير والأزهار . هل تعلمين يا أبلا أنني أكتب الشعر أيضاً ؟

- أجل ، أعرف ذلك . والدتك قالت لى .

قالت سوسن وهي ناظرة الى الحديقة من خلال النافذة .

- كتبت شعرا أمس ، هل تحبين سماعه ؟

- أسمعيني يا حبيبتي .

قالت سوسن وعيناها ناظرتان الى شجرة ضخمة بالقرب من النافذة :

فراشـــة بين الروض هايمـه — على نســيم الليل عايمه (*)
تبـكى ومين رح يسمعهـــا — ما دامت الأزهـــار نايمـه ؟
ســـمعتها ورده ســـــهرانة — محرومة م النـــوم والاحـــلام
ما بين غصـــونها حـيرانه — نبـــكى الحبـــايب والأيـــام
حنت لهـــا الـــورده ومـالت — تســـالهـا ايه يبكيهـــا ..

(★) أشعار العامية والفصحى التي في جميع روايات وقصص المؤلف من نظمه .

بصت لها الحلوه وقالت والدمع باين في عنيها :

كان لى اليف اتمني رضاه أتاريه غدار

طمعني وقال لى الجنه معاه أتاريها النار

قلت لها سيبك يا حلوه منه غدار وخاين زى الرجال

كل السعادة في البعد عنه والدنيا تحلا لو بعده طال

قالت المعلمة بدهشة :

ـ شعر جميل . كيف خطر ببالك ؟

ـ كنت جالسة وحدى في الحديقة ، ومرت أمامى فراشة خيل الى أنها حزينة او خائفة من شيء . أشفقت عليها فكتبت هذا الشعر . هل تعذبت من الرجال أنت أيضا يا أبلا عزيزة ؟

ـ الرجال ؟ أعوذ بالله من شر الرجال . أرجوك يا سوسن الا تذكرينى بالأيام السود التى عشتها مع زوجى . فجسدى يرتعش كلما تذكرتها .

قالت سوسن بعد لحظة تردد :

ـ ولماذا تركت زوجك ؟ هل كان هو أيضاً شريراً ؟

ـ وهل يوجد فى الدنيا رجل طيب ؟

ـ ماذا حدث ؟

ـ اطرقت المعلمة للأرض فترة وبدت وكأنها تفكر تفكيراً عميقاً ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ فى ليلة من الليالى ، صحوت من نومى فوجدته فاتحا فمه لياكلنى .

قالت سوسن برعب :

ـ يأكلك ؟ تقولين يأكلك ؟

ـ أجل ، يأكلني ، لو لم استيقظ في تلك اللحظة لأكلني

ـ هل يأكل الرجال النساء ؟

ـ الا تعلمين ذلك ؟ أنت ما زلت صغيرة يا حبيبتي ، عندما تكبرين ستعرفين أشياء أخرى كثيرة • فلنترك هذه السيرة ونعود للموسيقى ، هل تستطعين غناء هذا الشعر الذي نظمته ؟

ـ أجل ، لقد لحنته •

عندما سمعت المعلمة غناء سوسن شعرت في أعماق نفسها بأسف لعدم سماع جميع الناس ذلك الصوت الذهبي وبقائه سجينا بين تلك الجدران العالية وكأنه تغريد طائر بنى عشه فوق صخرة من صخور القمر •

(٤)

كانت الأم في غرفة المعيشة تحتسي فنجانا من الشاي قبيل الغروب ، وسوسن جالسة بالقرب منها ناظرة من النافذة العريضة شاردة الذهن ، وبغتة التفتت الى أمها وقالت :

ـ ماما •

ـ نعم يا حبيبتي •

ـ أشعر احيانا برغبة في البكاء •

بغتة وفزع قالت الأم :

تبكين ؟! هذا غير معقول يا روحي • وما الذي يبكيك ؟

لست أدري •

ـ هل حدث ما أحزنك ؟ هل طافت بذهنك رغبة لم أستطع تحقيقها لك ؟ ..

ـ لا ينقصني شيء . ولكنني لست أدرى لماذا اشعر الآن أحياناً بأن في قلبي حزناً .

قالت الأم وقد ازداد انزعاجها :

ـ يسلم قلبك يا حبيبتي . تعالى هنا جنبي . اسندى رأسك على صدرى .

جلست سوسن جنب أمها على الأريكة واستندت برأسها على كتفها . أردفت الأم قائلة :

ـ هل تتوق نفسك لأى شيء ؟ اطلبى كل ما تهفو اليه نفسك .. وسأحضره لك من أى مكان في لدنيا . ما الذى يحزنك ؟ لا تخفى عنى شيئاً .

ـ لست أدرى ما الذى يقبض قلبي . ينتابني شعور لا أستطيع وصفه .

انخرطت سوسن في البكاء، فاحتضنتها أمها وقالت وقد استبد بها القلق .

ـ ابنتى ، حبيبتى . ما بك يا روحى ؟ ما بك ؟

كان بكاء سوسن بمثابة اعلان حالة الطوارىء في القصر ، فانتفضت الأم واقفة وأخذت تنادى بأعلى صوتها :

ـ يا بركة ، يا نظاجة ، يا عواطف ، يا مرجانة ، تعالين بسرعة .

أسرعت نحو البهو خطوات عديدة سريعة . قالت بركة وقد شحب لونها :

ـ ماذا حدث يا ستى ؟

ـ سـوسن حزينة ٠

قالت بركة بدهشة :

ـ حزينة ؟! وما الذى أحزنها ؟ انها لا تعرف الحزن ٠

ـ اريد منكن جميعا أن تعملن على اخراج الحزن من قلبها ٠٠ اضحكوها ، سلوها ، أسعدوها ، وأردفت قائلة وقد علا صوتها :

ـ الا فائدة ترجى منكن ؟ لا تتركنها الا بعد أن تنسوها جميع الأحزان ويمتلىء قلبها بالبهجة والأمل ٠

غادرت الأم الغرفة وأسرع الخدم بالجلوس حول سـوسن باذلات أقصى جهدهن لتسليتها وكانت بركة أقدرهن على اضحاكها ٠ قالت سوسن وقد سالت دموعها من كثرة الضحك :

ـ احكى لى حكاية أخرى يا بركة ، حكاياتك تكاد تقتلنى من الضـحك ٠

ـ لا يا حبيبتى ، أنا لا أحب أن أقتلك من الضحك ، لقد حان موعد نومك ، هيا الى غرفة النوم ٠

فى الصباح ذهبت بركة الى غرفة سوسن كعادتها حاملة لهـا فنجان الشاى ولكنها لأول مرة لم تجدها بالغرفة ٠ وضعت الفنجان على منضدة وانطلقت تعدو فى أنحاء البيت فلم تجدها ٠ خرجت الى الحديقة باحثة عنها فلم تعثر لها على أثر ٠

كانت الأم جالسة أمام المرآة فى غرفة نومها تمشط شعرها وفوجئت ببركة تقتحم الغرفة قائلة وهى تلهث :

ـ سـتى ٠

قالت الأم بلهفة وقد استشعرت سماع خبر مرعب :

ـ ماذا حـدث ؟

- ستى سوسن

- ما بهـــا ؟

- بحثت عنها فى جميع أنحاء البيت والحديقة فلم اجدها ٠

انتاب الأم دوار خفيف فأسرعت بالجلوس على حافة السرير قائلة :

- غير معقول ، وأين ذهبت ؟ مفتاح الباب معى ٠

سمعت نظاجة الحديث فأسرعت بنقل الخبر المزعج الى باقى الخادمات اللاتى أقبلن على عجل الى غرفة نوم الأم ٠ قالت الأم بصوت مرتجف :

- ابحثن عنها فى كل مكان ٠

ثم صاحت قائـلة :

- ما بالكن واقفــات محملقات فى وجهى هكذا ؟ تحركن ، يا لقلوبكن الباردة ٠ مستحيل ان تكون تركتنى وخرجت ٠ الباب مغلق والمفتاح معى ٠ هيا معى نبحث عنها :

اختنقت الأم بالبكاء فقالت بركة :

- لا تبكى يا سيدتى ، لابد أنها فى مكان بالحديقة ٠ الحديقة واسعة من المستحيل أن تكون غادرت البيت ٠

قالت مرجانة :

- هل نبحث عنها فى البئر ؟

صاحت الأم قائلة :

- اخرسى ، قطع لسانك ٠

ازدادت هواجس الأم واستبد بهـا القلق على ابنتها عندما تصورت امكان وقوعها فى البئر ٠

ـ لا ، لا ، هذا مستحيل ، فالبئر مغطاة وسوسن تعرف كل شبر في الحديقة · لا ، لن احتمل مجرد التفكير في ذلك ·

حاولت طرد هذه الأفكار السود التى طافت بذهنها وصاحت قائلة :

ـ ماذا تنتظرن ؟ هيا تفرقن وابحثن عنها ·

سارت كل واحدة منهن في اتجاه مختلف عن الأخرى وانطلقت الأم على غير هدى بين أشجار الحديقة تنادى بأعلى صوتها كالمجنونة :

ـ يا سوسن ، سوسن ، سوسن ··

ـ سوسن ، سوسن ···

انبعث صوت من بعيد يقول :

ـ نعم يا ماما ·

عندما سمعت الأم صوت ابنتها أجهشت بالبكاء وتمتمت قائلة :

ـ بنتى ، حبيبتى ·

كانت نداءات الخادمات ما زالت تتردد فى أنحاء مختلفة من الحديقة عندما أقبلت سوسن مسرعة نحو امها التى قالت باذلة أقصى جهدها للسيطرة على أعصابها :

ـ أين كنت يا حبيبتى ؟ لقد بحثنا عنك فى كل مكان ·

كانت النداءات ما زالت مستمرة في أنحاء الحديقة عندما قالت سوسن :

ـ انا متاسفة يا ماما ، لم أكن أعلم أنكن تبحثن عنى فلقد كنت فى مكان بعيد عند السور الخلفى ·

ـ وماذا كنت تفعلين هناك يا روحى ؟

قالت سوسن بحزن :

ـ كنت أدفن القطة • دفنتها هناك تحت تكعيبة العنب •

قالت الأم بدهشة :

ـ القطة ؟! أية قطة ؟

ـ القطة التي رأيناها معا وهي تلد جنب حمام السباحة • وجدتها ميتة ، فبكيت من أجلها • ماتت بعد أن تعذبت في الولادة •

طفرت الدموع من عيني سوسن فمسحتها بيدها • قالت الأم بصوت حزين :

ـ مسكينة ، مثل كل النساء •

(٥)

في أثناء تناول سوسن فطورها في غرفة المائدة مع والدتها قالت :

ـ حلمت حلما ليلة أمس •

ـ ماذا حلمت يا حبيبتي ؟

ـ حلمت أنني جالسة على مقعد خشبي تحت احدى الأشجار بالحديقة بالقرب من خلايا النحل ، وبغتة سمعت صوتك خلفي تقولين : « كلي يا حبيبتي من هذا العسل ، لقد احضرته خصيصاً لك » . وقدمت لي طبقاً مليئا بالعسل وفيه ملعقة • أخذت منك الطبق وملأت الملعقة •• ولكنني كلما ذقته أجده مرا •

ـ عسل مر ؟ وهل يوجد في الدنيا عسل مر ؟

ـ لست أدري ، ولكنه كان مراً في الحلم •

ـ انها هلاوس يا حبيبتي •

اطلت نظاجه من الباب قائلة :

ـ أبلا كريمة المدرسة في انتظارك يا ستي سوسن ·

أسرعت سوسن بالذهاب الى مدرسة الفيزياء في غرفة الدراسة · قالت المدرسة :

ـ نستكمل اليوم قوانين نيوتن · يقول القانون : « لكل فعل رد فعل ، مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه » ·

ـ ما معنى هذا يا أبلا ؟

اخرجت المدرسة من حقيبة يدها كرة صغيرة من المطاط وقالت :

ـ لو احضرنا كرة كهذه وقذفناها نحو الأرض ، ماذا يحدث ؟

ـ تقفز الكرة الى أعلى ·

ـ هذا ما يحدث بالضبط ، وكلما قذفناها نحو الأرض بقوة أكبر ترتفع الى مسافة أعلى في عكس الاتجاه · وهذا الارتفاع الذى في عكس الاتجاه هو ما نسميه رد الفعل ·

لم تسمع سوسن أية كلمة من شرح المدرسة ، اذ كانت تدور في راسها أشياء أخرى تشغل بالها ·

ـ أبلا كريمة ·

ـ نعم يا حبيبتي ·

ـ لماذا نعيش في هذه الدنيا ؟

فوجئت المدرسة بهذا السؤال فالتزمت الصمت برهة ثم قالت :

ـ لماذا نعيش في الدنيا ؟ لنتمتع بالدنيا ·

ـ ولكن لابد ان يكون لكل شيء في الدنيا فائدة ·

قالت المدرسة بعد لحظة تفكير :

ـ ليس هذا ضروريا ، قد توجد اشياء لا فائدة منها ·

ـ مثـــل ماذا ؟

ـ الرجال ، مثلا ، لا فائدة ترجى من وجودهم فى الدنيا على الاطلاق ، فالدنيا بدونهم تكون أجمل · اليس كذلك ؟

ـ ما فائدتى أنا فى الدنيا ؟

ـ انت ؟ انت كالزهرة الجميلة ، فهل من المعقول الا تكون للزهرة فائدة ؟ الزهرة الجميلة متعة للنظر · يكفى ان يستمتع الناس بجمالها ·

ـ واذا لم يوجد ناس وتعيش الزهرة الجميلة وتموت دون أن يراها أحد فما فائدتها ؟

ـ ليس من الضرورى ان يراها أحد ، يكفى أن تستمتع هى بالحياة ، قالت سوسن وقد بدت شاردة الذهن :

ـ أبـــلا ·

ـ نعم يا حبيبتى ·

ـ عندى سر لن اطلع عليه أحدا ·

قالت المدرسة بدهشة :

ـ سر ؟ ما هو هذا السر ؟

ابتسمت سوسن وقالت :

ـ لن أبوح به ·

ـ ولا لماما ؟

ـ سأبوح به لماما ، ولكن فيما بعد · سأحتفظ به الآن فى صـــدرى ·

ـ هل من المعقول أن تخفى أسرارك عن والدتك ؟

- طالما تمنيت أن يكون لدى سر اخفيه في قلبي لا يعرفه أحد سواى ‥ انا سعيدة ان اصبح عندى سر مثل السر الذى تخفيه ماما

- وهل تخفي عنك والدتك اى سر ؟

- أجل يا أبلا ، لدى ماما سر لا أعرفه ٠

- وما الذى اوحى لك بهذا الاعتقاد ؟

- دخلت غرفتها ذات يوم وكان في يدها شيء فاسرعت بتخبئته مني ، مع انها لا تخفى عنى شيئا ٠ عندما رأيت ذلك تمنيت ان يكون لدى سر مثلها ، فانا أحبها واود ان اصبح مثلها فى كل شيء ٠

- وأنا ، ألن تطلعيني على سرك هذا ؟

- بعد ان أطلع عليه ماما ٠

قالت المدرسة متمتمة وكأنها تحدث نفسها :

- ترى ، ما هو هذا السر ؟ اللهم اجعله خيراً ٠

بعد انتهاء الدرس جلست المدرسة ، كعادتها ، مع الأم على انفراد لتفضى اليها بجميع ملاحظاتها عن سوسن في أثناء احتسائها القهوة ٠

قالت الأم :

- كيف ترين أحوال سوسن فى هذه الأيام يا ست كريمة ‥ ؟

- فيما يختص بالدروس ممتازة ، ولكن أحوالها الأخرى ليست على ما يرام ٠

قالت الأم وقد شحب لونها :

- أحوالها الأخرى ؟ وما هي هذه الأحوال الأخرى ؟

اطرقت المدرسة الى الأرض فترة محاولة انتقاء الالفاظ التى تبدأ بها حديثها ، ثم قالت وهى لاتزال مطرقة الى الأرض :

ـ سمعت من سوسن اليوم كلاماً عجيباً لم أكن أتصور أن أسمعه منها ٠

قالت الأم وقد أسرعت دقات قلبها :

ـ مثل ماذا ؟

ـ تحدثت عن الزهرة التى لا يراها أحد ، وسألتنى عن فائدة وجودها فى الدنيا ٠

بعد تردد أردفت قائلة :

ـ وتقول ان لديها سراً لن تبوح به لأحد ٠ كلام غريب لم اعتد سماعه منها ٠ سوسن فيها شىء تغير ٠

قالت الأم وفى حديثها نبرة تأنيب :

ـ أمواظبة انت على تنفيذ الخطة التى اتفقنا عليها يا ست كريمة ام خنت العهد أنت أيضاً ؟

سرت قشعريرة رعب فى جسد المدرسة وقالت :

ـ كلا وحياة راسك يا ست منيرة ما خنت العهد ٠ منذ أن وطئت قدماى هذا البيت وانا ملتزمة بالأمانة والشرف ٠ لم يحدث على الاطلاق ان نطق لسانى بكلمة ثناء على جنس الرجال ٠ اننى دائبة يوما بعد يوم على غرس مزيد من بذور العداء وكراهية الرجال فى قلب سوسن حتى امتلأ بها وفاض وسرى فى عروقها ٠ لقد قاسيت منهم كثيراً وليس من المعقول أن أذكرهم بالخير ٠ وأنا ، كما طلبت منى اذكرها دائماً بفوائد الوحدة والبعد عن الناس ، والقى فى روعها ان الجنة لو وجدت على الأرض فلن تكون أجمل من هذا البيت ، ولا اكل ولا امل من ذكر الحكايات التى ذكرتها لى عن ابيها بشكله البشع وطباعه الشرسة ٠

قالت الام متعجلة الاطمئنان على أن كل ما لقنته للمدرسة قد وصل الى مسامع ابنتها :

ـ وأسنانه البارزة من فمه كأنياب الفيل .

ـ أجل ، أسنانه البارزة من فمه كأنياب الفيل ، ويداه اللتان تغطيهما الحراشيف . ذكرت كل ما سمعته منك واضفت اليه من عندى كل ما استطعت اضافته : عيونه البارزة أمامه . وقيامه من النوم ليلا يحبو على يديه ورجليه ويصرخ كالمجنون . اننى أكرر كل هذا حتى حفظته سوسن عن ظهر قلب أكثر من حفظها لدروسها .

قالت الأم بخوف وانفعال :

ـ أنا لا تهمنى الدروس بقدر اهتمامى بالأفكار التى احاول غرسها فى دماغها . أريد ان أنقل الى رأسها كل ما فى رأسى . نفكر كما أفكر . تكره ما أكرهه وتحب ما أحبه . لا أريد لها ان تضل الطريق وتتعذب كما تعذبت أنا . هدفى فى الحياة ان أجعلها أسعد منى ، وأسعد من فى الدنيا .

تهدج صوت الأم وهى تنطق بهذه الجملة فبكت . بحثت عن منديل بالقرب منها تجفف به دموعها فلم تجد ، فأسرعت المدرسة باخراج منديلها النظيف من حقيبة يدها . أخذته منها الأم ومسحت به دموعها . قالت وهى مختنقة بالبكاء :

ـ ليس لى فى الدنيا سواها . هى أملى الوحيد فى الحياة . لولاها لتمنيت الموت .

ثم أردفت قائلة باستعطاف :

ـ أرجوكن ان تساعدونى . ساعدننى لكى اسعدها .

ـ انا أعمل كل جهدى يا ست منيرة والله على ما أقول شهيد .

اليوم ، مثلا ، سألتني عن سبب انفصالي عن زوجي فقلت لها انه هجم على أثناء نومي محاولا ان يأكلني ، وادخلت في روعهـــا أن الرجال من الممكن أن يأكلوا النساء · كلما رأيتها لا أضن عليها بجرعة من هذا الكلام حتى أصبحت ترتعد من سيرة الرجال وتكره اباها وتتمنى الا تنام خوفا من رؤية خلقته في الحلم ·

ـ أرجوك يا ست كريمة أن تزيدى الجرعة كلما شـــعرت بمثل هذا التغيير في أفكارها ، وحافظي على زيادة الجرعة شيئا فشيئا حتى تسرى هذه الأفكار في دمهـا · أخشى أن ينهـار كل ما بنيته طوال عمرى · من سنين عديدة وأنا أسقيها هذه الأفكار كما أروى الشجرة لأضمن لها طريق السـعادة · أنفقت أموالا طائلة لأجعل من هذا البيت دنيـــا جميلة تعيش فيهـــا فلا تفكر فيما وراء أسواره · طمئنيني يا ست كريمة ، هل من الممكن أن توجد في الدنيا بنت أسعد من سوسن ؟

ـ من المستحيل ان توجد من هي أسعد منها · انها تعيش في نعيم لا مثيل له في اى مكان على ظهـــر الأرض ، خدم وحشم وحدائق وملاه وجواهر وكل ما تشتهيه النفس ·

ـ يكفي انني صنتها هنا بعيداً عن عيون الرجال ، فلا ترى رجلا ، ولا يراها رجـــل ، فهل يوجـــد في الدنيـــا نعيم أكثر من ذلك ؟

ـ من غير المعقول أن يوجد نعيم أكثر من ذلك · ان أكبـــر خدمة تؤديها أم لابنتها هي العمل على ابعادها عن عيون الرجال · هل وراء الرجال سوى الغلب وتعب القلب ؟ قطيعة تقطع الرجـال وتقطع سيرتهم · انني من شدة كراهيتي للرجال أجد نفسي دائمة التفكير فيهم والتحدث عنهم ·

بغتة صاحت الأم قائلة بانفعال شديد :

- لا · لن أسمح مطلقا بأى شيء يكون سببا فى تعب قلب سوسن كما تعب قلبى · هذا لن يحدث حتى آخر رمق فى حياتى ·

بعد نحو اسبوع صحت الام من نومها متأخرة على غير عادتها ·· ونظرت الى الساعة الموضوعة فوق (الكومودينو) بجانب السرير وفزعت عندما رأت عقاربها تشير الى التاسعة والربع ، اذ من عادتها الاستيقاظ فى نحو الرابعة صباحا لصلاة الفجــر · ظلت بركة جالسة بالقرب من غرفة نوم سيدتها فى انتظــار سماع تصفيقها لتدخل الغرفة تتلقى الأوامر كالعادة فمن غير المسموح لأية خادمة أخرى أن تدخل هذه الغرفة عند سماع تصفيق الأم أو ندائها عقب قيامها من النوم · صفقت الأم فاسرعت بركة بالدخول والقت على سيدتها تحية الصباح ولم تنتظر رداً على تحيتها فمن عادة سيدتها الا ترد تلك التحية · اتجهت بركة كالعادة نحو الستائر وفتحتها ، ثم فتحت نافذة واحدة من النافذتين كما تقضى تعليمات سيدتهـا فغمر الضوء الغرفة وبدت من خلال النافذة احدى أشجار المشمش بأزهارها المتألقة · وعندما همت بركة بالخروج لتحضيـر الفطور استوقفتها الأم قائلة :

- بـركة ·

توقفت بركة واستدارت نحو سيدتها قائلة :

- نعم يا ســتى ·

- هل تراقبين سوسن مراقبة دقيقة فى هذه الأيــام كمـا طلبت منك ؟

قالت بركة بدهشــة :

- وهل لى بركة ســواها يا سـيدتى ؟ ان عينى تتابعناها

أينما ذهبت · نظرت الأم اليها وقالت :

ـ لاحظت ميل سوسن الى الوحدة في هذه الأيام ، ما سبب ذلك ؟ وأين تذهب ؟

ـ منذ أيام ، لاحظت كثرة جلوسـها في غـرفة البدروم المجاورة للسلم ولست أدرى لماذا ، اذ لم أرها تدخل هذه الغرفة من قبـل ·

قالت الأم بدهشة وفزع :

ـ وما الذى يجلسها في غرفة البدروم هذه ؟ انهـا رطبة ومظلمـة ·

ـ لست أدرى ·

ـ ألست مواظبة على الحكايات التى طلبت حكايتها لها قبل النـوم ؟

ـ اجل يا سيدتى ، كل ليـلة أقول واعيد ، فهذا هو عملى ولا عمل لى سـواه ·

ـ ماذا حكيت لها الليلة الماضية ؟

ـ حكيت لها حكاية الرجل الذى أكل ذراع زوجته ·

قالت الأم بصوت متحشرج :

ـ هل تصدق هذه الأشياء ؟

ـ انها تصدق كل شيء يا سيدتى ·

ـ وما ملاحظاتك عنها فى هذه الأيـام ، هل هى سعيدة كالعـادة ؟

ـ كل السعادة ، ولكنهـا منذ ثلاثة أيـام لم تجلس فى الحديقة · الغرفة التى فى البدروم شغلتها عن الحديقة ·

ـ افتحي عينيك جيداً ولا تتركيها وحدها مدة طويلة ٠ الوحدة تعطيها فرصة للتفكير في أشياء قد تكون سبباً في تعاستها ٠ اريد أن أفكر لها انا في كل شيء لأريحها من عناء التفكير ٠

ثم همست قائلة :

ـ اذهبي الآن وحاولي رؤيتها وهي في تلك الغرفة دون ان تراك وحاولي معرفة الشيء الذي يشغلها ٠

بلفتة سريعة كما تفعل الحمامة صوبت بركة أذنها اليمنى نحو باب الغرفة وأمالت رأسها كعادتها عندما تحاول سماع صوت خافت وهمست قائلة :

ـ انها قادمة ، ها هي ذي خطواتها صاعدة السلم ؟ انا أعرف خطوتها من بين الف خطوة ٠

دخلت سوسن الغرفة وعلى فمها ابتسامة عذبة فابتسمت لها امها ابتسامة شاحبة وظلت بركة واقفة في مكانها ناظرة نحو سوسن دون أن يبدو على وجهها أي تعبير ٠ وقفت سوسن بالقرب من امها وقالت :

ـ ماما ٠

نعم يا روحي ، تعالى يا حبيبتي ٠

جلست سوسن على حافة السرير ناظرة الى أمها وقالت وقد اختفت الابتسامة التي كانت على شفتيها :

ـ عندي سر لم يكن في نيتي أن أطلع احداً عليه ، ولكنني سأبوح به اليك لأنني لا أستطيع اخفاء شيء عنك ٠

قالت الأم لبركة وقد شحب وجهها :

ـ اخرجي انت يا بركة واقفل الباب ٠

خرجت بركة واقفلت الباب خلفها ثم التفتت نحو سوسن وقالت بدهشـــة :

ـ ما هو هذا السر يا روحى ؟ ٠

قالت سوسن بعد فترة تردد :

ـ مــامـا ٠

قالت الأم بلهفة :

ـ نعم يا روح ماما ، ما هو هذا السر ؟

ـ هل اقوله شريطة الا تبوحى به لأى احد ؟

قالت الأم وقد بلغ قلقها الذروة :

ـ لن يخرج من فمى لأى أحد ٠

قالت سوسن وقد عادت الابتسامة الى شفتيها :

ـ ماما ، لقد أصبحت أما ٠

فزعت سوسن عندما رأت امها يغمى عليهــا فأسرعت نحوها صائحــة :

ـ ماما ، ماما ٠

لم تحدث استجابة لندائها فانطلقت تعدو وجسدها يرتعد من الخوف صائحـــة :

ـ يا بركة ، يا عواطف ، يا نظاجة ، يا مرجانة الحقننى ٠

اتجهت جميع الخطوات مهرولة نحو غرفة نوم الأم وصاحت سوسن قائلة وهى تجهش بالبكاء :

ـ لست أدرى ماذا حدث لماما ٠

قالت نظاجة بلهفة :

ـ ما بك يا سيدتي ؟ سلامتك الف سلامة ٠

بدأت الأم تفيق من اغمائها وتحرك عينيها في الغرفة وكأنها تبحث عن شيء • فرحت سوسن ولكن فرحتها ما لبثت أن تلاشت عندما رأت أمها تنخرط في البكاء فقالت بصوت مرتجف :

ـ لا تبكي يا ماما • قلبي يتمزق عنـــدما أراك تبكين • ماذا حدث يا ماما ؟

قالـت بـركة :

ـ ما بك يـا ســيدتي ؟

وقالت عواطف موجهة حديثها لسوسن :

ـ ماذا حــدث ؟

قالت سوسن والدموع في عينيها :

ـ هل قلت شيئاً أغضبك يا ماما ؟

قالت الأم وعيناها ما زالتا زائغتين تدوران في أنحاء الغرفة :

ـ ماذا كنت تقولين يا سوسن ؟

ـ متـــى ؟

ـ الآن •

ـ كنت أسألك ما اذا كان في حديثي شيء أغضبك •

ـ قبل ذلك ، ماذا كنت تقولين ؟ ما هي الجملة التي كانت سبب اغمائي ؟ أكنت تقولين انك أصبحت أماً ؟

قالت سوسن دون أن يبدو على وجهها أي انفعال •

ـ أجـل يا ماما . أصـبحت أما مثلك • أنا فرحانة لأنني اصبحت أماً •

قالت الأم متلعثمة ومضطربة :

ـ أصـبحت أماً ؟ أصــبحت •• ؟ كيف •• ؟ ماذا يعني هذا •• ؟ تكلمي :

قالت سوسن وقد عاد اليها هدوؤها :

ـ لشدة حبى لك يا ماما أريـــد أن أصـــبح مثلك فى كل شيء ٠ السست أنت أمى ؟ أنا ايضــــاً أصبحت أماً مثلك لأفرحك ، لماذا لا تفرحين ؟ أنا لم أقل شيئاً يدعو للحزن ٠

تمتمت بركة فى ذهـــول :

ـ يـا عيب الشـــوم ٠ يا للمصيبة التى دقت على دماغـك يا بركة ! ٠

ـ وقالت نظاجة وقد شعرت بدوار :

ـ لا يمكن أبداً ، غير معقول ، انها مصيبة نزلت على دماغنا جميعـاً ٠

وقالت مرجانة وهى على وشك البكاء :

ـ رحنا فى ســـتين داهية ٠

قالت الأم محاولة السيطرة على أعصابها لتبدو هادئة :

ـ قولى يا سوسن ، ماذا حدث ؟

قالت سوسن وهى متجهة نحو باب الغرفة :

ـ هيا معى لتعـرفن ماذا حـــدث ، انه فى الغـــرفة التى بالبدروم ٠

قفزت الأم من السرير وســـارت خلف سوسن وباقى الخدم خلفهما ٠ شـــعرت الأم بدوار فترنحت فى أثنـــاء ســـيرها ٠ قالت لبركة :

ـ اســـنديني يا بــركة ٠

اسرعت سوسن الى أمها عندما سمعت كلماتها وقالت بلهفة :

ـ سلامتك يا ماما ، استندى على أنا ٠

استندت الأم على ابنتها وسارتا معاً خلفهما الخدم . هبطن درجات السلم المؤدى الى البدروم . كان باب الغرفة مقفلا . قالت سوسن وهى تفتح الباب :

ـ سأفرجكن على أولادى . أنا لا أستطيع اخفاء أى سر من أسرارى .

دخلت الأم الغرفة ودخل الخدم . أخذت الأم تدير بصرها فى أنحاء المكان فلم تلاحظ وجود أثر لهؤلاء الأبناء فقالت :

ـ أين هم ؟

أزاحت سوسن لوحاً عريضاً من الخشب فظهرت مخلوقات تطل رؤوسهم الصغيرة من سلة مزركشة ، عيونهم نصف مغمضة وأجسادهم متشابهة الألوان . قالت سوسن مشيرة نحوهم :

ـ ها هم .

قالت الأم بدهشة :

ما هذا ؟ انهم قطط .

ـ نعم يا ماما ، وماذا كنت تظنين ؟ أنهم أبناء القطة المسكينة التى ماتت بعد ولادتهم ، أحضرتهم هنا وأعددت لهم هذه الملابس التى يرتدونها وأصبحت أنا أمهم ، أسقيهم لبنا كل يوم . مساكين ، لولاى لماتوا من الجوع .

قالت الأم وقد اطمأن قلبها وزال عنها الدوار وابتسمت ابتسامة عريضة :

ـ هكذا المسألة اذن ، من أجل هذا تقولين انك أصبحت أماً .

ـ أجل ، ألم أحل محل أمهم ؟ اننى أحبهم حباً شديداً كحب الأم لأبنائها ، اننى أحملهم وأداعبهم وأغنى لهم وأبوسهم كما كنت تعملين وأنا صغيرة .

ـ وكيف أخفيت عنا السر كل هذه المدة ؟

ـ ماذا أطلعتكن عليه ، أنا لا أخفى عنك شيئا

كرد فعل للخوف والقلق اللذين سـيطرا على الأم طوال اللحظات الرهيبة التى سبقت اكتشاف تلك الحقيقة ، وجدت نفسها تجهش بالبكاء . قالت سوسن بفزع :

ـ ما بك يا ماما ؟ ما بك يا حبيبتى ؟ هل أغضبك عطفى على هؤلاء القطط المسـاكين ؟ انا لم افعـل ما يغضبك . هل أنت غاضبة منى ؟

جفت الأم دموعها واحتضنت ابنتها وباستها ثم قالت :

ـ وهل من المعقول أن أغضب منك يا روحى بسبب شعورك الرقيق هذا ؟

صعد الجميع ، وطلبت الأم من بركة أن يكون تناول الفطور فى الحديقة تحت شجرة ضخمة من أشجار المانجو كما هى العادة فى معظم أيام الصيف .

بدت الأم شاردة الذهن ملتزمة الصمت ناظرة نحو المائدة ، ثم نظرت الى سوسن وقالت :

ـ أريد أن أسألك سؤالا يا سوسن ..

وضعت سوسن فنجان الشاى الذى كانت تحتسيه وقالت :

ـ نعـم يا ماما .

ـ هل حدث ما سبب لك بعض الضيق أو الحزن منذ أيام قلائـل ؟

قالت سوسن بدهشة :

ـ حزن .. ضيق ؟ لا اشعر بأى حزن أو ضـيق . ولماذا تسألين هذا السؤال ؟ .

ـ لا شيء ، مجرد رغبة في الاطمئنان عليك · أحب أن أراك سعيدة وفرحانة دائماً · منذ فترة طويلة لم تطلبي مني أي شيء وأنت تعلمين أنني أشعر بالسعادة عندما أحقق لك أي طلب · لو طلبت عيني لما ترددت ·· في اهدائهما اليك ·

ـ تسلم عيناك يا ماما · أنا لا ينقصني شيء ولا يوجد في الدنيا من هي أسعد مني ·

قالت الأم وقد لمعت الدموع في عينيها :

ـ ليس لي في الدنيا سواك · أنت نور عيني · لا أستطيع الحياة بدونك يوماً واحداً · آه لو تعلمين مقدار حبي لك · لقد ضحيت بكل شيء في الدنيا من أجلك ·

شعرت سوسن بعطف شديد على والدتها فقالت :

ـ يا حبيبتي يا ماما · أريد أن أعرف تلك التضحيات ·

ـ ضحيت بأشياء كثيرة · كثيرة جداً ·

قالت سوسن وقد بلغ تأثرها ذروته :

ـ لم أكن أحب أن أكون سبباً في عذابك ·

ـ لا يا حبيبتي ، ليس هذا عذابا · الأم تشعر بالسعادة عندما تضحي من أجل ابنتها ·

ـ هل يعني هذا أنك سعيدة ؟

ـ أنا سعيدة طالما أنت معي ، ولكن هناك شيئاً يحيرني يا سوسن ، يا حبيبتي ·

قالت سوسن بفزع :

ـ ما هو هذا الشيء ؟

ـ منذ أيام وانت مشغولة بالتطبيقات وتمضين معهم وقتا طويلا ·

قالت سوسن وكأنها تتحدث عن بديهية لا تحتاج الى تفسير :

- انهم أولادى ·

قالت الأم بنبرة يمتزج فيها الحزم والحب :

- ليسوا أولادك يا حبيبتى ، انهم أولاد القطة ·

- لكن أمهم القطة ماتت وأصبحت انا امهم ·

- لا مانع من ذلك يا روحى ، لكننى كنت أحب أن تمرحى وتلعبى وتجرى فى الحديقة وتستمتعى بحمام السباحة الذى لا مثيل له فى الدنيا ، وتغنى للقمر والنجوم فى المساء كما اعتدت أن تفعلى · هذه الأشياء كانت تشعرنى بأنك سعيدة فأفرح لسعادتك أنا لا احب أن تحبسى نفسك مع القطط فى تلك الغرفة الكئيبة ·

لكننى اشعر بالسعادة عندما اجلس مع القطط · اننى أحب هذه القطط ولم اعد أطيق البعد عنهم ·

- افعلى ما تريدين ما دام هذا يشعرك بالسعادة ، ولكن ما دمت تحبين القطط كل هذا الحب فينبغى أن تهتمى بحمايتهم · أخشى أن تتسرب العرسة اليهم من الحديقة فتفترسهم كما فعلت بالكتاكيت فى العام الماضى ·

- حاضر يا ماما ، سأراقبهم جيدا ولن أغفل عنهم ·

(٦)

أقبل المساء ونام الجميع ما عدا الأم التى ظلت ساهرة ، ولم يعد يتردد فى جميع أنحاء القصر وحديقته سوى أصوات الضفادع وصراصير الغيط · حملت الأم مصباحاً وسارت نحو غرفة بركة المجاورة لغرفة سوسن · كان باب الغرفة مفتوحاً

كالعادة ، وكانت بركة تغط في نومها : ضغطت الأم على كتف بركة قائلة بما يشبه الهمس :

ـ بركة ، بركة ٠

لم تستجب بركة لهذا النداء وانقلبت على جنبها الأيسر فكررت الأم نداءها بصوت أكثر ارتفاعا وضغطت على كتفها مرة أخرى وهزته عدة مرات فانتفضت بركة وجلست فى فراشها وارتعد جسدها عندما وجدت سيدتها واقفة جنب سريرها مصوبة بصرها نحوها وفى يدها المصباح ٠ قالت بركة بلهفة وفزع :

ـ نعم يا سيدتى ٠

ـ همست الأم قائلة :

ـ قومى ٠

باستسلام نهضت بركة من فراشها قائلة :

ـ حاضر ٠

ـ هيا معى نهبط السلم ، وحذار ان يسمع أحد وقع اقدامنا ٠

قالت بركة وهى تفرك عينيها :

ـ حاضر يا ستتى ٠

خرجت الأم من الغرفة وسارت بركة خلفها وكأنها تمشى وهى نائمة وهمست قائلة :

ـ الى أين نحن ذاهبتان ؟

ـ الى الغرفة التى بالبدروم ٠

اخذتا تهبطان السلم ببطء وحذر شديد ٠ قالت بركة :

ـ اتقصدين غرفة القطط ؟ اننا نسميها الآن غرفة القطط ٠

لقد وجدت سيدتي سوسن شيئا مسليا تشغل به نفسها · لم يعد لها عمل سوى اطعام القطط والغناء للقطط وتدليل القطط ·

ـ أجل ، أعرف كل ذلك ، ولذا فأنا أطلب منك شيئاً ·

ـ ما هو هذا الشيء يا سيدتي ؟

ـ لست مستريحة لهذه العلاقة التي نشأت بين سوسن وهذه القطط · سوسن مشتاقة لأن تصبح أما · يقلقني هذا الشعور الجديد الذي طرأ عليها · الشعور بالأمومة بدأ يتحرك في أعماقها· أريد أن أقتل هذا الشعور قبل أن يقتلني ويقتلها ·

قالت بركة وقد استعصى عليها فهم ما ترمى اليه سيدتها :

ـ كيف ؟

ـ عطف سوسن على القطط يخفي خلفه شعوراً آخر يخيفني ·

ـ يخيفك ؟ ولماذا يخيفك ؟

ـ أنت تعلمين مقدار المجهود والتعب اللذين أرهقاني لتنفير سوسن من أبيها والعمل على كراهيتها له ولجميع الرجال ، وأخشى أن ينهار كل ما بنيته · لم أسترح لقولها انها أصبحت أماً ·

ـ ولكنك عرفت يا سيدتي أنها كانت تقصد بذلك العطف على القطط التي حرمت من أمها ·

ـ أجل ، أعلم ذلك ، ولكن شيئا فشيئا سوف يؤدى ذلك الى التفكير في الأطفال من بني آدم لتصبح أماً حقيقية · شعورها هذا لا يعجبني · لا أريد أن تتحرك مثل هذه الأفكار المدمرة في دماغها فتحن للزواج · لابد من قطع دابر هذه الأفكار أولا بأول قبل أن يستفحل الأمر · أريد أن أجنبها التعاسة · لا أطيق رؤيتها وهي تتعذب بسبب تلك الوحوش المفترسة التي يسمونها رجالا ·

ـ الشر بره وبعيد ، سوسن لم تذكر ولم تفكر في الرجال · انها ترتعب من سيرتهم ·

تقلصت عضلات وجه الأم وبدت مكفهرة الملامح قاسية العينين وكأن شيطانا احتل جسدها · ثبتت بصرها فى عينى بركة وقالت بصوت متحشرج :

ــ على أية حال أنا لست مستريحة لوجود هذه القطط هنا ·

وبعد فترة صمت رهيبة قالت :

اسمعى يا بركة ·

استشعرت بركة أنها على شفا حدوث شيء رهيب فقالت وقد سرت فى جسدها قشعريرة :

ــ نعـــم ·

ــ أريد منك أن تقتلى هذه القطط ·

التزمت بركة الصمت وقد انعقد لسانها · نظرت الى القطط فوجدتهم مستسلمين لنوم عميق وقد تلاصقوا وكأنهم كتلة واحدة وأنفاسهم تتردد كما تتردد أنفاسنا ، فتمتمت قائلة :

ــ أقتل القطط ؟ وما ذنبهم ؟ انهم صغار لم يرتكبوا ذنبا ·

قالت الأم آمرة وقد بدا وجهها أشد قسوة :

ــ قلت لك اقتليهم وهذا يعنى أن تقتليهـــم ، أفاهمة أنت ما أقول ؟

فى محاولة أخيرة يائسة لتجنب اقتراف هذه الجريمة قالت بـــركة :

ــ وماذا تقول سيدتى سوسن عندما تصـــحو فى الصـــباح فلا تجدهم · أخشى لا سمح الله ولا قدر ، أن تفقد عقلها · انهـــا تحب هذه القطط حبا لم أر له مثيلا ·

قالت الأم ساخرة ومؤنبة :

ـ لم ترى له مثيلا ؟ كلا ، لقد رأيت ما هو أقوى منـــه • حبي لسوسن أقوى من حبها للقطط • لم يخلق في الدنيـــا حب أقوى وأعنف من حبي لسوسن •

ـ وهل يهون عليك أن تصحو ستي سوسن من النوم فلا تجد قططهـــا التي تقول انهم أولادها ؟ اذا لم تعثر عليهم فستحس ، يا حبة عيني ، وكأن أولادها ماتوا • لماذا لا تتركها متسلية بهم ؟

ـ لا أقبل مناقشة في هذا الموضوع ولا أريد ان يطلع النهار وهذه القطط على قيد الحياة •

ـ وماذا نقول لسوسن ؟

ـ نقول ان العرسة خطفتهم •

قالت بركة مستسلمة للحزن واليأس :

ـ الأمر أمرك يا سيدتي •

(٧)

في الصباح ، في غرفتها ذات الجدران الوردية ، صـــحت سوسن من نومها • كانت بركة قد وضعت لها باقة من الورد في زهرية على منضدة صغيرة بجوار النافذة • شعرت سوسن بسعادة عندما تذكرت القطط ، وازدادت سعادتها عندما شاهدت الورود فانطلقت تترنم باغنية من تاليفها وتلحينها تقول فيها :

يـــا وردتي يـــا معطـره	يـا طـاله مـن زهـريتي
قطفوك وانـــت صــغيره	وصبحت زينـــة حجـرتي
قـــولي لي واحنـــا لوحـــدنا	بالذمـه ايـه الحســـن ده
بيقولوا قال انـت وانـــا	ما يكونش أجمـل من كده
أخذت لونـــك م الشـفق	وفيـك حســـنه وطلعته
لكن غصــــونك والورق	لـون الأمـــل في بهجتـه

ثم تثاءبت وتمطت ونادت :

ـ يا بـركة ٠

لم تكن بركة قد ذاقت النوم منذ أيقظتها سيدتها ، بل ظلت مقرفصة بالقرب من باب غرفة نوم سوسن بقلب واجف من انتظار هذه اللحظة الرهيبة ٠

ماذا أقول لسوسن عندما تفاجأ باختفاء القطط ؟ لأول مرة يعتصر الحزن قلبى عندما أجدها سعيدة مستبشرة لعلمى أن سعادتها هذه ستنهار وقلبها الرقيق سيتحطم عندما تكتشف بعد لحظـــات ضياع القطط ٠ استر يا رب وهبها الصبر والسلوان ٠

ـ نعـــم يا ستى ؟

ظلت خارج الغرفة مترددة فى الدخول ٠

ـ تعالى يا بركة ٠

دخلت بركة مبتسمة ابتسامة مغتصبة وقالت :

ـ صباح الخير يا ستى ٠

ـ يســـعد صباحك ٠

كيف يسعد صباحى وأنا مقبلة على أسود يوم فى حياتى ؟

ـ اذهبى بسرعة يا بركة وأحضرى اللبن لأطعم أولادى ، لابد أنهم الآن مساكين ٠ جوعى ٠

استر يا رب وامنحنى القدرة على مواجهة العاصفة ٠

ـ ألا تنتظرين حتى تفطرى أنت يا سيدتى ؟ هل من المعقول أن تأكل القطط قبل أن تأكلى ؟

ـ أنا كبيرة من الممكن أن أصبر ، أما هم فصغار لا صبر لهم على الجـــوع ٠

سارت بركة نحو المطبخ وأحضرت وعاء به لبن • قفزت سوسن من فراشها عندما رأتها وفتحت درجاً فى الكمودينو المجاور للسرير وأحضرت منه قطارة • تناولت اللبن من بركة وهبطت السلم وبركة خلفها • عندما وصلتا الى باب الغرفة قالت سوسن بدهشة :

ـ ما هذا ؟ من الذى فتح باب غـــرفة القطط ؟ لقـد تركته بالأمس مقفـــلا •

قالت بركة وهى مطرقة الى الأرض وقد أسرعت دقات قلبها :

ـ لست أدرى • أنــا لم أحضر الى هذا المكان منذ غادرنــاه بالامس •

اخذت سوسن تدير بصرها فى أنحاء الغرفة فلم تجد القطط • قالت وقد شحب لونهــا :

ـ شىء غريب ، أين القطط ؟

ـ لا أحد يقترب من هذه الغرفة سواك يا سيدتى •• سأبحث عنهم فقد يكونون مختبئين فى مكان ما بالغرفة •

ـ غير معقول ، انهم لا ينتقلون من سريرهم •

تظاهرت بركة بالبحث عنهم فى جميع أنحاء الغرفة ثم قالت :

ـ أليس من الممكن أن يكونوا قد خرجوا الى الحديقة ليشموا الهواء عندما وجدوا باب الغرفة مفتوحاً ؟

ـ يشمون الهواء فى الحديقـــة ؟! انهـم ما زالوا عاجزين عن المشى •

ـ لست أدرى أين ذهبوا ، لقد فتشت عنهـــم فى كل شبر بالغرفة كما رأيت •

في هذه اللحظة تسللت الأم الى الغــــرفة فلم تدرك سوسن وجودها الا عندما سمعتها تقول :

قالت سوسن وهي مختنقة بالبكاء :

ـ القطط غير موجودة بالغرفة يا ماما ·

ـ علام تبحثان ؟

قالت الأم بهــدوء قاتل :

ـ آه ، القطط · مساكين · أنت المسئولة عما حــــدث لهــم يا سوسن يا حبيبتى · الم أطلب منك أن تعتنى بحراستهم ؟ لقد تركت باب الغرفة مفتوحاً ·

ـ لا يا ماما ، لقد أقفلت الباب ، أنا متأكدة من ذلك ·

ـ اذا كنت قد أقفلت الباب فمن الذى فتحه ؟

لست أدرى · من المستحيل أن يكونوا قد ضاعوا يا ماما · لابد أننا سنعثر عليهم ، أليس كذلك ؟

ـ لا يا سوسن ، لن نجدهم ·

قالت سوسن وقد اعتصر الحزن قلبها :

ـ ولماذا لن نجدهم ·· أين ذهبوا ؟

ألقت الأم بالقنبلة :

ـ أكلتهم العــرسة ·

ترنحت سوسن وكأنها تلقت صفعة عنيفة اهتز لها كيانها ·

ـ أكلتهم العرسة ؟! غير معقول ·

ـ رأيت العرسة خارجة تجرى من الغرفة اليوم فى الصباح الباكر ٠

قالت سوسن بصوت مختنق بالبكاء وكأنها تحدث نفسها :

ـ غير ممكن ، أنهم أولادى ، أولادى ٠

وانخرطت فى بكاء عنيف ٠ شعرت أنها فقدت المصدر الوحيد للمتعة التى كانت تسعد بها منذ عثرت على هذه القطط ، فأسرعت بصعود السلم وارتمت فوق سريرها وجسدها يهتز من البكاء ٠ لحقت بها الأم وأخذت تربت على ظهرها فى محاولة يائسة لتهدئتها قائلة :

ـ لا تحزنى يا حبيبتى ، كل شىء فى الدنيا فداك ٠ كل شىء من الممكن أن ينسى ٠ كل شىء من الممكن أن ينسى ٠

ولكن سوسن ظلت حزينة عاجزة عن السلوان ، وبدت صامتة شاردة الذهن زائغة النظرات على الرغم من المجهود الذى بذلته والدتها للتسرية عنها بشتى الوسائل ٠ بعد ثلاثة أيام من هذا الحادث كانت سوسن جالسة وحدها مطرقة للأرض بادية الحزن فوق دكة خشبية تحت احدى أشجار الحديقة ٠ اقبلت أمها وجلست بجوارها فلم تتحرك سوسن وكأنها لم تشعر بوجود أمها ٠ قالت الأم :

ـ أما زلت حزينة على ضياع القطط يا سوسن ؟

قالت سوسن دون أن ترفع بصرها عن الأرض بصوت ضعيف وكأنه يكافح ليخرج من بين شفتيها :

ـ أحاول النسيان ، وأتمنى أن أنساهم ٠

لمعت الدموع فى عينى الأم وهى تربت على ظهر ابنتها بحنان قائلة :

ـ لا أريد لك أن تحزنى من أى شىء · اننى أحزن عندما أراك حزينة وافرح عندما أراك فرحانة · أتمنى أن أستطيع عمل أى شىء يسعدك · اطلبى منى أى طلب وسوف أحققه لك ·

التفتت سوسن الى أمها وقالت :

ـ لى طلب يا ماما أريد منك تحقيقه ·

ـ ما هو هذا الطلب يا روح ماما ؟

ـ أريد أن أرى رجلا ·

لم تصدق الأم ما سمعته فقالت بدهشة واستنكار :

ـ تريدين ماذا ؟!

ـ أرى رجلا ، أريد أن أعرف منظرهم · هل هم متشابهون فى الشكل ؟

قالت الأم التى لم تستطع السيطرة على انفعالها :

ـ أجل ، كلهم متشابهون فى البشاعة · منظرهم مرعب ، مخيف ·

ثم أردفت قائلة بحنان :

ـ لست قاسية الى حد السماح لك برؤية أحد منهم ·

وبغتة أفلت منها زمام السيطرة على أعصابها فصاحت قائلة بعصبية :

ـ لا يمكن أبداً · لا يمكن ·

ـ لكنك وعدتنى أن تحققى لى أى طلب ·

بذلت الأم جهداً كبيراً لتسيطر على مشاعرها لتبدو هادئة وقالت :

ـ جميع طلباتك مجابة يا حبيبتى الا هذا ، لو رأيت رجلا لظللت فى فزع طوال حياتك · مهما تصورت وتخيلت فلن يصل خيالك الى بشاعة منظرهم · انهم وحوش · لا احب أن ينطق لسانك بهذه الكلمة مرة أخرى يا حبيبتى · لابد من العمل على ابعاد جميع المصائب عنك ·

لقد كرست حياتى لذلك ·

ـ ولكننى أرى رجالا فى أحلامى · أراهم فى أشكال غريبة مختلفة لأننى لا أعرف حقيقة منظرهم ·

ـ مهما حلمت فلن تستطيعى تصور قبحهم · بشاعتهم لا يرقى اليها تصورك ، وطباعهم أبشع من أشكالهم · لو رأيت أحداً منهم فستظلين فى رعب دائم فى اليقظة والمنام ·

ـ ولكننى أفكر كثيراً فى هذه المسألة ·

ـ لا تفكرى فى هذه الأشياء على الاطلاق · حبى لك وعطفى عليك لا يسمحان لى بأن أريك رجلا طوال حياتى ·

لم تحتمل أعصاب الأم الاستمرار فى هذا الحوار مع ابنتها فقامت وغادرت الحديقة وظلت سوسن ناظرة اليها ولا تدرى لماذا شعرت بعطف شديد على أمها عندما رأتها تصعد السلم المؤدى الى

البيت منكسة الرأس بطيئة الخطوات وخشيت أن تكون قد أساءت الى مشاعرها ، ولكن رغبتها فى رؤية رجل ، أى رجل ، سيطرت عليها ولم يعد فى استطاعتها التنازل عن هذه الرغبة ٠

فى فزع شديد واضطراب وقفت الأم فى البهو وأخذت تدير بصرها فلم تر أحداً من الخدم ٠ صفقت فأقبلت بركة مسرعة ٠

ـ نعم يا ستى ٠

ـ انجدينى يا بركة ، حدثت مصيبة ٠ مصيبة كبرى لم تكن على البال ٠

شحب وجه بركة وقالت بلهفة واضطراب :

ـ مصيبة ؟ ما هى هذه المصيبة لا سمح الله ولا قدر ؟

تركت الأم بركة ناظرة اليها مشدوهة وصفقت ثم نادت :

ـ يا نظاجة ، يا عواطف ، يا مرجانة ٠

من أماكن مختلفة هرول الجميع نحو الأم التى قادتهن نحو غرفة نومها ٠ جلست على أحد الكراسى فى ركن الغرفة وطلبت منهن الجلوس أمامها فجلسن مفترشات أرض الغرفة ناظرات الى الأم بدهشة وترقب ٠ قالت بركة :

ـ ماذا حدث يا سيدتى ؟

قالت الأم وهى تقاوم البكاء :

ـ سوسن ٠

قال الجميع بفزع :

ـ ما بهـا ؟

ـ ما تعبت فى بناته طوال حياته سينهار ٠

قالت نظاجة :

ـ كيــف ؟

قالت الأم وهى تمسح بعض قطرات من الدموع طفرت من عينيها :

ـ سوسن تريد أن ترى رجلا ٠

قال الخدم بدهشة واستنكار :

ـ ترى رجــلا ؟

قالت بركة :

ـ لا يا سيدتى ، لا يمكن أن تطلب سوسن طلباً كهذا ٠

وقالت مرجانة بلهجتها النوبية :

ـ يا عيب الشــوم ٠

وقالت عواطف :

ـ انها ترتعب من سيرتهم ٠

ـ سوسن طلبت منى الآن أن أريها رجلا ٠

قالت بركة :

ـ كيف تقول هذا مع أنها تقوم من نومها مرتعشة لو رأت رجلا فى المنــام ؟

قالت عواطف :

ـ انها لا تعرف شكلهم ٠

ـ ولكنها طلبت رؤية رجل ٠ دبرونى ، ماذا أفعل ؟

قالت بركة :

ـ ألم يكن من المستحسن أن نتركها مشغولة بالقطط التى كانت تقول عنهم انهم اولادها ؟

ـ لم أستطع يا بركة ، خفت عليها من الحنين للأمومة والزواج ٠

قالت بركة :

ـ ولكنها تريد الآن أن ترى رجلا بشحمه ولحمه ، فما العمل ؟

قالت الأم ثائرة :

ـ هل احضرتكن لتسالننى أم لسماع مشورتكن ؟ .

قالت مرجانة :

ـ ولماذا لا نريها رجلا يا سيدتى ؟ رجلا مشوه الخلقة قبيح المنظر لتعتقد أن كل الرجال بهذا المنظر فيزداد نفورها منهم ؟

انفرجت أسارير الأم وبدا الارتياح فى ملامح وجهها وقالت :

فكرة لا بأس بها يا مرجانة ، ولكن من أين نحصل على رجل بهذه المواصفات ؟

قالت مرجانة :

ـ قبل حضورى الى هذا البيت كنت أعرف رجلا لم يخلق الله اقبح منه ٠ القرد يخاف منه ، ولابد أنه بعد هذه السنوات قد

ازداد قبحاً لو كان على قيد الحياة ، من الممكن أن أسافر وأحضره معي الليلة ٠

قالت الام بدهشة :

ــ هل فى استطاعتك السفر واحضاره دون أن يراه أحد ؟

ــ أجل ، أسافر وأحضره فى ظلام الليل ٠

ــ وهل يقبل المجيء ؟

ــ لابد أن يأتي لو أجزلت له العطاء ، فهو فقير مسكين ٠

ــ لا مانع لدى يا مرجانة ، سافرى وأحضريه وسأجزل له العطاء ٠

(٨)

كانت سوسن مضطجعة فى غرفة نومها ، ونظاجة جالسة جنبها تحكي لها حكاية الرجل الذى أكل ذراع زوجته ، والأم جالسة فى غرفة المعيشة ، وعواطف فى المطبخ تغسل المواعين ، وبركة قابعة بالقرب من البوابة الخارجية فى انتظار عودة مرجانة ٠ سمعت بركة ثلاث دقات على الباب ٠ وعلى الرغم من أن هذه الدقات الثلاث هى الاشارة المتفق عليها مع مرجانة لتعلن عن قدومها ، الا أن بركة ترددت فى فتح البوابة وأرادت ، زيادة فى الاحتياط ، التأكد من شخصية القادم ٠ فتحت الطاقة التى بالباب وأطلت منها فرأت مرجانة وبجوارها شبح مخلوق لم تستطع فى الظلام تمييز ملامحه لتدرك ما اذا كان انساناً أم حيواناً ٠

فتحت البوابة فدخل الاثنان ٠ نظرت بركة الى الرجل نظرة خاطفة ثم أسرعت بتحويل بصرها عنه اذ لم تستطع احتمال رؤية خلقته التى لم تر فى حياتها أقبح منها قادتهما الى الغرفة التى كانت

فيها القطط بناء على التعليمات التى تلقتها من سيدتها تركتهما فى الغرفة وأقفلت بابها وذهبت الى سيدتها ، قالت :

ـ مرجانة عادت يا سيدتى ٠

ـ هل أحضرت معها الرجل ؟

قالت الأم بلهفة :

ـ أجل ، أحضرته ٠

ـ أين هو ؟

ـ معها فى غرفة القطط ٠

ـ ما شكله ؟

ـ القرد يخاف منه ٠

ـ أخشى أن تفزع منه سوسن ٠

ـ أليس هذا هو المطلوب ؟

ـ أجل ، ولكننى أخشى أن يكون رعبها أكثر مما تحتمل ٠

ـ ربنا يستر ٠

ـ احضرى مصباحاً وانتظرينى هنا ٠

كانت سوسن ما زالت منصتة لحكايات نظاجة ٠ قالت الأم :

ـ سوسن ٠

ـ نعم يا ماما ٠

ـ كنت قد طلبت منى شيئاً ، هل تذكرينه ؟

ـ أجل يا ماما ، طلبت رؤية رجل لأعرف شكل الرجال ٠

ـ لتعرفى معزتك عندى ، وأننى لا أرفض لك طلباً ٠

قاطعتها سوسن قائلة بفزع :

ـ هل سترينني رجـلا ؟

ـ ما بك يا حبيبتى ! هل خفت ! ألا تريدين رؤية رجل ؟

ـ أريد أن أراه ولكنني خائفة ٠

ـ كيف تخافين من شيء أنت التى طلبته ؟ على أية حال لا داعى لرؤيته اذا كنت خائفة ٠

ـ أريد أن أراه ولكن من بعيد ، أين هو ؟

ـ هنا فى البيت ٠ تعالى معى ٠

كان باب الغرفة مقفلا ٠ قالت الأم :

ـ انه فى هذه الغرفة ٠ افتحى الباب وستجدينه أمامك ٠

قالت سوسن بتوسل :

ـ افتحيه أنت يا ماما وسأقف خلفك ٠

ـ لا تخافى يا حبيبتى ، سأفتح أنا الباب ٠

أسرعت دقات قلب سوسن عندما مدت الأم يدها لتفتح الباب فرجعت الى الخلف بحركة انعكاسية ٠ كان الرجل جالساً على كرسى ومرجانة واقفة جنبه مديرة له ظهرها ومتجهة ببصرهـا نحو باب الغرفة المقفل ٠ انتفض رعبا وأسرع بالوقوف عندما دخـلت الأم وخلفها سوسن وظل منحنيا ٠ كان ذا وجه به آثار الجدرى وأنف ضـخم وجبهة ضـيقة وعينين حمراوين جاحظتين بلا رموش وبلا حواجب ، ورقبة قصيرة غليظة ، شفته العليا مشقوقة كشفة الأرنب تبرز منها أسنان ضخمة مشوهة وظهره مقوس ويداه أطول من المعتاد أشبه بيدى قرد ٠

اتسعت عينا سوسن ووقفت صـامتة تتأمله وقد انفرجت شفتاها قليلا ، وبعد فترة صمت وتأمل قالت وعيناها مصوبتان نحـوه :

ـ هل هـذا رجل ؟

قالت الأم وفي صوتها نبرة انتصار :

ـ نعم يا حبيبتي ، هذا هو الرجل ، ما رأيك فيه ؟ كل الرجال بهذا المنظر ٠

اقتربت سوسن خطوة نحو الرجل وفي عينيها دهشة وانبهار وقالت :

ـ كنت أظن الرجال أقبح من ذلك ٠

قالت الأم شاعرة بخيبة أمل مريرة :

ـ هل من الممكن أن يوجد في الدنيا من هو أقبح من ذلك ؟

قالت سوسن وهي شاردة الذهن :

ـ لست أدري ، أنا لم أر الدنيا ، ولكن الرجال الذين كنت أراهم في أحلامي أقبح من ذلك بكثير ٠

قالت الأم بدهشة واستنكار :

ـ أقبح من هذا ؟!

ـ وجوههم في أحلامي تشبه وجه السحلية وتبرز من رؤوسهم قرون ملتوية كقرون الخراف ، وأسنانهم كأنياب الفيل وعيونهم محمولة على نتوءات تدور في جميع الاتجاهات وأيديهم أضخم من ذلك ومغطاة بالحراشيف ٠

بغتة ، خبأ الرجـل وجهه بيـديه وانخرط في بكاء مكتوم ٠ صاحت الأم قائلة :

ـ لم يسيء اليك أحد ، فلماذا تبكي ؟

اقتربت سوسن من الرجل ولم يعد يفصلها عنه سوى نحو ثلاثين سنتيمترا ، فانزعجت الأم وحاولت السيطرة على انفعالاتها فقالت بهدوء مفتعل :

ـ لا تقتربى منه يا سوسن .

قالت سوسن :

ـ أريد أن أسأله عن سبب بكائه .

ثم قالت موجهة حديثها للرجل :

ـ لماذا بكيت الآن ؟

قال وهو يمسح دموعه بيده :

ـ لست أدرى .

ـ شعرت سوسن بعطف شديد عليه فسألته :

ـ لماذا تبدو حزيناً ؟

قال وهو مختنق بالبكاء :

ـ أنا رجل مسكين يا سيدتى ، أنا ...

نهرته الأم قائلة بأعلى صوتها :

ـ اخرس .

ثم تقدمت نحوه وصفعته على وجهه صفعة قوية جعلته يترنح ، وأردفت قائلة :

ـ هل أحضرناك هنا لتقص علينا تاريخ حياتك ؟ ما شأننا نحن بمسكنتك ؟

طفرت الدموع من عينى سوسن والتفتت الى أمها وقالت :

ـ لماذا تعاملينه بهذه القسوة ؟ انه لم يفعل ما يستحق عليه الصفع .

قال الرجل واضعاً يده على موضع الصفعة موجهاً كلامه الى سوسن :

اتركيها تفعل ما تشاء يا سـيدتي ، فلقد صفعني الناس كثيراً ·· قاسيت طوال حياتي من المهانة والعذاب بلا ذنب ·

تحفزت الأم للانقضاض عليه ولكنها تراجعت عندما أسرعت سوسن بالوقوف بينها وبينه قائلة له بدهشة :

ـ هذا غير معقول · هل أنت الذى تتعذب ·· ألست أنت الذى تعذب النسـاء ؟

سالت الدموع من عينى عواطف فانسحبت بهدوء وغادرت المكان ·· قال الرجل :

ـ لم أعذب أحداً · الناس هم الذين يعذبونني · تعذبت كثيراً ·

صاحت الأم قائلة فى ثورة غضب :

ـ اخرس ، اياك أن تفتح فمك ·

ـ ثم أردفت قائلة لسوسن :

ـ تعالى هنا يا سـوسن ، هانت ذي قد رأيت رجـلا كما طلبت منى ·

ثم قالت لمرجانة :

ـ هل أعطيته النقـود ؟

ـ أجل يا سيدتى ، أعطيتها له ·

صاحت الأم قائلة للرجل :

ـ لم يعد لك لزوم هنا ·

والتفتت الى بركة وقالت :

ـ افتحى له البوابة واطرديه من البيت ٠

سار الرجل مستسلماً خلف بركة متجهين نحو باب الغرفة ٠ وقفت سوسن فى طريقهما وقالت لأمها باستعطاف :

ـ مـامـا ٠

ـ نعـم يا روحى ٠

ـ اذا كنت تحبيننى فلا تخرجيه من البيت ، أنا أريده هنا ٠

شعرت الأم بدوار بذلت جهداً للتغلب عليه وأخذت تدير عينيها فى أنحاء المكان مذهولة ٠

تريدينه هنا ؟ هذا غير معقول ، ماذا يفعل هنا ؟

ثم التفتت الى سوسن وقالت :

ـ هل ترغبين في بقاء حيوان كهذا معنا فى بيتنا ؟ انه وحش مفترس ٠

ـ أنا أريده ٠

نظرت الى ابنتها مشدوهة وقد انفرجت شفتاها ٠ قالت سوسن لأمهـا :

ـ أريد أن ألمسه ٠ دعيه يبيت عندنا الليلة ٠ لا أريده سوى ليلة واحدة ٠٠ اذا كنت تحبيننى يا ماما وتودين اسعادى فلا تحرمينى من هذه الرغبة ٠

قالت مرجانة :

ـ فليبق عندنا الليلة يا سيدتي ، لن يحدث أى ضرر ٠

صاحت الأم قائلة لمرجانة وقد بلغ انفعالها ذروته :

ـ ما بك ٠٠ هل جننت ؟ هذا غير معقول ٠ هذا البيت الطاهر الذى لم يدخله رجل منذ سكناه هل تريدين منى أن أوسخه وأسمح لرجل بالمبيت فيه بعد هذا العمر الطويل ؟ ألم يكفنا أن سمحنا له بدخول البيت وتنجيسه ؟

ظل الرجل واقفا محنى الظهر وبجواره بركة التى بدت حائرة لا تدرى ماذا تفعل وسوسن معترضة طريقهما عند الباب تمنعهما من الخروج ومواصلة استعطاف أمها قائلة :
عندنا ليلة واحــدة ٠

ـ من أجل خاطرى يا ماما لا تطرديه من البيت الآن ، دعيه يبت ٠

قالت مرجانة :

ـ لا مانع من بقائه ليــلة واحدة يا سيدتى ، نبقيه الليــلة ونطرده صباح الغد ، من أجل سيدتى سوسن ٠

سيطرت الأم على أعصابها وقالت بهدوء مصطنع :

ـ سوف تعلم فيما بعد أننى ما رفضت لها طلباً الا لحمايتها واسعادها ، ومن أجل هذا لا أريد أن يبقى هذا الرجل بعد هذا اللقاء لحظة واحدة ٠

قالت مرجانة فى محاولة أخيرة يائسة :

ـ انه عديم الضرر يا سيدتى ٠

قالت الأم وقد اكفهر وجهها :

ـ وهل يوجد فى الدنيا رجل عديم الضرر ؟ انهم وحوش • هيا اذهبن والقين به خارج البيت وأغلقن البوابة •

قالت مرجانة :

ـ حاضر يا سيدتى •

اخذت مرجانة مفتاح البوابة من بركة وسحبت الرجل من يده ، فصاحت الأم قائلة :

ـ اتركى يده ، ولا تنسى أن تغسلى يدك بعد خروجه •

سارا نحو بوابة البيت ، وانسحبت سوسن دامعة العينين منكسة الرأس ، ثم وقفت عند قمة السلم الخارجى ناظرة الى الرجل حتى خرج من البوابة وأغلقت خلفه ، ثم اتجهت نحو غرفتها • وفى طريقها الى الغرفة وجدت عواطف تبكى وتمسح دموعها • وألقت سوسن بنفسها على الفراش تبكى وجلست عواطف جنبها تربت على ظهرها فى صمت •

(٩)

عادت مرجانة بعد خروج الرجل وذهبت الى غرفة الأم لتسلمها مفتاح البوابة • كانت الأم جالسة شبه منهارة فوق كرسى فى ركن الغرفة وأمامها على السجادة جلست بركة ونظاجة ، تربعت مرجانة جنب بركة وكانهن فى ماتم • بعد فترة صمت قالت الأم :

ـ ما العمل الآن ؟ ألم يكن من الأفضل أن تظل سوسن جاهلة بالرجال ؟ ما الذى استفدناه من رؤيتها لهذا الرجل ؟

قالت مرجانة :

ـ كان يخيل الى أنها ستخاف منه ٠

قالت الأم :

ـ ها هي ذى لم تخف ، بل على العكس أشفقت عليه وكانت تود ان تلمسه ٠ بعد العمر الطويل الذى أضعته فى تنفيرها من جنس الرجال تريد أن تلمس أقبح رجل خلقه ربنا ٠

قالت بركة :

ـ يبـدو يا سيدتى أنها لكثرة ما سمعته عن قبح الرجال تصورتهم أقبح منظراً من هذا الرجل ، فلما رأته وجدته أجمل من الصورة التى فى خيالها ٠

قالت الأم والحزن يعتصر قلبها :

ـ لو كنت أعلم ذلك لتركتها لخيالها تتصور كما تشاء ٠ ليتنى مت قبل أن أسمع لها بهذا ٠

قالت بركة وهى تعلم أن مواساتها لا جدوى منها :

ـ لا تحزنى يا سيدتى ، من الممكن اصلاح كل شئ ٠

قالت الأم شاعرة بيأس قاتل :

ـ بعض الأشياء لا يمكن اصلاحها ٠

فى مســاء ذلك اليوم ، جلست بركة مع نظاجـة فى المطبخ تثرثران بعد أن نام باقى أهل المنزل :

ـ شئ غريب ٠

ـ ما هــو ؟

ـ أسمعت السيدة وهى تقول أن هذا الرجل الذى أحضرته مرجانة هو الرجل الوحيد الذى دخل البيت ؟

ـ أليس هو الرجل الوحيد الذى دخل البيت منذ اشترتز سيدتى ؟ أنا لم أر رجلا غيره دخل البيت ٠

ـ أنت لا تعرفين لأنك حديثة العهد بالبيت ، لم يمض على بقائك هنا سوى عامين ، ولكن منذ سبع سنوات دخل رجل هذا البيت وما زال موجودا حتى الآن ٠

قالت نظاجة وقد فتحت فمها وانسعت عيناها دهشة :

ـ رجل هنا ؟ هل يوجد رجل هنا فى البيت وأنا لا أعلم عنه شيئاً ؟

قالت بركة وهى تضغط على الكلمات لتوكيدها :

ـ أجل ، يوجد رجل فى هذا البيت وما زال موجوداً فيه ٠

ـ أين هو اذن ؟ وكيف يستطيع الاختفاء عن عيوننا طوال هذه المدة ؟

ـ هل تعلمين أين هو ؟

قالت نظاجة بلهفة وقد بلغت دهشتها ذروتها :

ـ أين ؟ أين هو يا بركة ؟

ـ مدفون هنا فى البدروم ٠

قالت نظاجة بفزع :

ـ مدفـون ؟! هل تقولين انه مدفـون فى البدروم ٠٠ غير معقول ٠٠ ومن الذى دفنه ؟

ـ سـيدتى ٠

ـ السيدة ؟ أهى التى دفنته ؟ ومن هو هذا الرجل ؟

ـ لست أدرى ، هى التى تعرفه ٠ انها لا تعلم أننى رأيتها وهى تعمل هذه العملة ٠

التزمت بركة الصمت ، فقالت نظاجة بلهفة :

ـ أكملى حديثك ، ماذ رأيت ؟

بعد فترة تردد قالت بركة :

ـ أنت تعلمين أننى أحياناً أقوم من النوم نفسى مكتوم وأكون محتاجة لبعض الهواء ٠ فى ليلة من الليالى ، من سبع سنوات ، انتابتنى هذه الحالة ، فقمت وفتحت الشباك لأشم الهواء ٠ كان ذلك في الساعة الثانية صباحاً ، سمعت الساعة تدق دقتين ، وكنت معتقدة أن باقى أهل البيت فى سابع نومة ولا يوجد مستيقظ غيرى ٠ وما كدت أطل من الشباك حتى وجدت السيدة الكبيرة ممسكة بفانوس به شمعة مضيئة ومتجهة نحو البوابة ٠ رأيتها تفتح البوابة تنادى رجلا ٠ دهشت عندما رأيت ذلك وقلت لنفسى لابد أن فى الأمر سراً وصممت على عدم النوم حتى أعرف الحكاية ٠ ظللت ناظرة من الشباك فوجدت السيدة أدخلت الرجل فى الغرفة التى جنب البوابة ودخلت معه ، ورأيت الضوء ينبعث من شباك هذه الغرفة ٠ انتظرت خروجهما من الحجرة فلم يخرجا ، وبعد نحو ساعة ، ساعة لا أكثر ، بعد أن دقت الساعة ثلاث دقات بقليل ، وجدتها خارجة من الغرفة ممسكة الفانوس بيدها اليسرى وباليد اليمنى ممسكة بذراع الرجل ساحبة جثته على الأرض فى الجنينة وظلت تجرها نحو الباب الخارجى للبدروم ٠ أقول الحق ، عندما رايت هذا المنظر ارتعشت ومفاصلى سابت وتسمرت فى مكانى ٠ وبعد نحو نصف ساعة سمعتها وهى تصعد السلم ببطء فأسرعت باغلاق الشباك ، وطار النوم من

عينى فظللت ساهرة حتى الصباح · من هو هذا الرجل ، ولماذا فعلت به هذه الفعلة ، لا أحد يدرى غير ربنا وهى ·

قالت نظاجة وجسدها يرتجف :

ـ لماذا لم تحاولى معرفة المكان الذى أخفت فيه الجثة ؟

ـ أعرف مكان الجثة ؟ هل أنا مجنونة لأفعل ذلك ؟ لست مستغنية عن عمرى ·

ـ وما الذى يبقيك فى هذا البيت بعد ذلك ؟ هل يرى أحد منظراً كهذا ويظل هنا ؟

ـ وأين أذهب أنت تعلمين أن السيدة تختار من الخدم من لا أهل لهن ولا أقارب · من يدخل هذا البيت لا يخرج منه بسهولة ، واذا خرج فهو الجانى على نفسه · نظيمة خرجت من هنا وبعد يومين اثنين وجدوا جثتها عائمة فى الترعة · سأظل هنا حتى أوفر بعض النقود الى أن يفرجها الله ، لن تجد من يعطينا هذا المرتب الكبير سواهـا ·

ـ وما فائدة الفلوس اذا فقد الانسان عمره ؟ الروح حلوة أليس من الممكن أن تقضى عليـك ؟

ـ العمر واحد يا نظاجة ·

ـ ذهبت فى الصباح الى غرفة السيدة الكبيرة فوجدتها تصلى كالعادة ، ثم جلست ممسكة بالمسبحة وكأن شيئاً لم يحدث ·

تغيرت ملامح وجه نظاجة وقالت بانفعال :

ـ اسمعى ، اما انك كاذبة أو مختلة العقل · أنا لا أصدق كلمة واحدة من هذا الكلام الفارغ · هذه السيدة طيبة وحنون ،

لم أر في حياتي أطيب منها . هل تظنين أن كلامك هذا يدخل عقلي ؟ انك تريدين تخويفي لأهرب من هذا البيت ليخلو لك الجو لعلمك بأن سوسن تثق بي وتفضلني عنك .

كانتا جالستين وظهراهما نحو باب المطبخ فلم تلاحظا وجود الأم . التي كانت تسترق السمع لحديثهما ، الا عندما فاجأتهما بقولهـا :

ماذا تقولان ؟

بارتباك شديد ورعب قاتل قالت بركة وأمعاؤها ترتجف :

ـ لا شيء يا سيدتي ، كنا (ندردش) .

ـ هيه ، (تدردشان) ، اذهبا لتناما أنت وهي . ما الذي يبقيكما ساهرتين حتى الآن .

انسحبت الأم بهدوء وتركتهما ترتجفان . قالت بركة :

ـ أتظنينها سمعت حديثنا ؟

ـ ربما ، من يدري ؟ أنت ثرثارة وكذابة أيضاً . هل من المعقول أن تكوني صادقة فيما قلت ؟

ـ أخشى أن تكون سمعته .

ـ أنت التي خرفت ، أنا لم أقل شيئاً ..

ـ مصيبة كبيرة لو كانت سمعتني ، لن يطلع علي نهـــار . أنا أعرفها جيداً ، ستقصف عمري .

ـ ما الذي دفعك لحكاية هذه الخرافات وعض اليـد التي تطعمك ؟ لسانك يستحق القطع .

ـ ليته قطع قبل أن أنطق بهذه الكلمات · سبع سنوات ساكتة وعندما أنطق تسمعنى · لا يا نظاجة ، يخيل الى أنهـا لم تسمعنى · لو كانت سمعتنى لما سكتت ·

لم تنم بركة ، بل ظلت ساهرة وقد انتابها شعور أشبه بشعور من ينتظر تنفيذ حكم الاعدام ، وفى ومضات خاطفة تبعد عن ذهنها هذه الأفكار السود موحية لنفسها بأن سيدتهـا لم تستمع الى حديثها ، ولكن ظلام اليأس ما يلبث أن يبتلع ومضات الضوء · كانت تتقلب فى فراشها وكأنها راقدة على قمة بركان خامد يوشك أن يثور مرهفة السمع الى صوت أية خطوات تقترب منها · وبينما هى على وشك الدخول فى سراديب النوم سمعت الساعة تدق ثلاث دقات فأبعدتها هذه الدقات بضع خطوات عن النوم · انقلبت على جنبها الأيسر وهى مغمضة العينين بين النوم واليقظة ، وما لبثت أن سمعت صوتا يناديها :

ـ بركـة ·

فتحت عينيها فالتقت بعينى الأم · قالت وقد شعرت بقشعريرة تسرى فى جسدها :

ـ نعم يا سيدتى ··

وانتفضت واقفة مكررة قولها :

ـ نعم يا سيدتى ··

قالت سيدتها بصوت هادىء بطىء خافت :

ـ تعـالى ·

قالت بركة وهى ترتجف :

ـ الى أين يا سيدتى ؟

ـ الى البدروم ، ساطلب منك عملا ٠

ـ وماذا ستعمل الآن فى الليل يا سيدتى ؟

ـ هناك اشياء لا تعمل الا ليـلا ٠

قالت بركة باضطراب ولعثمة :

ـ وما ٠٠ وما هى هذه الـ ٠٠ الأعمال ؟

ـ ستعرفين الآن ، هيا معى ٠

فى الصباح صحت سوسن من نومها مبكرة كعادتها فوجدت نظاجة جالسة على السجادة جنب السرير ٠ نظرت الى سوسن مبتسمة وقالت :

ـ صباح الخير يا نظاجة ، أين بركة ؟

بدا وكأن الأم كانت تسترق السمع ، اذ أنها فى هذه اللحظة دخلت غرفة سوسن قائلة :

ـ بركة خانت العهد وخرجت من البيت يا سوسن ولن تعود ٠

قالت سوسن بدهشـة :

ـ خرجت من عندنا ٠٠ ولماذا خرجت ؟

ـ لست أدرى ، لا تسأليني أنا ، اسأليها هى ٠

ـ ومن ستصبح (دادتى) ؟

ـ دادتك ؟ ابتداء من هذه اللحظة هى نظاجة ٠

سحبت الأم نظاجة من يدها وخرجتا معا من غرفة سوسن وتركتاها ناظرة اليهما بدهشة ممتزجة بحزن عميق فلقد كانت تحب

بركة حبا عميقا وتشعر بحب بركة لها وعطفها عليها · وفى أحد أركان الحديقة اختلت الأم بنظاجة وقالت لها :

ـ اسمعى يا نظاجة ·

قالت نظاجة بخوف ولهفة :

ـ نعم يا ستى ·

ـ بركة خانت العهد وخرجت · خانتنى وخرجت · ولكننى أحب أن أقول لك ان من يدخل هذا البيت لا يخرج منه بسهولة ، واذا خرج فهو الجانى على نفسه ·

ثم نظرت اليها بطرف عينيها نظرة ثاقبة وقالت بنبرة تهديد :

ـ هل تسمعين كلامى هذا جيداً ؟

قالت نظاجة وكأن زلزالا يجتاح جسدها :

ـ أجل يا سيدتى ، سمعته ·

ـ اذهبى الآن لتلبية طلبات سوسن ، وحذار أن تصلنى منها أية شكوى منك ·

قالت نظاجة باضطراب وقد سرت فى رأسها قشعريرة :

ـ حاضر يا ستى ، حاضر ·

أطرقت الأم الى الأرض لحظة ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ وأحب أن أخبرك أننى سأمنحك زيادة فى مرتبك قدرها عشرة جنيهات فى الشهر وسأحتفظ لك عندى بألف جنيه لو بقيت معنا هنا حتى وفاتى ، وسأكتب لك قطعة أرض من أملاكى ·

كان اختفاء بركة محور حديث نظاجة وعواطف عندماتلاقتا في المطبخ قبيل الظهيرة ٠

همست نظاجة قائلة برعب ولهفة :

ــ ماذا حدث لبركة يا عواطف ؟

قالت عواطف بهمس لا يكاد يسمع :

ــ من يدريني ؟ سيدتي تقول انها خرجت ٠ انها هبلة ، كيف تترك هذا النعيم وتهرب ؟

ــ وهل من المعقول أن تهرب بغتة هكذا ؟

ضحكت عواطف وقالت :

ــ وهل كنت تنتظرين منها الخروج على دفعات ؟

ــ هذه المسألة أوجعت مخي ، كيف حصلت على مفتاح البوابة ؟

ــ ربما تكون رأت المكان الذى وضعته فيه سيدتي ، وبعد التأكد من نومها تسللت وأخذته ٠

ــ لا أعتقد أن بركة تجرؤ على ذلك فهي تخاف من ظلها ٠ واذا كان الأمر كذلك فالمفتاح ما زال مع بركة بعد أن فتحت الباب وخرجت ، ولا يبدو على سيدتي أنها مهتمة بتغيير الكالون ٠

ثم أطرقت للأرض وبعد فترة تردد قالت هامسة :

ــ لست أدرى ما اذا كانت بركة قد خرجت أم مدفونة هنا في البدروم ٠

شحب وجه عواطف وقالت بانفعال ولكن بصوت هامس :

ــ اخرسى قطع لسانك • هل من المعقول أن سيدتى الطيبة التى كالملاك الطاهر ترتكب جريمة بشعة كهذه ؟ أمجنونة أنت ؟ •

فى عصر ذلك اليوم كانت سوسن فوق الأرجوحة المقامة جنب أحواض الورد ونظاجة تؤرجحها • كانت سوسن تبدو شاردة الذهن • قالت دون أن تلتفت نحو نظاجة :

ــ هل حدث ما أغضب بركة يا نظاجة ؟ لم يكن يبدو عليها أمس ما يدل على الحزن •

ــ وهل يوجد فى بيتنا هذا أى شىء يدعو للحزن لا سمح الله ولا قدر ؟ اننا هنا فى جنة لا يفكر أى شخص فى الخروج منها الا اذا كان معتوها •

ــ ولماذا خرجت اذن ؟

ــ أنت تعلمين يا سيدتى أن بركة عبيطة وعقلهـا خفيف ، وربما تكون سيدتى هى التى طردتها بسبب خطأ لا يغتفر •

ــ لكن ماما طيبة ولا يمكن أن تطرد أحداً • انها تحب جميع الناس وتحسن اليهم • لم تطرد فى حياتهـا سوى ذلك الرجل المسكين الذى أحضرته مرجانة • لقد حزنت من أجله حزناً شديداً وبكيت •

ــ لم تطرده والدتك الا لخوفها عليك منه يا حبيبتى •

ــ هل بيتنا لم يعجب بركة فذهبت الى بيت أحسن منه ؟

ــ وهل من المعقول أن يوجد فى الدنيا بيت أجمل من هذا ؟ اننى عندما أفتح الباب لأم علية التى تحضر لنا لوازم البيت ،

أشعر بخوف شديد ولا أحاول أن أطل برأسي من البوابة حتى لا أرى الدنيا المرعبة المحيطة بنا · نحن في أمان طالما بقينا داخل أسوار البيت · لا يوجد خارج هذا البيت سوى الشر والأذى ·

من بعيد ، انبعث صوت الأم تنادى بصوتها الممدود المنغم :

ـ ســوســن ·

ـ توقفت سوسن عن الأرجحة وقالت :

ـ نعم يا ماما ·

ـ تعالى يا روحى ، أريد التحدث معك ·

قفزت سوسن من فوق الأرجوحة قائلة :

ـ حاضر يا ماما ، سأحضر على الفور ·

كانت الأم واقفة على قمة السلم الخارجى للقصر المؤدى الى الحديقة · انطلقت سوسن تعد ونحوها حتى وقفت عند أسفل السلم وهي تلهث · قالت الأم :

ـ تعالى يا روحى ·

قفزت سوسن درجات السلم فأمسكت الأم بيدها وسحبتها معها الى البهو وجلستا معاً متجاورتين · ظلت سوسن ناظرة الى أمها فى انتظار حديثها ، وبعد فترة قصيرة قالت الأم مثبتة عينيها فى عينى سوسن :

ـ أنت بطبيعة الحال تعلمين مقدار حبى لك واننى أعمل كل ما فى وسعى لارضائك وابعاد الشر عنك ، ولتحقيق ذلك اشتريت هذا البيت وعزلته عن الدنيا لأضمن لك السعادة بعيدا عن الهموم والمشكلات ·

- أجل يا ماما . أعرف ذلك . لا يوجد في الدنيا أم مثلك .

أطرقت الأم الى الأرض وقالت بنبرة حزينة :

- ولكن قلبي غير مستريح .

- يسلم قلبك يا ماما ، لماذا هو غير مرتاح ؟

بعد فترة صمت قصيرة قالت الأم :

- لن أعيش لك يا سوسن الى الأبد .

- بعد الشر عنك ، لا تقولى هذا الكلام .

- ولكن الكثير من الأشياء التي لا نحبها لابد أن تحدث غصب عنا ، وأنا الآن لست صغيرة السن ، والموت نهاية كل حي .

قالت سوسن بصوت متهدج :

- لا تقولى هذه الكلمة المؤلمة . لا أحب أن أسمعها .

لم تستطيع سوسن السيطرة على مشاعرها فانخرطت في البكاء . أفزعت الام وأخذت تربت على ظهرها قائلة :

- كفي بكاء يا روحي ، لا أحب أن أراك تبكين . لا أستطيع احتمال ذلك . كفي يا حبيبتي .. لا أحب أن تبكي على أى شيء في الدنيا حتى ولا على أنا ، وأنا لا أعيش الا لاسعادك . لا هدف لى في الدنيا غير ذلك .

التزمت الصمت فترة متفكرة ثم قالت وهي ناظرة نحو الأرض :

- في بعض الأحيان أفكر وأقول لنفسي : من الذى سيعتني بك بعد موتي عندما أتركك وحيدة في هذا البيت ؟ من أجل ذلك أود أن أقول لك هاتين الكلمتين : اذا كنت تحبينني حقيقة أريد منك أن تعاهديني . هل توافقين على أن تعاهديني يا حبيبتي ؟

قالت سوسن وقد أسرعت دقات قلبها :

ـ أعاهدك على ماذا يا ماما ؟

قالت الأم وقد طفرت من عينيها بعض الدموع جففتها بمنديلها :

ـ تعاهدينني ، بعد أن أودع الدنيا ، على عدم السماح بدخول أى رجل الى هذا البيت لأكون مستريحة فى قبرى . لقد وفرت لك فى هذا القصر كل ما تشتهيه النفس ، وأنت ولله الحمد لست فى حاجة لأى انسان ، وكل ما تحتاجين اليه من لوازم الحياة فى البيت سوف تحصلين عليها . لقد رتبت كل شىء مع أم علية ، وأعددت من الآن من ستحل محلها اذ توفيت .. ويمكنك عن طريق أم علية أو من تحل محلها أن تحصلى على من سيتولى خدمتك وتدبير أمور البيت من السيدات المخلصات اللاتى لن يخن العهد . وكل ما أنصحك به هو أن تجزلى لهن العطاء كما أفعل أنا ، فلا تبخلى عليهن بالمال . فالمال من الممكن أن يشترى كل شىء فى الدنيا حتى البشر ، وتعيشين معززة مكرمة . هل تعاهدينني يا حبيبتى على ذلك ؟ أتعاهدينني على ألا تطأ أرض هذا البيت قدم أى رجل ؟

قالت سوسن وهى مختنقة بالبكاء :

ـ أعاهدك يا ماما .

وانخرطت فى بكاء عنيف .

(١٠)

جلست سوسن مع معلمة اللغة العربية فى غرفة الدراسة ذات النافذة العريضة التى كانت تتركها سوسن مفتوحة فى ذلك الوقت من العام ليحمل النسيم اليها عبيراً منعشاً منبعثاً من شجرة برتقال بالقرب من النافذة . فتحت الكراسة واستعدت للكتابة .

قالت المدرسة :

ـ اكتبي موضوعا في صفحة واحدة عنوانه : « الرجال أصل كل بلاء » .

بدت سوسن شاردة الذهن وهي ناظرة الى الحديقه من خلال النافذة وقالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ الرجال أصل كل بلاء ؟

ـ أجل يا سوسن ، الرجال أصل كل بلاء . ما رأيك في هذا الموضوع ؟

ـ موضوع جميل جدا يا أبلا .

ـ انه موضوع غني بالأفكار ، من الممكن أن تكتبي فيه أشياء كثيرة .

قالت سوسن وهي ما زالت شاردة الفكر :

ـ أبـــلا .

ـ نعم يا حبيبتي .

ـ ساخبرك بشيء قد لا تصدقينه .

ـ ما هـــو ؟

لقد رأيت رجلا .

انفرجت شفتا المدرسة واتسعت عيناها دهشة ولم تصدق أذنيها فقالت :

ـ رأيت رجلا ؟ غير معقول . هل رأيته في الحلم ؟

ـ كلا ، رأيته في الحقيقة هنا في البيت .

قالت المدرسة بذهول :

- وكيف حدث هذا ؟

– أحضرته ماما لتفرجني عليه · كنت طلبت منها ذلك ·

قالت وما زالت غير مصدقة :

– وأحضرت لك رجلا ؟ ماما أحضرت رجلا في البيت ؟

– تلمسينه ؟! لا أستطيع تصديق ذلك · لم تخبرني والدتك بشيء من هذا ·

– ماما طلبت مني ألا أخبر أحداً · تريد أن يبقى الأمر سراً · أرجوك يا أبلا ألا تخبرى أحداً ولا تقولى لماما انني بحت لك بهذا السر · لم أستطع كتمانه · شعرت برغبة في الافضاء به لأى انسان ·

– متى حدث ذلك ؟

– أمس ·

– اذا كان الأمر كذلك فينبغى تغيير موضـــوع الانشاء · اكتبى في الموضوع الآتى : « صفى شعورك عندما رأيت رجلا لأول مرة في حياتك » ·

– حاضر يا أبلا · لكنني لا أريد أن ترى ماما هذا الموضوع ·

– لا تخافى يا حبيبتى · مزقيه أو احرقيه بعد أن أراه ، لن يراه غيرى ·

– أشكرك يا أبلا · سأكتب في هذا الموضوع ، انه أحسن من الموضوع الأول ·

بعد نحو نصف ساعة انتهت سوسن من كتابة الموضـــوع فطلبت منها المدرسة قراءته فبدأت تقرأ :

ـ « ظللت طوال حيـاتي أرتعد خوفا من مجرد ذكر كلمة « رجل » فلقد تصورته من أحاديثهم مخلوقا غريبا ممسوخ الوجه كالسحلية له أنياب كأنياب الثعبان وجسد كجسد القرد · وكنت أتخيل الرجال جميعا ، ومن بينهم أبى ، بهذه الصورة البشعة ، وكنت أفزع من رؤيتهم فى أحلامى وأقوم من نومى مرعوبة أتحسس طريق الشمعة التى جنبى لأنير حجرتى من شدة الفزع الذى يستولى على · وكنت فى أحلامى أرى الرجال فى صورة مختلفة ولكنها كلها بشعة وتختلف الصور من حلم لآخر ، فمرة أراه حيوانا ضخم الجثة له قرون طويلة ، ومرة كأنه قرد يقفز فوق الأشجار ، ومرة أراه عملاقا يشق جسمه السحاب · ولما تبلبلت أفكارى طلبت من أمى أن ترينى رجلا حقيقيا حتى تهدأ ثورة تخيلاتى · وعندما رأيت هذا الرجل تبددت كل تخيلاتى السابقة ورأيته مخلوقا مسالما يشع من عينيه بريق الحزن والألم ، فأحسست بعطف شديد عليه وازداد عطفى عندما بكى وصفعته والدتى على أذنه فلم يغضب بل ظل هادئا وتقبل الاهانة باستسلام وصبر عجيب · ثم شـعرت برغبة فى الاقتراب منه ولكن والدتى منعتنى من شدة عطفها على · ثم شعرت برغبة شـديدة تدفعنى الى تطويقه بذراعى ولكننى لم أخبر أمى بذلك · وطلبت منها أن تبقيه عندنا ليلة واحدة ولكنها لخوفها وشدة عطفها على لم تستجب لرجائى هذا وطردته من بيتنا · وعندما علمت أنه غادر المنزل اختليت بنفسى فى حجرتى وظللت أبكى ولا أدرى لماذا بكيت » ·

ظلت أمينة ، مدرسة اللغة العربية ، فى حالة ذهول طوال سماعها لموضوع الانشاء هذا فلقد كان أغرب مما يرقى اليه خيالها · وسبحت بها الذكريات الى سنوات خلت عندما كانت متزوجة قبل طلاقها من زوجها الذى أخلص لها كل الاخلاص وأحبها من أعماق قلبه ولكن شابا مستهترا شغل قلبها وصرح لها بأنه يتمنى الزواج منها ، فطلبت الطلاق من زوجها وأصرت على طلبها واعترفت له بأنها

على علاقة بذلك الشاب . بكى زوجها عندما طلقها ، وهرب منها الشاب ولم يتزوجها ولم تره بعد ذلك .

اخرجها من ذهولها وتتابع أفكارها صوت سوسن عندما قالت :

– ما رأيك في موضوع الانشاء هذا يا أبلا ؟

قالت المدرسة متلعثمة

– نعم ؟ آه .. موضوع جميل .

– يبدو أنك كنت تفكرين في شيء آخر يا أبلا .

– أنا ؟ افكر في شيء آخر ؟ لا ، ابدا . سمعت كل كلمة .

كسا الحزن وجه سوسن وقالت :

– دادة بركة تركتنا وخرجت يا ابلا .

– أجل يا حبيبتي ، أعرف ذلك . ماما قالت لي .

– لست أدري لماذا تركتنا فلقد كانت تقول لي دائما ان بيتنا أحسن بيت في الدنيا . هل بيتنا حقيقة أجمل بيت في الدنيا يا ابلا ؟

– اجل يا حبيبتي . أنت تعيشين في جنة لا مثيل لها ونعيم لا يحلم به أي انسان .

– ولكن ، هل سأبقى هنا طوال حياتي ؟

– وهل يوجد مكان أحسن من هذا ؟ الى أين تريدين الذهاب ؟

– لست ادري ، ولكنني اشعر بضيق من شيء لا اعرفه .

ـ كيف هذا ؟ وهل من المعقول أن يشعر الانسان بضيق بسبب شيء لا يعرفه ؟

ـ أنا يا أبلا لا أعرف سبب ضيقي

ـ ولكنك كنت سعيدة ، في منتهى السعادة ، فما الذي حدث ؟

ـ اشعر أحيانا بالسعادة ، وأحيانا احس بأن قلبي حزين ٠

ـ ومتى بدأت تشعرين بالحزن ؟

ـ منذ بضعة أيام ٠ لست ادري ماذا جرى لي ٠ وازداد حزني عندما تركتنا بركة ، فلقد كنت احبها ٠

ـ لو كانت هي تحبك لما تركتك وخرجت ٠

ـ ولكنني متأكدة من حبها لي ٠

ـ ها هي ذي تركتك وهربت ٠ لا اتصور أن يوجد في الدنيا من يهرب من هذه الجنة التي يتمنى كل انسان أن يعيش فيها ٠

أطرقت سوسن الى الأرض لحظة ثم رفعت راسها وقالت :

ـ حلمت أمس حلما كنت قد رايته هو نفسه من قبل ٠

ـ ماذا حلمت يا حبيبتي ؟

ـ حلمت أنني آكل عسلا ، ولكنه مر ٠

ـ وهل يوجد عسل مر ؟ انه لا يصبح عسلا ٠

ـ في هذه المرة رأيت ماما تقدم لي طبقا من العسل وتطلب مني أن آكل منه ، ولكنني كلما ذقته أجده شديد المرارة ٠

ـ اضغاث أحلام يا حبيبتي ، مجرد هلاوس

نظرت سوسن الى مدرستها وقالت بما يشبه الهمس :

ـ يوجد سر آخر سأبوح به اليك ، لو عرفته ماما ستحزن حزنا شديد ولذا لن أطلعها عليه ·

ـ ما هـو ؟

همست قائلة :

ـ أنا لا أخاف الآن من الرجال كما كنت فيما مضى · الرجال ليسوا متوحشين كما كنت أعتقد ·

قالت المدرسة بدهشة مبالغ فيها :

ـ الرجال ليسوا متوحشين ؟ من قال ذلك ؟

ـ الرجل الذى رأيته لم يكن متوحشا كما كانوا يقولون لى ·

ـ ولكنهم عندما يتزوجون يعذبون زوجاتهم ·

ـ لو لم تتزوج ماما فهل كنت سأوجد فى الدنيا ؟

ـ مامتك تعذبت كثيرا ·

ـ ألا يشعر الانسان بالسعادة اذا جرب الألم ؟

ـ الانسان يا حبيبتى يعيش فى الدنيا ليسعد لا ليتألم ·

ـ السعادة أن يعيش الانسان بلا أحزان أو مضايقات ·

ـ لا يا أبلا ، الانسان اذا عاش مستريحا طوال حياته سيكون حقيقة مرتاحا ولكنه لن يشعر بهذه الراحة · هناك فرق بين وجود الشيء والاحساس بوجوده · منذ بضعة شهور أحضرت لى والدتى عقدا رائع الجمال ، وذات يوم اكتشفت ضياعه · ظللنا جميعا نبحث عنه بلا جدوى ، وبعد أسبوعين عثرت عليه بركة بين الحشائش فى الحديقة · فى ذلك اليوم فرحت فرحا شديدا عندما عاد الى ·

ضياعه منى جعلنى اشعر بوجوده · لو لم افقده لما فرحت عند عودته الى ·

سرحت ببصرها فى السماء من خلال النافذة لحظة ثم قالت :

ـ أنا أحب القمر يا أبلا · هل تعرفين الشىء الذى جعلنى أحب القمر ؟

ـ ما هو ؟

ـ الظلام هو الذى جعلنى أحب القمر · اننى من فرط الراحة أصبحت أشتاق للتعب · كنت أحب ان تكون لى ابنة لأتعذب من اجلها ·

ـ ولكن ماما لا تريد لك أن تتعذبى على الاطلاق ·

ـ لو كنت رجلا يا أبلا ، هل كانت ماما تكرهنى ؟

ـ لا ، لو كنت رجلا لأحبتك · الأم تحب ابنها كما تحب ابنتها ·

اخذت سوسن تعبث بأصابعها وهى مطرقة الى الأرض ثم قالت :

ـ انا تكدرت من ماما مرتين ·

قالت المدرسة بدهشة :

ـ ولماذا ؟ هل من المعقول أن تتكدرى من أمك التى تحبك ؟

ـ تأثرت منها ولكننى أحبها · هل تعلمين لماذا تأثرت ؟

ـ لماذا ؟

ـ لأنها ضربت الرجل على أذنه بلا ذنب ، وظل صامتا ، لم يغضب ولم يتكلم · الرجال ليسوا مفترسين كما كنت أظن ·

بعد فترة صمت قصيرة أردفت قائلة وهي ما تزال ناظرة نحو الأرض :

- وتأثرت من ماما أيضا بشيء آخر .

- ما هــو ؟

قالت وهي مختنقة بالبكاء :

- بركة قالت لى ان ماما هى التى قتلت أولادى .

فغرت المدرسة فمها دهشة وقالت :

- أولادك ؟! من هم أولادك هؤلاء ؟

- القطط الثلاث اللائى كنت أعتنى بهن بعد وفاة أمهن .

- لا تصدقى بركة ، انها كذابة . مستحيل أن تفعل والدتك شيئا كهذا فهى أرق من رأيت فى حياتى ، انها تحبك حبا لا مثيل له ولا يمكن أن تفعل ما يحزنك .

- وأنا أحبها . حتى ولو كانت فعلت ذلك فهذا لا يقلل من حبى لها ، فهى لا تفعل شيئا الا بدافع حبها لى وخوفها على .

ثم نظرت الى مدرستها وقالت بعينين متوسلتين :

- كنت أتمنى أن تكون لى بنت لتحبنى كما أحب ماما .

- ألا يكفى حب والدتك لك ؟ لا حب أقوى من حب الأم . لقد هيأت لك كل أسباب السعادة التى لا مثيل لها في الدنيا .

بعد فترة قصيرة نظرت سوسن الى مدرستها وقالت :

- أبـلا .

- نعم يا حبيبتى .

ـ بابا ، هل هو حي أم ميت ؟

كان هذا سؤالا مفاجئا فاضطرب ذهن المدرسة ولكنها باسرع ما يمكن تمكنت من السيطرة على مواجهه المفاجاه فقالت بهدوء :

ـ والدك توفي منذ زمن طويل يا حبيبتي ٠

ـ ألا تعرفين عنه شيئا ؟

ـ لا أعرف الا أنه كان يعذب والدتك عذابا أليما ٠

ـ لماذا كان يعذبها ؟ الا تعرفين سبب تعذيبه لها ؟ أنا لم اجرؤ على سؤال ماما هذا السؤال ٠ ماما تقول ان جميع الرجال متشابهون ، الرجل الذى رايته مسكين ، فهل كل الرجال مساكين مثله ؟

قالت المدرسة باشمئزاز مفتعل :

ـ مساكين ؟! انهم ملاعين ، شياطين ٠

بعد فترة تردد أخرى قالت سوسن :

ـ عندما رايت ذلك الرجل احسست بعطف علية وشعرت برغبة في عمل شيء غريب ٠

ـ ما هو هذا الشيء ؟

ـ كنت اريد ان ابوسه ٠ لست أدرى لماذا سيطرت على هذه الرغبة ٠ هل مسموح للبنات بأن يبسن الرجال ؟

ـ البنت لا يصح أن تبوس غير أمها ٠

ـ ولماذا اذن خاجلنى هذا الشعور ؟

ـ هذا سلوك غريب لا ينبغي أن يحدث ٠

– هل القطة تبوس القط يا أبلا ؟

– كلا ، هذا لا يحدث • لم أر فى حياتى قطة تبوس قطا •

– لابد اذن أننى أختلف عن القطة •

شعرت المدرسة بأنها تواجه موقفا خطيرا يحتاج لمعالجة سريعة • بعد فترة تفكير عميق قالت :

– اسمعى يا سوسن ، سأحكى لك حكاية لتدركى بشاعة الرجال ووحشيتهم •

– احكى لى يا أبلا •

– كان لأحد الرجال ثلاث بنات فى سن الطفولة ، أخذهن الى البحر وألقى بهن فى الماء فمتن غرقا

– لكن ألا يوجد رجال كثيرون لم يغرقوا بناتهم ؟ ماما لم يلق بها أبوها فى البحر ، وأنت أيضا يا أبلا والدك لم يغرقك •

– لكن الأمهات قلوبهن حنونة • لا توجد أم واحدة فعلت مثل هذا العمل البشع •

– لكننى قرأت فى الكتاب أن زوجة العنكبوت تقتل زوجها بعد الزواج •

– ألم تقرئى سبب قتلها لزوجها ؟

– لا • ما هو السبب ؟

– انها تقتله لخوفها على أولادها الصغار منه ، لأن ذكر العنكبوت يأكل أبناءه • هل تتصورين أبا يأكل أولاده ؟ كل الرجال متوحشون كذكر العنكبوت •

ـ فوجئوا بظهور الأم عند عتبة باب الغرفة تقول :

ـ لقد طال الدرس اليوم ، ماذا كنتما تقولان طوال هذا الوقت ؟

ارتعد جسد سوسن وقالت :

ـ لا شيء يا ماما ، أبلا كانت تفهمني بعض الأشياء ·

قالت الأم بسخرية :

ـ وهل فهمتها ؟

ـ أجل يا ماما ، فهمتها جيدا ·

(١١)

بعد نحو أسبوعين كانت سوسن جالسة محتضنة العود على دكة خشبية تكاد تكون ملاصقة للسور الغربي للقصر ، ونظاجة جالسة القرفصاء جنبها فوق الحشائش · ظلت سوسن تغني وتعزف على العود فترة من الزمن ، ثم طلبت منها نظاجة أن تغني أغنية البدر فاستجابت سوسن لطلبها وبدأت تغني هذه الأغنية :

يا بدر يا اللي سبيت العين   بنورك الحلو الفتان
كان فين جمالك غايب فين   عن العيون بقى له زمان

بين الغمام ···

وبغتة ، توقفت عن الغناء عندما رأت شيئا يسقط بالقرب منها · حاولت نظاجة القيام لاحضاره ولكن سوسن سبقتها والتقطته من الأرض فوجدته حجرا صغيرا مثبت به مظروف خطاب·

أسرعت نظاجة لاستطلاع الأمر وحاولت أخذت من سوسن ولكن سوسن تمسكت به وأخذت تفحصه

غريبة ! انه خطاب مكتوب عليه اسمي : « الآنسة » ، لابد أن أحدا قذف به من خارج السور ، ولكن من هذا الذى يعرف اسمى غير سكان البيت ؟!

فتحت المظروف ، وما كادت تقرأ الخطاب حتى شعرت بخوف هز كيانها . سألتها نظاجة بلهفة :

ـ ما بك يا سيدتى ؟ ماذا فى الخطاب ؟

تركتها سوسن وانطلقت تعود نحو البيت فلحقت بها نظاجة وأمسكتها من ذراعها .

ـ الى أين أنت ذاهبة ؟

ـ سأذهب لماما لأسلمها هذا الخطاب

ـ وماذا فيـــه ؟

ـ أشياء غريبـــة .

ـ اقرئيه لى يا ســـيدتى .

ـ مكتوب فيه : « حبيبتى سوسن . انك لا تعرفيننى ولكننى أعرفك ، ومن يوم أن شاهدت جمالك الساحر وأنا أبيت الليـــالى ولا أرى فى أحلامى الا أنت . وعندما اصحو من نومى أظل أفـــكر فيك . لقد أذهلنى جمالك ولم يعد لى أمل فى الحياة الا أن أحظى برؤياك . اننى أحبك من كل قلبى . أحبك . أحبك . المخلص الذى يفديك بروحه ، هشام » .

كانت نظاجة فى هذه الأثناء محلقة فى سماء النشوة والخيال وكأن الخطاب موجه اليها ثم قالت بصوت حالم لا يخلو من الدهشة :

ـ هشام ؟! ومن هو هشام هنا ؟

ـ لست أدري . أنا لا أعرف أحدا فى الدنيا غير ماما وأنتم .

قالت نظاجة بسخرية :

ـ وتودين اطلاع والدتك على هذا الخطاب ؟

ـ طبعا ، لابد أن أريه لماما . انه شىء لم يحدث لى من قبل .

ثم التصقت بنظاجة وأردفت قائلة وقد شحب وجهها :

ـ أنا خائفــة .

قالت نظاجة وما زالت فى صوتها نبرة السخرية :

ـ ولماذا تخافين ؟ وهل فى هذا ما يدعو للخوف ؟

ـ هل هشام اسم رجل يا نظاجة ؟

ـ أجل اسم رجل ، هل كنت تظنينه اسم امرأة ؟

همت سوسن بالجرى مرة أخرى قائلة :

ـ سأذهب لأخبر ماما .

ولكن نظاجة جذبتها من ذراعها قائلة :

ـ انتظرى يا سيدتى لأقول لك شيئا .

ـ ماذا تريدين ؟

ـ ماذا ستقولين لوالدتك ؟

ـ سأقص عليها ما حدث وأسلمها الخطاب ، أنا لا أخفى عنها أى شىء .

قالت نظاجة آمرة بحزم :

ـ لا يا سيدتى ، لاتذكرى لها شيئا عن هذا الموضوع . لو علمت أن رجلا ألقى لك بهذا الخطاب من وراء السور فقد يحدث لها ما يحزنك .

قالت سوسن بلهفة :

ـ ماذا يحدث لها ؟

ـ قد يحدث لها مكروه لا سمح الله ولا قدر · لن تحتمل هذه الصدمة ·

ـ هل ترين ألا أخبرها ؟

ـ لابد أن يظل هذا سرا بينى وبينك · لو علمت والدتك قد تقع مغمى عليها ولا تفيق أبدا ·

صاحت سوسن غاضبة :

ـ لا أحب أن أسمع هذا الكلام مرة أخرى ·

ـ اذا كنت تحبين والدتك فينبغى اخفاء هذا عنها ، سأذهب لاحضار علبة الكبريت لنحرق الخطاب وكأن لم يحدث اى شيء ·

أسرعت نظاجة باحضار الكبريت واختبأتا معا خلف الشجرة وأحرقت سوسن الخطاب ولكنها أخذت تلتقط الورق المحترق باحتراس شديد وكأنها تخشى أن يتحطم وحفرت بالقرب من المكان الذى دفنت فيه القطة ووضعت فيها الورق المحروق وأهالت عليه التراب · ولا تدرى لماذا دمعت عيناها ·

عندما وصل هشام الى محطة دمنهور وجد صديقه زكريا الذى كان فى انتظاره · فلقد حضرا معا من الاسكندرية وطلب هشام من زكريا أن ينتظره فى مقصف المحطة حتى يعود ليستقلا معا القطار الذاهب الى الاسكندرية · كان زكريا قد نفد صبره وقرر العودة بمفرده عندما رأى هشاما قادما ينهث · بادره زكريا قائلا :

ـ لو كنت أعلم أن رحلتك ستستغرق كل هذا الوقت لما قبلت الحضور معك ·

جلس هشام جنب صديقه صامتا . طلب له زكريا فنجانا من القهوة أخذ يحتسيه وقد بدا شارد الذهن غير شاعر بأية رغبة فى الحديث . أقبل القطار فأسرعا وجلسا فى احدى المقصورات على مقعدين متقابلين ولم يجلس معهما أحد ، ثم تحرك القطار . بعد فترة صمت قال زكريا :

ـ ماذا دهاك ؟ انك تبدو وكأنك عائد من زيارة مقبرة ولم تكن فى زيارة لبيتكم القديم . أنت تعلم أننى لا أحب هذا الصمت الرهيب . لماذا لا تنطق ؟

غمغم هشـــام قائـلا :

ـ لا أجـد ما أقوله .

ـ اشتمنى ، قل أى شىء ، لكن لا تجلس هكذا كالصنم . لماذا تعذب نفسك كل هذا العذاب ؟

ـ اعمل معروفا يا زكريا اتركنى وشأنى .

ـ لا فائدة ترجى منك ، لقد أصبحت متعبا . بمجرد وصولى الى الاسكندرية سأبحث عن بيت آخر بعيدا عن بيتك . اقامتى بالقرب منك تتعبنى وتعذبنى . لست أنت يا أخى أول من افتقر بعد غنى . اصمد وكافح من جديد . وعلى أية حال فظروفك أفضل بكثير من ظروف ملايين غيرك .. كم شخصا ترك له أبواه ايرادا قدره ثلاثون جنيها فى الشهر وفيلا فى منطقة (سموحة) ولا تحتاج لوظيفة تلتهم وقتك وطاقتك بل تعيش كما يحلو لك تكتب القصص والروايات وتنظم الأشعار ؟ لست فى حاجة لأن تتعب وتشقى مثلى معظم الليل والنهار فى احدى الصحف لتحصل على لقمة الخبز . أنت مجنون .

قال هشام بصوت خافت دون أن ينظر الى زكريا :

ـ أمجنون أنا ؟ لماذا ؟

ـ أقول لك السبب ، اسمع يا سيدى ، منذ نحو سبعة عشر عاما كنتم تمتلكون قصرا طويلا عريضا اضطرتكم الظروف لبيعه لأناس يعيشون فيه الآن ، فما الذى يجبرك على ركوب القطار من الاسكندرية والنزول من القطار فى دمنهور . ثم السير على قدميك خمسة كيلو مترات لمجرد رؤية القصر ثم تعود ، مع أنك عندما تركت هذا البيت كنت طفلا فى نحو العاشرة ؟ .

لست أدرى . أشعر بحنين غريب الى هذا البيت . انه يذكرنى بأيام العز الماضية عندما كنت أعيش فيه مع أبى وأمى .

لو كنت فى مكانك لما رغبت فى رؤية أى شيء يذكرنى بالماضى، فالماضى مات وينبغى التفكير فى المستقبل . أنت تتمنى أن تصبح كاتبا كبيرا ، والطريق لبلوغ هذا الهدف طويل وشاق يحتاج لجهد وصبر وكفاح .

نظر هشام من نافذة القطار مسترجعا ذكريات قديمة ، ثم قال :

ـ أنا أذكر جيـدا الأيام التى عشتها فى هذا البيت . طالما عدوت مع الغزلان بين أشجار الحديقة . ذكريات عديدة لا أستطيع نسـيانها .

ـ لا تستخدم خيالك الى الحد الذى يشعرك بالحزن والألم . ما الذكريات سوى حوادث ماتت ودفنت فلا تحاول من آن لآخر بعثها مرقدها . استمتع باللحظة التى أنت فيها قبل أن تصـبح ذكريات .

ـ ليتنى ما ذهبت ولا حاولت رؤية هذا البيت . كنت أذهب لمشاهدته وأعود ، ولكن فى يوم من الأيام ...

لم يكمل الجملة واطرق الى الأرض فقال زكريا :

ـ ماذا حدث في ذلك اليوم ؟

ـ بينما كنت أدور حول البيت كالعادة وجدت ثغرة صغيرة في السور لا تسترعى الانتباه . فرحت فرحا شديدا وكأننى عثرت على نافذة تطل على الجنة فنظرت من خلالها لأرى الحديقة التى طالما عدوت بين أشجارها وجلست تحت ظلالها ، ولكننى رأيت شيئا لم يخطر على البـال .

ـ ماذا رأيت ؟

ـ رأيت بنتـا .

ـ وماذا في هذا ؟ البنات في كل مكان .

لم تكن كبـاقى البنـات . مهما قلت فلن أتمكن من وصف جمالها الذى لم ار له مثيلا . انها كتمثال جميل من النور . كانت جالسة بالقرب من السور تعزف على العود موسيقى كأنها من عزف الملائكة . ثم سمعت صوتا ، قد يكون صوت أمها ، تناديها قائلة « سوسن » ، فانتفضت واقفـة وانطلقت تعـدو مبتعدة عن السور واختفت بين الأشجار . منذ تلك اللحظة لم يغب خيالها عن بالى . ظللت أسأل واستقصى وأجمع المعلومات عن هذه الأسرة فعلمت أن مالكة البيت التى اشترته منا تكره الرجال وتمعن فى اذكاء نار تلك الكراهية فى صدر ابنتها حتى أصبحت تخاف من مجرد ذكر كلمة « رجل » ، وهدفها من ذلك تنفير ابنتها من الزواج .

ـ وما علاقتك أنت بهذا الموضوع ؟

ـ ضحك زكريا وقال بسخرية :

ـ تتزوج منها ؟ هذا دليل آخر على جنونك . كنت أعتقد أن عملى كصحفى هو البحث عن المتاعب ، ولكن يبدو انك أنت الباحث

عن الأهوال • عيبك أنك خيالى وعاطفى أكثر من اللازم • ألم تجد سوى هذه الفتاة لتتزوج منها ؟ أرح نفسك وتأكد من أنها لن تتزوج لا منك ولا من غيرك • مصارعة الأسود المفترسة والنمور الضارية والثعابين العملاقة أهون من هذه الحرب التى ترغب فى خوض غمارها • انك كمن يضع رأسه بين فكى أسد جائع • قاوم هذه الرغبة المجنونة اذا كنت تريد البقاء على قيد الحياة •

– عجزت عن تلك المقاومة •

– هذا الطريق الذى تنوى السير فيه فى منتهى الخطورة • تحيط بهذه البنت وأمها اشاعات غريبة خطيرة وأنصحك بالابتعاد عن مواطن الخطر •

قال هشام باهتمام :

– هل تعلم شيئا عن هذه العائلة ؟

بدأت الاهتمام بها عندما رأيتك تذهب لرؤية هذا البيت والطواف حوله وعلمت منك أنه كان فيما مضى بيتكم ، ولا تنس أننى صحفى وحاسة تشمم الأخبار أقوى حواسى ، فهى من مستلزمات مهنتى •

التزم الصمت فترة قصيرة ثم أردف قائلا :

– ولو فرضنا المستحيل وقبلت الأم زواج ابنتها فهل تقبل أنت الزواج من فتاة مجهولة الأب وأمها مجهولة الأصل غريبة الأطوار لا تسمح لجنس رجل أن تطأ قدماه أرض بيتها ؟

– شىء عجيب لا أستطيع تصوره ، كيف يكون لامرأة ابنة بهذا الجمال الرائع وتحكم عليها بعدم الزواج طوال حياتها ؟ جميع الأمهات يتمنين تزويج بناتهن •

ـ يقولون انها قاست كثيرا من الرجال ولا تريد لابنتها أن تتعـذب مثلها ٠

ـ ولماذا تفرض أن ابنتها ستتعذب كما تعذبت هى ؟

ـ للعقل شطحات ونزوات لا نستطيع تبريرها ولم يتوصل أحد حتى الآن الى الكشف عن أسرار ما يحدث داخل رؤوس البشر ٠ أنا أعرف سيدة تسببت فى طلاق ابنتها أربع مرات من شدة حبها لها ٠ تريدها دائما جنبها ٠

ـ ولكن هذا شيء بشـــع ، مظهره العطف وباطنـه القسوة والأنانيـــة ٠

ـ المهم الآن هو أنك لن تستطيع الزواج من هذه البنت ولن تستطيع التحدث معها مطلقا ، فهى معزولة عن العالم ومحكوم عليها بعدم الزواج فماذا تريد منها ؟ أرح نفسك وأرحنى معك٠ على فكرة، هل صرفت النظر عن اتمام الرواية التى كنت قد بدأت كتابتها منذ أربعة شهور ؟ لم أسمع منك شيئا عنها منذ مدة طويلة ٠ ألم تعد تفكر فى شيء سوى هذه البنت التى دونها الأهوال ؟

ـ أنت معذور فى تفكيرك هذا لأنك لم ترهـا ، ولا يمكننى وصـفها ٠

ـ يا هشام أنت ما تزال فى حاجة لبناء مستقبلك ، وأراك الآن سائرا فى طريق مسدود وخطر ، أطعنى واطرد هذه البنت من خيـالك ٠

ـ سأموت حزنا لو لم أتزوجها ٠

وبعد فترة تردد نظر الى زكريا وقال :

– ألقيت لها اليوم خطابا من وراء السور .

ضحك زكريا وقال ساخرا :

– خطاب ؟! وماذا تنتظر منها عندما تقرأ خطابك هذا ؟

لم يعد يحلو لسوسن الجلوس الا فى المكان نفسه الذى كانت جالسة فيه يوم سقوط الخطاب أمامها . بعد تناول الغداء أخذت معها المندولين ، الذى تجيد العزف عليه كما تجيده على العود ، وذهبت بصحبة نظاجة الى ذلك المكان وبدأت تعزف . بعد فترة توقفت عن العزف وقالت لنظاجة :

– لن أذكر لماما أى شىء عن الخطاب ما دام هذا يحزنها كما تقولين ، فأنا لا أحب أن تحزن . هأنذا أحتفظ بالسر منذ أسبوعين ولم أخبر به أحدا . لم أستطع اخفاء أى سر الا فى هذه المرة . لكننى خفت من هذا الخطاب يا نظاجة .

قالت نظاجة وقد شعرت بحنين الى أيام مضت :

– ليست فيه ما يدعو للخوف ، ولماذا خفت منه ؟

– لست أدرى . ارتعشت يدى فى أثناء قراءته وشعرت بشىء ... لا أستطيع وصفه . يبدو أن الرجال مخلوقات غريبة . لماذا يرسل لى رجل لا أعرفه خطابا ؟ ماذا يريد منى ؟

تنهدت نظاجة وقالت :

– قطيعة تقطع الرجال . على الرغم من كراهيتى لهم فاننى أشعر بحنين اليهم .

قالت سوسن بفزع :

ـ تشعرين بحنين للرجال ؟! أحقيقة تحنين للرجال يا نظاجة؟

ـ من خبثهم ولؤمهم يجعلوننا نحن اليهم غصبا عنا · لقد عذبونى وآذونى وأذاقونى المر وأحاول اقناع نفسى بكراهيتهم لأنهم ثعابين ولكننى على الرغم من ذلك أجد قلبى يحن اليهم ويرفرف عندما أسمع سيرتهم · قطيعة تقطعهم وتقطع سيرتهم · هل تعلمين لماذا أرسل اليك هذا الرجل ذلك الخطاب ؟

قالت سوسن بلهفة :

ـ لماذا ؟ لماذا يا نظاجة ؟

ـ ولكن اياك أن تذكرى شيئا عما سأقوله لك · فليكن سرا بيننا ·

ـ لن أخبر أحدا · لماذا ألقى الى هذا الخطاب ؟

قالت نظاجة بما يشبه الهمس :

ـ لأنه ··· لأنه يحبك ·

قالت سوسن بدهشة :

ـ لماذا يحبنى ؟ ماما هى التى تحبنى · أنا لم أفعل شيئا ليحبنى · الأمهات فقط هن اللاتى يحببن بناتهن ·

قالت نظاجة بنبرة عتاب :

ـ وأنا ، ألست أحبك ؟

ـ ولكن حبك لى لا يمكن أن يبلغ درجة حب ماما ·

ثم أردفت قائلة بأسف :

– بركة كانت تقول انها تحبني ، ولكنها تركتني وخرجت .
ماما لا يمكن ان تتركني ، لا يوجد حب كحب الأم . ولكن عندما يحب رجل احدى البنات ماذا يريد منها ؟

– يريد أن يتزوج منها ، مثل الملعون الذى كنت زوجته .

قالت سوسن بفزع :

– يتزوج منها ؟ أرعبتني . عرفت الآن سبب خوفي من الخطاب . ولكن هل تعتقدين أن هذا الرجل رآني ؟

– غير معقول ، كيف يراك وأنت داخل هذه الأسوار العالية؟

بدأت سوسن تعزف على الجيتار وتغني أغنية « يا بدر يا اللي سبيت العين » وقد شعرت بنشوة لا تعرف مصدرها لم تشعر بها عندما كانت تغني للقمر . قالت نظاجة :

– لا داعي للغناء يا سيدتي جنب السور ، فقد يسمعك هذا الرجل ، لا سمح الله ولا قدر ، فيلقي اليك خطابا آخر .

لم تعرها سوسن أى اهتمام واستمرت فى الغناء . قالت نظاجة لسوسن :

– صوتك يا سيدتي يرد الروح .

فى هذه اللحظة سقط خطاب على بعد نحو ثلاثة أمتار من سوسن فتوقفت عن العزف والغناء وصاحت قائلة بانفعال :

– ها هو ذا خطاب آخر أزرق كالخطاب الأول .

أسرعت بالتقاطه وأخرجته من غلافه وبلهفة قرأت اسم مرسله وقالت :

ـ انه من الرجل نفسه ، هشام ٠

قالت نظاجة وكأن الخطاب مرسل اليها :

ـ ماذا يقول ؟ ماذا يقول يا سيدتى ؟

ـ يقول ٠٠٠

ضحكت ثم أردفت قائلة وهى مازالت تضحك :

ـ يقول ان الورد لون خدى ، وان الورد يغير من ورد خدى ٠

ـ الورد لون خدك أم خدك هو الذى بلون الورد ؟

ـ كلا ، يقول ان الورد هو الذى بلون خدى ، ويقول انه لهذا السبب يحب الورد ٠ أحقيقة يا نظاجة الورد لون خدى ؟

ـ وأحلى من الورد ٠

ثم أردفت قائلة بعد تنهيدة :

ـ وماذا يقول أيضا يا سيدتى ؟

ـ يقول كلاما غريبا ، اسمعى ٠ يقول انه ينسى نفسه كلما تذكرنى ، واننى لا أفارق خياله لحظة واحدة ٠

ثم نظرت الى نظاجة وقالت :

ـ ألا عمل له سوى التفكير فى ؟ ولماذا يفكر فى ؟ هل يوجد من يفكر فى شخص لا يعرفه ؟!

تفاعلت الذكريات فى ذهن نظاجة فقالت :

ـ وماذا يقول أيضا يا سيدتى ؟ ذكرتنى بالذى مضى ٠

قالت سوسن بدهشة :

ـ مضى ؟ من هذا الذى مضى ؟ أهو رجل ؟

قالت نظاجة وقد أسرعت بالسيطرة على عواطفها :

– رجل ؟ لا يا سيدتي ، أقصد عجلا صغيرا كنت أحبه ومات .

قالت سوسن بحزن :

– الله يرحمه ، مسكين .

قالت نظاجة بتنهيدة :

– وماذا يقول أيضا في الخطاب ؟

– يقول مرة أخرى انه يحبني ، يحبني أكثر من نفسه ، وهل هذا معقول ؟ هل يوجد من يحب شخصا أكثر مما يحب نفسه غير الأم ولماذا يحبني يا نظاجة.؟ أريد أن أعرف .

– أرجوك يا سيدتي لا داعي للكلام في هذه الأمور ، فليحرسك الله ويمنع عنك المصائب .

– ما هو هذا الحب يا نظاجة ؟ الحب الذي يهبط علينا من وراء الأسوار ؟

– انها مصائب تلقى علينا من حيث لا ندري .

– أريد أن أعرف معنى الحب هذا الذي يتحدث عنه .

– الحب تعب قلب يا سيدتي ، كفاك الله شره وكفاك شر جميع الرجال . أنت تعرفين جيدا كيف كان أبوك يعذب والدتك . ألم نقص عليك والدتك ما قاسته من أبيك من عذاب وأوجاع ؟ كل المصائب تبدأ بهذه الكلمة الملعونة التي يقولون عنها الحب .

– هل رأيت أبي يا نظاجة ؟

– لا ، اذا أردت الحقيقة يا سيدتي أنا لم أره . ولكن ما سمعته عنه من والدتك يشيب . مسكينة ، قاست منه كثيرا .

– يا حبيبتي يا ماما . سأريها هذا الخطاب ولن أخفيه عنها في هذه المرة . لا أحب أن أخفي عنها شيئا .

أسرعت نظاحة قائلة بلهفة وفزع

ـ لا يا سيدتى ، اياك أن تطلعيها عليه . انها ، حفظها الله من كل شر . لا تحتمل هذه الصدمة . لو علمت أن رجلا أرسل اليك خطابا فقد يحدث لها ، لا سمح الله ، ما لا تحمد عقباه .

ـ ولكننى أحب أن اخبرها . أنا لم أخف عنها شيئا طوال حياتى . أليس من الواجب أن تعرف كل شىء ؟

لا داعى لمعرفتها الأشياء التى تحزنها . هل يرضيك أن تحزن ؟

ـ لا ، انا لا اريد لها أن تحزن من أى شىء .

ـ سأذهب لاحضار علبة الكبريت لنحرقه ونرتاح منه قبل أن يراه أحد . احمنا يا رب وامنع عنا تلك المصـائب التى تنهال علينا من وراء الأسوار .

عادت نظاجة وفى يدها علبة الكبريت وحمدت الله على أن أحدا لم يرها عند ذهابها وايابها . قالت لسوسن :

ـ هات الخطاب يا سيدتى لنحرقـه .

ظلت سوسن ضاغطة على الخطاب فى يدها وقالت :

ـ لست أدرى ، هل أحرقه أم احتفظ به ؟

ـ ولماذا تحتفظين به ؟ لماذا تبحثين عن المتاعب ؟

قالت سوسن بذهن شارد :

ـ لست أدرى .

ـ اصنعى معروفـا يا سيدتى هات الخطاب لنحرقه حتى لا يكون سببا فى موتى لو عرفت والدتك .

ـ لا تخافى من ماما . انها طيبة جدا لا تحب أن تؤذى أحدا .

لم تستطع نظاجة الصبر أكثر من ذلك فاختطفت الخطاب من يد سوسن وأشعلت فيه النار . أخذت سوسن تجمع بقايا الخطاب المحترق ووضعته فى كفها اليسرى وغطته بالكف اليمنى حتى لا تذوره الرياح وقالت بنبرة حزينة :

ـ هيا ندفنه جنب الخطاب الأول .

(١٢)

بينما كانت الأم تسير فى الحديقة للاطمئنان على أزهار الورد الذى تحبه وتفضله على جميع الأزهار وجدت سوسن جالسة على المقعد الخشبى المجاور للسور تحت احدى أشجار البوانسيانا ، وهو المكان الذى كانت جالسة فيه عندما ألقى اليها الخطابان ، فلقد أصبح المكان الأثير لديها من بين جميع أماكن الحديقة المترامية الأطراف . كانت مطرقة الى الأرض وقد بدا عليها التفكير العميق . جلست الأم جنبها على حافة المقعد الضيق فابتسمت سوسن ابتسامة شاحبة وتحركت لتفسح لها مكانا . سألتها الأم :

ـ فيم تفكرين يا حبيبتى ؟

لاذت سوسن بالصمت فترة وهى مطرقة الى الأرض ، ثم رفعت رأسها ونظرت الى أمها وقالت :

ـ الحب ، ما معناه يا ماما ؟

فزعت الأم من هذا السؤال وتوقعت أن يكون وراءه ما ينبىء بهبوب عاصفة ، ولكنها سيطرت على هواجسها وقالت ببساطة وهدوء :

ـ ألست أحبك ؟ هذا هو الحب ، عندما تحب الأم ابنتها .

ـ أليس من الممكن أن يحب الابنة أشخاص آخرين ، مثلا ، نظاجة وعواطف ، ومرجانة ، ألا يحببننى ؟

ـ ولكن حب الأم نوع آخر لا مثيل له .

ـ يوجد حب آخر يا ماما ، هأنذى أحبك وأحب القمر والنجوم والشجر والقطط ، أليس هذا حبا ؟

ـ أجل ، ولكنه لا يشبه حب الأم لابنتها .

ـ أنا أحبك يا ماما ، أحبك حبا شديدا .

ـ أحبتك العافية يا روحى .

احتضنت الأم سوسن وباستها . قالت سوسن :

ـ والرجل ، أليس من الممكن أيضا أن يحب بنتا ؟

شعرت الأم بهبوب العاصفة وكادت تنهار ولكنها تماسكت وقالت :

ـ كل الرجال أنانيون لا يحبون سوى أنفسهم .

ـ والبنات ، ما دمن يعلمن ذلك فلماذا يتزوجن ؟

ـ لأنهن لا يعلمن هذه الحقيقة الا بعد الزواج .

ـ هل كان والدك هكذا ؟

ـ لست أدرى ، لم أره فلقد مات وأنا رضيعة .

ـ ألم تذكر لك والدتك شيئا عنه ؟

ـ والدتى ، رحمة الله عليها ، كانت من النوع الصبور الذى لا يشكو ، مثلى تماما .

ـ عندما تولد لى بنت لن أسمح لها بالزواج أبدا .

ـ ولكن كيف تصبح لك ابنة يا حبيبتى ما دمت لن تتزوجى ؟

– أجل ، نسيت ، ولكنني أشعر أحيانا برغبة في أن تكون لى ابنة .. أطرقت الى الأرض لحظة ثم رفعت رأسها وقالت وفى صوتها نبرة حزن :

– أنا حزينة من أجل القطط اللائى أكلتهن العرسة . كن كأولادى .

ظلت كلمات هذا الحديث القصير تدور فى ذهن الأم طوال اليوم .

ماذا يـدور فى ذهن سوسن ؟ ما هذا الكلام الغـريب الذى صـــفع أذنى ؟

كيف تجرؤ على التفكير فى تلك الرغبة ، رغبتها فى أن تصبح لها ابنة ؟ ان شيئا مخيفا يتحرك فى أعماق ذهن هذه البنت . شيء أخشى أن يقتلنى . ولكن لا ، سأقتل تفكيرها هذا وأقضى عليه قبل أن يقتلنى .. أجل ، أنا قادرة على ذلك . سأغير أفكارها وأشكلها حسب رغبتى وتعود كما كانت ، تفكر كما أريد لها أن تفكر لا كما تريـد هى .

أخذت تسير فى أنحاء البيت على غير هدى وكأنها تبحث عن شيء ضائع لا تعرفه . رأت نظاجة منهمكة فى تنظيف زجاج غرفة سوسن ، فأخذتها الأم الى غرفة نومها وأغلقت بابها وحكت لها تفاصيل ما دار بينها وبين سوسن من حديث ، وطلبت منها أن تعمل بكل طاقتها لاقتلاع جذور الأحزان من ذهن سوسن وزيادة جرعة تنفيرها من الرجال ومقاومة عاطفة الأمومة ، التى تهب رياحها بين آن وآخر ، قبل أن تتحرك الى اعصار يدمر القلاع والحصون التى أقامتها الأم حول ابنتها .

وفى اليوم التالى ، فى المكان نفسه الذى أصبح يحلو لسوسن الجلوس فيه ، جلست وبجوارها على الحشائش تربعت نظاجة متكئة بذراعيها على المقعد . قالت :

ـ ما بك يا سيدتى ؟ أبوس يدك لا تحزنى ، فوالدتك أوصتنى أن أبعد عنك الأحزان ، لماذا كل هذا الحزن ؟

قالت سوسن بصوت متهدج :

ـ لست أدرى . أشعر أحيانا برغبة فى البكاء .

قالت نظاجة بانزعاج شديد :

تبكين ؟ لماذا ؟ كفاك الله شر البكاء . هل يوجد ما يحزنك ؟

انخرطت سوسن فى البكاء فاحتضنتها نظاجة وأخذت تربت على ظهرها قائلة :

ـ استحلفك بالله يا سيدتى ألا تبكى .

اختطفت يد سوسن وباستها قائلة :

ـ أبوس يدك ، لا تبكى فأنا لا أحتمل بكاءك . هل سمعت من ماما ما أغضبك ؟

ـ لا ، ماما لم تغضبنى أبدا . أنا حزينة من تلقاء نفسى

ـ هل من المعقول يا سيدتى أن يعيش أحد فى هذه الجنة التى تعيشين فيها ويحزن ؟ الحياة هنا ترد الروح وتفرح القلب وتطيل العمر .

ـ وما فائدة العمر عندما يطول ؟ اسمعى يا نظاجة .

ـ نعم يا سيدتى .

ـ أحقيقة كان زوجك يعذبك كما تقولين ؟

قالت نظاجة بعد فترة تردد :

ـ أتعدينني لو قلت الحق أن يظل سرا بيننا ؟

ـ أعدك بذلك ·

ـ كان زوجي رجلا طيبا، لم يعذبنى ولم يجرح شعورى قط ، بل أنا التى كنت أعذبه ·

ـ هل يعنى هذا أنه لم يكن يضربك كما قلت لى ؟

ـ لا يا سيدتى ، بل أنا التى كنت أضربه ·

ـ ألهذا السبب تركك ؟

ـ لم يتركنى الا عندما مات ·

ـ لماذا قلت لماما انه هجرك وانه كان يعذبك ليلا ونهارا ؟

ـ كل هذا كذب ومحض افتراء من أجل لقمة العيش ، فوالدتك لا تقبل للعمل فى هذا البيت سوى النساء اللاتى اكتوين بنار الرجال ، فاخترعت هذه القصة لهذا السبب · قطيعة ، أكل العيش يجبر الانسان على الكذب · سامحنى يا رب ، أنت غفور رحيم ·

ـ لم تصادفى اذن متاعب فى زواجك كما حدث لماما ·

ـ لا يا سيدتى · رحم الله زوجى فلقد كان من أطيب الرجال · لم يكن كأبيك ، والدك كان من نوع آخر ، نوع متعب ·

ـ ولكن ماما تقول لى دائما ان جميع الرجال متشابهون · ربما يكون المرحوم زوجك الرجل الوحيد الطيب ·

قالت نظاجة باضطراب :

ـ ربما ، من يدرى ؟ من الممكن ، ولكن أبوس يدك ورجلك يا سيدتى واستحلفك بكل عزيز لديك لا تذكرى لماما أو لأى شخص كلمة واحدة من هذا الحديث ·

قالت سوسن وقد بدت شاردة الذهن :

ـ لا تخافى ، لن أخبر أحـدا ٠

فى شقة بالدور الثانى فى منطقة كليوباترا بالاسكندرية كان زكريا يتناول فطوره عندما دق جرس الباب ، فأكمل بلع اللقمة التى كان يلوكها فى فمه ثم صـاح قائـلا :

ـ من بالبـاب ؟

ـ أفتـح ، أنا هشـام ٠

اتجه نحو البـاب ليفتحـه ٠

ما الذى دفعه للمجىء فى هذا الصباح الباكر فمن عادته أن يتأخر فى النوم ؟ أخشى أن يكون قد جاء ليشكو لى غرامه بهذه البنت التى قلبت كيانه ٠ لقد سئمت الحديث فى هذا الموضوع ٠

فتح الباب فوجد هشاما شاحب الوجه زائغ النظرات تحيط بكل عين من عينيه حلقة سمراء ٠

يخيل الى أنه لم ينم لحظة واحدة ليلة أمس ، وربما منذ عدة ليال ، فهاتان الحلقتان دليل على السهر الطويل المتواصل ٠ لا حول ولا قوة الا بالله ٠

ـ أهلا هشـام ، تفضـل ٠

دخل هشام دون أن ينبس بكلمة وجلس على كنبة أسيوطى فى البهو فجلس زكريا بالقرب منه ٠ ظل هشـام ملتزم الصمت فترة وزكريا مثبت نظره نحوه مترقبا حديثه وقد شـعر بقلق من أجله وشفقة عليه ، ثم رفع رأسه ونظر الى زكريا وقال :

- أشعر بضيق شديد ووحدة قاسية فى بيتى فهل من الممكن أن تؤنس وحدتي لمدة أسبوع ؟

- لا يا عم ، يفتح الله ، كله الا هذا . لماذا لا تبحث عن بنت حلوة وتتزوج منها ؟

- لن أتزوج من سواها .

- من هى ؟ أما زلت تفكر فى هذه البنت المسماه سوسن ؟

- أنا لا أفكر فى غيرها .

- شفاك الله . يوجد كثيرون مثلك يهوون النكد . اسمع يا هشام ، تعال معى الليلة لأسرى عنك فى احدى دور الملاهى . سأنسيك هذه البنت .

- لافائدة . حاولت نسيانها ، وكلما ازدادت محاولاتى ازداد حبا لها .

- هذا يعنى أن حالتك أصبحت ميئوسا منها . سأتركك الآن لحظة لأعمل لك كوبا من عصير الليمون عساه يمنحك بعض الهدوء النفسى .

- أنا الذى سأتركك الآن .

- وأين تذهب ؟

- سأسافر ، اشعر برغبة فى رؤية بيتها .

- لا حول ولا قوة الا بالله . اننى دائم الدعاء لك ولكن ربنا لا يريد أن يشفيك فماذا أصنع ؟

ـ ليتك تحضر معي • لا أريد الذهاب بمفردي ، ولن أتركك تنتظرني في محطة دمنهور كما فعلت في المرة السابقة حتى لا تشعر بالملل • تعال معي لأريك البيت •

ـ ومن قال انني أريد رؤية البيت ؟ ما ذنبي أنا ؟ هل تنوي حقا الذهاب الى محطة سيدي جابر وتقطع تذكرة وتركب القطار وتنزل من القطار في محطة دمنهور ثم تســـير نحــو خمسة كيلو مترات للوصول الى البيت وخمسة كيلو مترات أخرى للعودة الى المحطة لمجرد الطواف حول بيتها ، وتريد مني ان أطوف معك ؟

ـ أجــل ، أريد ذلك •

ـ أنا متأسف ، ابحث عن شخص غيري يكون مجنونا مثلك •

ـ كما تريد ، سأذهب بمفردي •

جلست سوسن محتضنة الجيتار في مكانهـــا الذى لم تعــد تجلس في مكان غيره بالحديقة ، ونظاجة ، كالعادة ، جالسة بالقرب منها • قالت سوسن وهي مطرقة الى الأرض :

ـ نظـــاجة •

ـ نعم يا روح نظاجة •

ـ أنا متضايقــة •

ـ ماذا أفعل لك يا سيدتي ؟ هل ستظلين حزينة الى الأبد ؟

ـ لست أدري ماذا جرى لي ، كل شيء أصبح قبيحا في عيني ومرا في فمي •

ـ ولماذا كل هذا العذاب يا ســـيدتي ؟ لو كنت في مكانك لأصبحت أسعد انسانة في الدنيا •

- الرجل الذى كان يرمى لى الخطابات من خلف السـور كان يسليني بخطاباته • كان يشعرني بأن الأيام هنا ليست متشابهة • لقد بدأت أشعر بالوحدة •

- كيف تشعرين بالوحدة وأنت تعيشين مع والدتك ومعنـا جميعـا ؟

- ولكن يخيل الى أننى أعيش وحدى • اسمعى يا نظاجة ، لقد نظمت أغنية هل أتلوها عليك ؟

- قولى يا حبيبتى ، كل ما يخرج من فمك حلو مثلك •

قالت سوسن

قالوا لى الـورد لون خـدى   يغـير الـورد مـن وردى
وكل الحسـن ده عنـدى   وأنا بابكى هنـا وحـدى

ودمعى سـال على الخدين

عرفت الوحـده من بـدرى   فى أحلى فتره مـن عمرى
ولما احتـاروا فى أمرى   طويت السـر فى صدرى

ودمعى سـال على الخدين

قولوا لى الحب ايه صورته   دنـا عمـرى ما جربتـه
ولا شـافنى ولا شـفته   ولا زارنـى ولا زرتـه

ودمعى سـال على الخدين

صاحت نظاجة قائلة :

ـ الله يا روحى الله ، كلامك حلو كالسكر .

ـ أنا لحنته ، هل أغنية لك ؟

ـ غنى يا ستى غنى . صوتك يجعل القلب يرفرف .

غنت سوسن الأغنية بمصاحبة الجيتار وعندما انتهت من الغناء سألت نظاجة عن رأيها فى الأغنية فقالت :

ـ لا يوجد فى الدنيا أحلى من غنائك .

ـ هل سمعت كل الغناء الذى فى الدنيا يا نظاجة ؟

احتارت نظاجة ولم تعرف كيف تجيب عن هذا السؤال ، ولكن اخرجها من حيرتها صوت من الخارج يقول بما يشبه الهمس :

ـ ســـوسن .

لم تصدق سوسن أذنيها فصاحت قائلة بفزع :

ـ ما هذا ؟ هل يوجد من ينادينى يا نظاجة :

قالت نظاجة وقد سرت فى جسدها رعشة خوف :

ـ انه صوت رجل يا سيدتى .

عاد الصوت يقول بصوت أعلى :

ـ ســـوسن .

شعرت سوسن برعب شديد فقالت لنظاجة :

ـ تعالى نبتعد عن هذا المكان .

وانطلقت تعدو نحو القصر ونظاجة تهرول خلفها صائحة :

ـ لا تخافى يا سيدتى ، لا تخافى .

اندفعت سوسن الى غرفتها ولحقت بها نظاجة . أغلقت الغرفة وجلست على حافة السرير تلهث خوفا وتعبا ونظاجة تحاول بلا جدوى تهدئتها وتخفيف وطأة الرعب الذى اجتاحها .

كانت الأم قد لمحت سوســـن وهى تجـــرى فشعرت بقلق غامض . سألت عنها عواطف فأخبرتها أنها دخلت غرفتهـــا وأغلقت بابها . فتحت باب الغرفة فوجدتها منبطحة على السرير وظهـــرها متجه الى أعلى مستندة برأسها على ذراعيها المتقاطعتين ، ونظـــاجة جالسة جنبها . أخفت الأم مشاعر الخوف التى تعربد فى ذهنهـــا وقالت بهدوء :

ـ ســـوسن .

فوجئت سوسن بسماع صوت أمها فاعتدلت واستندت بظهرها على الجزء الخلفى للسرير وأسرعت نظـــاجة بالوقوف . قالـــت سوسن :

ـ نعم يا ماما .

ـ ما بك يا حبيبتى ؟

ـ لا شيء ، أنا فى أحسن حال .

ـ ما بك وجهك شاحب ؟ هل تشعرين بأى تعب ؟ هل أطلب لك الطبيبـــة ؟

ـ لا يا ماما ، لست مريضـــة .

التفتت الأم الى نظاجة قائلة بنبرة تأنيب :

ـ ماذا جرى يا نظاجة ؟ ألم تكونى معها ؟

قالت نظاجة بذهن مرتجف :

ـ أجل يا سيدتى ، كنت معها •

ـ ماذا حـــدث ؟

ـ كل هذا بسبب الضفدعة ، قطيعة تقطع جميع الضــفادع التى فى الدنيا •

قالت الأم بدهشة :

ـ ضــفدعة ؟ وماذا فعلت الضفدعة ؟

ـ قفزت من السور فوق سيدتى سوسن فأرعبتها •

ضحكت الأم وقالت :

ـ ضـــفدعة ؟! كل هذا بسبب ضفدعة ؟ امازلت يا روحى تخافين من الضفادع كما كنت وأنت صغيرة ؟

قالت نظاجــة :

ـ تعبت منه لأنه ضفدع ذكر •

ـ وكيف علمت أنه ذكر ؟

ـ كان الشر واضحاً فى عينيه ، ضفدع لئيم لا أمان له ، هكذا جميع الذكور •

انحنت الأم وأخذت تملس على شعر ابنتها قائلة :

ـ أما زلت خائفة يا حبيبتى ؟

ـ لا يا ماما ، لست خائفة الآن •

ـ هيا معى لتناول العشاء يا روحى ، فالعشاء جاهز منــذ مدة طويلــة •

ـ حاضر يا ماما •

قفزت سوسن من السرير وسارت مع أمها نحو غرفة الطعام ٠

من هذا الرجل الذى نـادانى باسمى ؟ كيف عرف اسمى ؟ ما شكله ؟ نظاجة تقول ان زوجها كان مختلفا عن الرجل الذى أحضرتـه لى ماما وانه لم يعـذبها بل هى التى عذبته ٠ ولكن ماما تحبنى وتريد أن تبعد عنى المصائب والأحزان ٠ لابد أنها تعرف أكثر منى ٠ ماذا يريد منى هذا الرجل ؟

ــ فيم تفكرين يا حبيبتى ؟ لماذا لا تأكلين ؟

انتزعت سوسن نفسـها من هذه الأفـكار وبدأت تتنـاول عشاءهـا ٠

كان هشام جالسا الى مكتبه مشغولا بكتابة رواية كان قد بدأها منذ أكثر من عـام ثم أهمل كتابتها وقرر اليوم اسـتئناف الكتابة فى محاولة لاتمامها ٠ بعد كتابة نحو أربع صفحات سمع رنين جرس الباب فشعر بشىء من الضيق وهو ذاهب ليرى الشخص الذى قطع تسلسل أفكاره وأجبره على ترك الكتابة بعد أن بذل جهدا لتهيئة نفسه للاندماج فى حوادثها ، فهو عندما يكتب يرى الشخصيات والحوادث تجرى أمامه كما يصورها خياله وكأنه يراها فى فيلم سينمائى بالألوان ٠ دهش عندما وجد زكريا الذى لم تكن من عادته زيارة هشام وقت الظهيرة ٠

ــ أهلا وسهلا ، تفضل ٠ هذه مفاجأة سارة ٠

كان هشام يتمتع بصفات الفنان الأصيل المرهف الأحاسيس، يبدو هذا واضحا فى تذوقه لكل ما هو جميل ، فى الموسيقى وفى أثاث منزله شكلا وتنسيقا على الرغـم من ثمنه المتواضـع ، وفى اللوحـات التى تزين الجـدران والأزهار التى يحرص دائمـا على وجودها فى غرفة المعيشة ٠ جلس زكريا فوق الكرسى الذى اعتاد الجلوس عليه دائما وقال :

ـ هل قرأت عدد هذا الأسبوع من مجلة « الأدب والفن » ؟

ـ لا ، لم أشتر هذا العدد حتى الآن . هل فيه شيء مهم ؟

ـ أجل ، فيه شيء يخيل الى أنه لا يهم أحدا سواك .

قال هشـام بلهفة :

ـ ما هو ؟

ـ قصة من قصصك منشورة فيـه .

ـ هل أحضرته معـك ؟

أخرج زكريا خمس نسخ من هذه المجلة من بين ثنيتي صحيفة كانت مطوية فى يده سلمها لهشام الذى اختطفها وأخذ يبحث فيها عن قصـته . قال زكريا :

ـ صفحة ثلاثين .

بسرعة ولهفة عثر على صفحة ثلاثين فى المجلة فوجد قصـته يزينها رسم رائع . قرأ القصة وكأنه يقرؤها لأول مرة ثم طوى المجلة ووضعها بعناية فوق الأعداد الأربعة الأخرى وقال لزكريا :

ـ هل قرأتها ؟

ـ طبعـا .

ـ وهل أعجبتك ؟

ـ جدا ، أريد أن أقرأ لك العديد من أمثالها . عيبك الكسل .

ـ أصبح لى الآن هدف أعمل من أجله . أصبح للحياة معنى وطعـم .

قال زكريا بنبرة سخرية :

ـ وما هو هذا الهدف ياترى ؟

ـ زواجي من سوسن .

ـ يا فتاح يا عليم . هل ستعود لهذه الهلاوس ؟

ـ أريد أن أكون جديرا بفتاة مثلها .

ـ أمازالت هذه الأفكار العجيبة تطن في ذهنك ؟ عوضنا على الله فيك .

ـ لست أدري ماذا جرى لي يا زكريا ، انني دائم التفكير فيها . بعد أن تطفأ الأنوار في جميع المنازل المحيطة بي وينام سكانها أظل ساهراً في الشرفة أفكر فيها . لا أشبع من التفكير فيها وأشعر بلذة في أثناء هذا التفكير .

ـ ولكن لا ينبغي أن تستمر في اجترار أمل كاذب . هذه البنت لن تتزوج أبدا وأنت تعلم ذلك جيدا . أرجو قبول نصيحتي بالابتعاد عن هذا البيت وهذه البنت .

ـ ولكنني مصمم على الزواج منها .

ـ وما قيمة تصميمك اذا كانت البنت هي وأمها مصممتين على عدم الزواج ؟ هل تختطفها وتتزوج منها بالقوة ؟ ان والدتها لو شمت من على بعد ألف كيلو مترا رائحة رجل يحوم حولهم للزواج من ابنتها فسوف تتخلص منه. لن تتركه على سطح الأرض. أطعني يا هشام ، ابعد عن الشر وغن له .

ـ سمعتها بالأمس تغني بصوت ملائكي .

قال زكريا بدهشة :

ـ أسمعتها وهي تغني ؟! غير معقول . وماذا كانت تقول ؟

ـ كانت تقول :

قالوا لى الورد لون خدى يغير الورد من وردى
وكل الحسن ده عندى وأنا بابكى هنا وحدى

ودمعى سال على الخدين

قال زكريا ساخرا :

ـ يخيل الى أن هذا الكلام من تأليفك ·

ـ اقسم لك انني سمعتها تغني هذه الأغنية · شعرت كأنها تشكو لى من الوحدة ·

ـ هل رأتك ؟

ـ لم ترنى ، لكن خيل الى أنها كانت تكلمنى ، لأننى أنا الذى ذكرت لها فى الخطاب أن الورد لون خدها ، وانه يغير من وردها · لابد أنها هى التى كتبت هذه الأغنية من وحى كلامى ·

ـ قال زكريا بسخرية :

ـ هيه ؟ وماذا قالت أيضا يا سيدى ؟

ـ قالت :

عرفت الوحدة من بدرى فى أحلى فترة من عمرى
ولما احتاروا فى أمرى طويت السر فى صدرى

ودمعى سال على الخدين

وبعد فترة صمت قصيرة أردف قائلا :

ـ عندما سمعتها تغنى هذا الكلام نسيت نفسى ، ودون أن أشعر وجدتني اناديها من وراء السور ·

ـ المهم ، هل ردت عليك ؟

ـ كلا ، بل خافت وجرت ٠

انفجر زكريا ضاحكا فقال هشام شاعرا باكتئاب ٠

ـ علام تضحك ؟ هل فى هذا ما يدعو للضحك ؟

(١٣)

كانت سوسن جالسة الى مكتبها الصغير فى غرفـة دراستها تراجع دروس الفيزياء ونظاجة منهمكة فى كى بعض الملابس بمكواة ضخمة تسخن باشعال أجزاء صغيرة من الخشب توضع فى جوفها الواسـع ٠ طوت سوسن الكتاب ونظرت الى نظاجة قائلة :

ـ أتظنين أن الذى نادانى هو نفس الذى القى الخطاب ؟

ـ قلبى يقول انه هو ٠

ـ ولماذا نادانى ؟ ماذا يريد منى ؟

ضحكت نظاجة وقالت :

ـ يريد تخويفـك ٠

ـ لقد خفت خوفا شديدا ٠ هذا أول رجل فى الدنيا ينادينى باسمى ٠ والعجيب أنه رجل لا أعرفه ٠ لست أدرى كيف عرفنى وماذا يريد منى ؟ لا أعتقد أنه يريد تخويفى ٠

ـ أنا أعرف ما يريده ٠

قالت سوسن بلهفـة :

ـ ماذا يريد ؟

قالت نظاجة بعد أن أخذت تحرك رقبتها كعادتها عندما ترغب في اثارة مشاعر من تحدثه بذكر شيء لا يخطر له على بال :

ـ يريد الزواج منـــك ٠

صاحت سوسن قائلة بفزع :

ـ يتزوج منى ؟!

ـ أجل ٠ يتزوج منك ٠

قالت سوسن وقد سرت فى فروة رأسها قشعريرة :

ـ لا تخيفينى ٠ لا تنطقى هذه الكلمة مرة أخرى انها ترعبنى ٠

بعد أن أطرقت الى الأرض فترة قصيرة أردفت قائلة :

ـ اسمعى يا نظاجة ٠

ـ نعم يا سيدتى ٠

ـ هل رأيت رجالا كثيرين قبل مجيئك عندنا ؟

همست نظاجة قائلة :

ـ لن أكذب عليك ، رأيت رجالا عدد شعر رأسى ٠

ـ هل هم متشابهون فى الخلقة كما تقول ماما ؟

ـ ما تقوله ماما لابد أن يكون صحيحا ، هل تنتظرين منى أن أعرف أكثر مما تعرفه والدتك ؟

ـ لا أقصد أن ماما لا تقول الحقيقة ٠ ولكن ربما لا تكون قد رأت عددا كبيراً من الرجال ٠

ـ بل رأت عددا كبيرا منهم ٠ لا يوجد فى هذا البيت من لم ير رجالا سواك ٠

قالت سوسن وكأنها تفاخر بذلك :

ـ لقد رأيت رجلا . أنسيت أنني رأيت رجلا ؟

ـ أجل ، أذكر ذلك الرجل .

ـ مسكين ، صفعته ماما على أذنه بلا ذنب .

ثم نظرت الى ساعتها وقالت :

ـ في مثل هذا الوقت وصلني أول خطاب . سأذهب الى الحديقة لأجلس في المكان الذى كنت جالسة فيه في ذلك الوقت . أصبحت أخاف من هذا المكان ولكنني أحب الجلوس فيه . شيء عجيب . هل تحضرين معي ؟

ـ اذهبي وسألحق بك عقب الانتهاء من كي ملابسك .

ـ سأنتظرك ، لا تتأخري . لم أعد أحب الجلوس وحدى .

ـ لن أتأخر ، سأحضر على الفور .

جلست سوسن وهي لا تدرك سبب تفضيلها الجلوس في هذا المكان منذ تلقت أول خطاب عبر سور القصر . وبدأت تغني :

قالوا لي الورد لون خدى   يغير الورد من وردى

وكل الحسن ده عندى   وأنا بابكى هنا وحدى

ودمعي سال على الخدين

في هذه اللحظة سمعت صوتا بالقرب منها يناديها :

ـ سوسن .

ظهر من خلف احدى الأشجار القريبة منها شاب وسيم ، شعرت برعب شديد ، ولكنه نوع لذيذ من الرعب لم تشعر به من قبل . انتفضت واقفة وقد شحب وجهها وقالت :

ـ من أنت ؟ ابعد عنى . من أدخلك هنا ؟

قال مبتسما وقد شعر بنشوة تشوبها رهبة الموقف :

ـ أنا هشام يا سوسن . أنا الذى ألقيت اليك الخطابين .

انطلقت تعدو نحو القصر فجرى خلفها قائلا :

ـ تعالى ، لا تخافى منى . أنا أحبك . أريد التحدث معك ولو لمدة دقيقة واحدة ، دقيقة واحدة لا غير .

توقفت عن الجرى واستدارت نحوه وقد بدأت تشعر بقوة غامضة تجذبها نحوه وقالت :

ـ ماذا انت ؟ من المستحيل أن تكون رجلا .

ضحك هشـــام وقال :

ـ من المستحيل أن أكون رجلا !؟ بل أنا رجل . وماذا أكون غير ذلك ؟

بدأت تقترب من المقعد الخشبى الذى كانت جالســة عليــه بخطوات بطيئة ثم جلست على حافة المقعد وظلت مصوبة بصرهــا نحوه فترة وكأنها تفحص مخلوقا خرافيــا هبط من كوكب بعيد وقالت :

ـ هذا غير معقول ، شكلك يختلف عن شكل الرجال . أنت أجمل منهم .

ضحك وقال :

ـ الرجال أشكال وألوان ، كل واحد يختلف عن الآخر .

ـ ماما تقول انهم متشابهون ، يشبهون الرجل الذى فرجتنى عليــه .

– ولكننى واحد منهم .

– أمتأكد أنت أنك رجل ؟

– طبعا متــأكد .

قالت شاعرة بهدوء ونشوة :

– لست أدرى ، ولكن ما الذى دفعك للحضور الى هذا المكان ؟ وكيف دخلت ؟

– حبى لك هو الذى دفعنى لعمل المستحيل للمجىء .

– وهل يحب الرجــال البنــات ؟ الأمهات فقط من اللائى يحببن بناتهن .

– من قال ذلك ؟

– ماما تقول ذلك ، وكل من رأيتهن من السيدات يقلن ذلك . ولكن لماذا تحبنى ؟ هل تعرفنى لتحبنى ؟ هل سبقت لك رؤيتى ؟

– أجل ، رأيتــك .

صاحت قائلة بدهشــة :

– غير معقول . كيف حدث هذا ؟

– دون أن تدرى ، رأيتك ذات يوم من وراء السور ، ومنــذ رأيتك وأنا أفكر فيك ليلا ونهارا . لم أكن أتصــور أن فى الدنيا جمالا مثــل جمالك .

أطالت النظر اليه ثم قالت :

– هل رأيت بناتا غيرى ؟

– أجل ، رأيت عديدا من البنات ، ولكنك أجمل من رأيت ، وحرام أن يظل هذا الجمال سجينا فى هذا البيت .

– وماذا تريدنى أن أفعل ؟ ألا تعيش البنات فى بيوتهن ؟ أنا سعيدة بوجودى هنا مع ماما · انها تحبنى حبا جما ، وحب الأمهات لا مثيل له لأنهن غير خائنات ، أما الرجال فكلهم خونة ·

– من قال ان الرجال خائنون ؟

– ماما وبركة وعواطف ومرجانة وجميع مدرساتى · لا يوجد سوى زوج نطاجة الذى تقول عنه انه كان طيبا · لقد تعجبت عندما قالت لى ذلك · لم أكن أتصور وجود رجل طيب ، ولم تصرح لى بهذا السر الا منذ أيام قلائل ·

بعد فترة صمت قصيرة أردفت قائلة :

– أى يوم من أيام الأسبوع يومنا هذا ؟

– الخميس · ألا تعرفين أيام الأسبوع ؟

– اننى أخلط بين الأيام ، فالأيام هنا متشابهة لا فرق بين يوم وآخر ·

–من الآن لن تكون الأيام هنا متشابهة ·

– لماذا ؟ ماذا سيحدث للأيام ؟

– سيكون لها طعم ولون ·

نظرت اليه مبتسمة وقالت :

– تعال اجلس جنبى · لست خائفة منك · خفت عندما فوجئت بظهورك ، ولكننى لست أدرى لماذا زال عنى الخوف الآن ·

جلس هشام بجوارها وظلا صامتين فترة غير قصيرة · شعرت بنشوة تدفعها للالتصاق به ثم قالت :

- أريد أن أمسك أنفك !

ثم ضحكت وأردفت قائلة :

- هل من الممكن أن أمسك أنفك ؟

- لو طلبت عينى لأعطيتها لك ·

لم تتردد ولمست أنفه ثم امسكته فشعرت بنشوة غامضة تسرى فى جسدها ، ولكن هذه النشوة تحولت الى رعب شديد عندما سمعت صوت أمها منبعثا من بعيد قائلة :

- مع من تتحدثين يا سوسن ؟

سيطرت سوسن على أعصابها وأشارت لهشام نحو شجرة ضخمة جنب السـور وطلبت منه الاختباء خلفها · ثم صاحت قائلة :

- لا أحد هنا سواى يا ماما ·

بدأت الأم تقترب نحو سوسن التى ظلت جالسة على المقعد وقد بدت وكأنها تفكر تفكيرا عميقا · وقفت الأم أمامها مبتسمة ابتسامة كاذبة وقالت :

- سمعتك تتكلمين وتضحكين ، مع من كنت تتحدثين ؟

- كنت أكلم نفسى ·

قالت الأم بدهشة وفزع :

- تكلمين نفسـك ؟

ـ أجل يا ماما ، أسلى نفسى مادمت لا أجد من أكلمه ٠

جلست الأم جنب ابنتها واحتضنتها فمالت برأسها على كتف أمها ٠ ربتت الأم على ظهر سوسن قائلة :

ـ كيف لا تجدين من تتحدثين معه يا حبيبتى ؟ لماذا لم تأتى للتحدث معى ومع نظاجة وعـواطف ومرجـانة ؟ لست فى بيت مهجـــور ٠

ـ أصبحت أحب التحدث مع نفسى ٠

قالت الأم باذلة كل جهدها لتبدو هادئة على الرغم من شدة قلقهـــا :

ـ لا يا حبيبتى ، لا تكلمى نفسك هكذا أبدا فهذا يضرك ٠

ثم قامت قائلة لسوسن :

ـ تعالى معى يا روحى ٠

وقفت سوسن واتجهتا معا نحو القصر ٠ ذهبت سوسن الى غرفتها واتجهت الأم نحو المطبخ ٠ فزع الخدم عندما أبصرن الأم ٠ كانت شاحبة الوجه ، حائرة العينين ٠ ابتدرت الخدم قائلة :

ـ نظاجة ، عواطف ، مرجانة ٠

كان صوت الأم يوحى بوقوع كارثة ، فقالت نظاجة بفزع :

ـ نعم يا ستى ؟ ٠

والتزمت كل من عواطف ومرجانة الصمت محملقتين نحو الأم فى رعب وترقب :

قالت الأم بصوت مرتجف :

ـ كيف تتركن سوسن فى الحديقة وحدها ؟ وماذا تعملن هنـــا ؟

قالت نظاجة مرتعشة :

- كنت أكـوى ملابســها ٠

صاحت الأم قائلة وقد نفرت عروق رقبتها :

- وجدتها وحدها فى الحديقة تكلم نفسها ، هل تدركن معنى ذلـــك ؟

قالت نظاجة بدهشـــة :

- تكلم نفسها ؟! اسم الله عليها وحواليها يا سيدتى ٠

قالت الأم :

- هل سمعها أحد منكن تكلم نفسها قبل ذلك ؟

نظر الثلاثة الى الام ببلاهة فاغرات أفواههن فى صمت ٠ صوبت الأم بصرها نحو نظاجة التى شعرت وكان مدفعا اتجهت فوهته نحوها لينسفها ٠

قالت الأم :

- هل سمعتها تكلم نفسها قبل ذلك يا نظاجة ؟

- لا يا سيدتى ، لم تعمل هذه العملة قبل اليوم ٠

- وأنت يا عــواطف ٠

- لا يا سيدتى ، لم أسمعها تكلم نفسها أبدا ٠

- وأنت يا مرجانة ، هل لاحظت أنها تكلم نفسها ؟

- لا يا سيدتى ، لا يوجد من يكلم نفسه هنا غيرى ٠

قالت عواطف بحماس لا داعى له :

- أجل يا ســيدتى ، مرجانة تكلم نفســها ٠ كلما دخلت المطبخ أجدها تهلوس بكلام غير مفهوم ٠ وذات مرة وجدتها تصفع نفسها على وجهها ٠

قالت الأم بدهشة :

ـ تصفع نفسها ؟ لماذا تصفعين نفسك يا مرجانة ؟

ـ مخى وسخ يا سيدتى ·

ـ كيف ؟

ـ ظللت أبحث عن الصابونة أكثر من ساعة ، فى دواليب المطبخ وتحت المنضدة وعند الحوض ، وفى كل مكان واذا بها فى يدى ، فصفعت نفسى على صدغى ·

ضحكت عواطف ونظاجة فبادرتهن الأم صائحة :

ـ علام تضحكان ؟ هل يوجد ما يدعو للضحك ؟ ما هى ذى سوسن أصبحت تكلم نفسها كمرجانة · أنا خائفة عليها ، خائفة عليهـــا ·

ثم رفعت صوتها منادية :

ـ يا سوسن ، سوسن ، أين ذهبت ؟ يا سوسن ·

قالت مرجـــانة :

ـ ربما تكون فى الحديقة ·

ضربت الأم كفا بكف وقالت وفى صوتها نبرة يأس :

ـ عادت الى الحديقة · ذهبت لتكلم نفسها مرة أخرى ·

ثم صاحت قائلة :

ـ ماذا تنتظرن ؟ لماذا تقفن هنـــا ؟ هيا ابحثن عنهـــا · لا تتركنها تجلس بمفردها مطلقاً ·

ثم تمتمت قائلة :

ـ يا حبيبتى يا بنتى ·

كانت سوسن قد تسللت وعادت الى هشام لتطمئن عليه . تنامى الى سمعها أصـــوات نطاجة ومرجـــانة تتردد من بعيد صـــائحة :

– يا ستي سوسن ، ستي سوسن ..

همست سوسن لهشام قائلة :

– انهن يبحثن عنى .

– أخائفة أنت ؟

– لا ، لست خائفة منك .

– ولكننى خائف .

قالت سوسن بدهشـــة :

– مم تخـــاف ؟

– أخشى أن يرانى أحد هنا .

– هيا معى نختبىء فى مكان بعيد لن يصل اليه أحد ، ولكن اياك أن تحدث أى صوت أو حفيف مع أوراق الشجر .

كانت أصوات النداء مازالت تتردد عندما وصلا الى مكان كثيف الأشجار فى نهاية الحديقة غير مطروق . همس هشـــام لسوسن قائلا :

– ألن يرانا أحد هنا ؟

– كلا ، انه مكان شبه مهجور لن يخطر على بالهن .

بدأت أصوات النداء تعلو . قال هشام شاعراً برجفة :

– انهن يقتربن منا .

تذكرت سوسن مكاناً آخر أكثر أمناً فقالت :

ـ تعـــال معى ٠

ـ الى أين ؟

ـ لا تتكلم ، هيا معى وانت ساكت ٠

ترددت أصوات النداء فقالت سوسن :

ـ ما زلن يبحثن عنى ، ولكننى سعيدة وأنا معك ٠

اختبأ خلف شجرة ضخمة تحجبها عدة أشجار أخرى ٠

ـ أخشى أن يريننى فيقتلننى ٠ ينبغى أن أهرب الآن من البيت ٠

ـ لا تذهب ، أنا أريدك ٠

ـ سأذهب وأحضر فى يوم آخر ٠

ـ كيف دخلت ؟

ـ وجدت ثغرة صغيرة فى السور فظللت أوسعها حتى استطعت النفاذ منهـا ٠

ـ هل تستطيع الخروج منها ؟

ـ أجل ، ولكننا بعدنا عنها كثيرا ولابد من الخروج الآن ٠ سأبحث عن الثغرة ولكننى أخشى أن يرانى أحد فى أثناء البحث ٠

ـ هل سأراك مرة أخرى ؟

ـ بلا شك ، لا أستطيع الحياة دون أن أراك ٠

ـ ولا أنا ٠ أتمنى أن تظل معى ولكننى أخشى أن يرانا أحد ٠ متى أراك ؟

ـ الخميس القادم ، السابعة مساء ٠

ـ الأفضل أن تحضر فى الساعة العاشرة والنصف بعد أن ينام كل من فى البيت ٠

– سأحضر فى العاشرة والنصف · سأظل فى الخارج عند الفتحة التى فى السور حتى أراك ثم أدخل · هل تعرفين مكان هذه الثغرة ؟

– لا ، لا أعرفها ·

– سيرى جنب السور من الجهة الخلفية حتى تعثرى على غرفة صغيرة ملتصقة بالسور بالقرب منها شجرة عتيقة عالية · الفتحة تقع بين الغرفة والشجرة ·

– تذكرت هذا المكان · جلست فيه عدة مرات فوق المقعد الخشبى ، ولكننى لست أدرى كيف لم ألاحظ وجود الفتحة ·

– الفتحة كانت صغيرة تغطيها حشائش طويلة فلا يلاحظها أحد من الداخل ، ولكننى رأيتها من الخارج · انها الثغرة التى رأيتك من خلالها ·

– سأنتظرك هناك ·

كانت النداءات قد أخذت تخفت تدريجياً حتى تلاشت ·

قالت ســـوسن :

– لم أعد أسمع لهن صوتاً · لابد أنهن قد عدن الى البيت · سأذهب اليهن وأشغلهن حتى تتمكن من الخروج · سأنتظرك يوم الخميس ، ولكن اياك أن تخلط بين الأيام كما يحدث لى ·

– من المستحيل أن أنسى اليوم الذى سأراك فيه ·

عاد الخدم الى الأم وقد استبد بهن الخوف لعدم عثورهن على سوسن ، ففزعت الأم وبحركة لا ارادية نظرت من النافذة وكأنها

تتوقع رؤية سوسن ، ثم خرجت من الباب عند قمة السلم المؤدى الى الحديقة ثم عادت الى الخدم اللائى وجدتهن مصطفات بالقرب من الباب وصاحت فيهن قائلة :

ـ كيف لا تجدنها في الحديقة ؟ مســــتحيل ، أين ذهبت اذن ؟ أخشى أن يكون قد حدث لها مكروه · كانت تكلم نفسها · يا حبيبتى يا بنتى · ماذا تنتظرن ؟ اذهبن وأحضرنها من تحت الأرض ·

قالت نظــــاجة :

ـ بحثنا فى كل مكان يا سيدتى ·

فى هذه اللحظة أقبلت سوسن قائلة وهى تصعد بهدوء درجات السلم الخارجى :

ـ عمن تبحثين ؟

ما أن رأتها الأم حتى احتضنتها وكأنها عائدة من سفر بعد طول غياب قائلة بلهفة :

ـ بنتى حبيبتى · أين كنت يا سوسن ؟

ـ كنت فى الجنينة يا ماما ·

نظرت الأم الى الخدم نظرة تكاد تخترق أجسادهن وقالت :

ـ وتقلن انكن بحثتن عنها فى الجنينة ، ها هى ذى آتية منهـــا ·

ثم التفتت الى سوسن وقالت بحنان :

ـ ماذا كنت تعملين فى الحديقة يا روحى ؟

ـ ذهبت لأكلم نفسى ، فلقد اشتقت الى الحديث مع نفسى ·

قالت الأم بأسى :

ـ أمازلت يا حبيبتى تكلمين نفسك ؟

قالت سوسن وقد بدت شاردة الذهن شـــاعرة بنشـــوة غامضـــة :

ـ كنت أكلم نفسي كلاماً لذيذاً ، فى غاية اللذة يا ماما ٠

عاد الفزع يهز كيان الأم وقالت بنبرة حزينة :

ـ لا يا حبيبتى ، لا تفعلى هذا مرة أخرى ٠ لقد تأخرت فى النوم ، اذهبى ونامى لتريحى أعصابك ٠

ـ حاضر يا ماما ٠

ـ اذهبى معها يا نظاجة حتى لا تكلم نفسها ٠

ـ حاضر يا ستى ٠

اضطجعت سوسن على سريرها وجلست نظاجة على أرض الغرفة مرتكزة على السرير ناظرة الى سوسن ثم قالت :

ـ أين كنت يا ست سوسن ؟ بحثنا عنك فى كل شبر فى الجنينة وفى جميع غرف البيت ٠

ظلت سوسن محملقة فى سقف الغرفة محلقة فى سماء الخيال ، مسترجعة الحوادث التى مرت بها فى هذه الليلة شاعرة بنشوة من نوع جديد لم يسبق لها الاحساس بمثلها ، اختلط فيها الخوف بالمتعة ، والألم باللذة ٠ وفى ومضات خاطفة تقفز فى ذاكرتها ما سمعته من والدتها عن الرجال وتقارن بين ما سمعته وما رأته الليلة ٠

لماذا أخفت عنى والدتى هذه الحقيقة ؟ وما الهدف من ذلك ؟ لقد رأيت حتى الآن رجلين مختلفين كل الاختلاف ٠ لماذا أشعر

برغبة فى البقاء مع هشام والحديث معه أطول مدة ممكنة ؟ لماذا لم أخف منه ؟ اننى الآن أترقب موعد عودته • ترى ماذا تقول ماما وماذا تفعل لو تعلم ذلك ؟ مسكينة ماما ، أخشى أن تحزن أو تتألم وأنا لا أريد أن أكون سببا فى حزنها أو ألمها فهى تحبنى وتريد أن تجنبنى جميع الأخطار وجميع أسباب الألم • لست أدرى هل أخبرها أم أحتفظ فى صدرى بكل ما حدث الليلة وما قد يحدث فى الليالى القادمة ؟ ولكننى أشعر برغبة فى الافضاء بهذا السر الى أى انسان فأنا لا أملك القدرة على اخفاء أسرارى مدة طويلة •

ـ هل أخبرك يا نظاجة عن المكان الذى كنت فيه شريطه ولا تقولى لأحد ؟

ـ يقطع لسانى لو نطقت بأية كلمة فى هذا الموضوع •

ثم أردفت قائلة بلهفة :

ـ أين كنت يا سيدتى ؟

ـ كنت مع هشـــام •

لم تصدق نظاجة ما سمعته وظنت أنها شطحة من شطحات خيال سوسن أو مظهر من مظاهر اضطرابها النفسى الذى دفعها للكلام مع نفسها ، فقالت دون ابداء أية دهشة :

ـ كنت مع هشام ؟ ذلك الرجل الذى ألقى اليك بالخطابات من فوق الســـور ؟

ـ أجل ، هو انه يختلف عن الرجال الذين تحكون لى عنهم ، كما يختلف عن الرجل الذى فرجتنى عليه ماما • انه جميل ولطيف وحنون • كنت اتمنى ان يظل معى طوال الليل والنهار ، وكنت أود ••

لم تكمل سوسن الجملة فلقد روعت عندما رات نظاجة وقد شحب وجهها وسقط رأسها على حافة السرير قائلة لسوسن بصوت ضـعيف :

ـ أشـعر بدوار ، رشي على وجهي بعض الماء تكســبين ثوابا ٠

أسرعت سوسن باحضـــار كوب من الماء ورشت على وجه نظاجة حتى غرقته ، ولكن نظاجة ظلت في شبه غيبوبة ، فأحضرت سوسن زجاجة كولونيا من فوق التسريحة وأخذت تبخ رذاذا منها على وجه نظاجة ، ثم تهزها وتصفعها على خدها لتفيق ، وبعد عناء بدأت نظاجة تحرك رأسها ٠ قالت سوسن بلهفة :

ـ هل أفقت يا نظاجة ؟

قالت نظاجة بصوت خافت :

ـ أجل يا سيدتي ، أفقت ٠

ـ وماذا دهاك ؟ ما الذي دوخك ؟

ـ الكلام الذي قلته يا سيدتي ، انه يدوخ من لم يدخ في حياته ٠ هل جرؤ هذا الرجل على دخول البيت ؟

ـ أجل وجدته أمامي ٠ كنت أظن أنني سأخاف منه ولكنني لم أخف ٠ انه لا يخيف ٠

ـ أكنت جالسة معه ونحن نبحث عنك في كل مكان ؟

ـ اياك أن تخبري ماما ٠

ـ لن أنطق ، فلست مجنونة ٠

قالت سوسن وكأنها تقص حلماً لذيذاً طاف بخيالها في اغفاءة عابرة :

ـ كان حديثه معي لطيفاً لم أسمع مثله من قبل ·

ـ وكيف استطاع اجتياز هذه الحصـــون · أقرد هو أم بهلوان ؟

ـ ليس قرداً ، بل رجلا وسيماً ، وكنتن تقلن لى ان جميع الرجال متشابهون ·

اقتربت نظاجة من سوسن وهمست قائلة :

ـ أريد أن أعرف كيف دخل ·

ـ ضحكت سوسن وقالت :

ـ هذا ما لن أخبرك به ·

ـ لن يظل سراً الى الأبد ، كل هذا سيطينها فوق دماغى فى النهاية · نامى يا حبيبتى نامى ، ربنا ينهيها على خير ·

صحت سوسن من نومها فى الصباح شاعرة بنشاط وبهجة ، فانطلقت تغنى أغنية الوردة :

« يا وردتى يا معطرة ياطله من زهريتى » ·· الى آخر الأغنية ·· سمعتها أمها فدخلت الغرفة ·

ـ صباح الخير يا سوسن ·

ـ يسعد صباحك يا ماما ·

ـ هل نمت جيداً ؟

ـ أجل يا ماما ، نمت نوماً هادئاً لذيذاً ·

ـ نظاجة تقول انك كنت تكلمين نفسك أيضـــاً فى أثناء النـــوم ·

قالت سوسن بدهشة :

ـ أكنت أكلم نفسي في أثناء النوم ؟ غريبة . وماذا كنت أقـــول ؟

ـ كنت تقولين انك سعيدة وفرحانة · أريد منك أن تظلي فرحانة دائما . ولكنني لست أدرى لماذا تكلمين نفسك كثيراً في هذه الأيام · ماذا كنت تحلمين ؟

ـ حلمت حلماً لذيذاً ·

ـ ماذا حلمت يا روحي

ـ حلمت انني جالسة مع رجل

جلست الأم على حـــافة السرير وقالت بدهشـــه ورعب واستنكار :

ـ جالسة مع رجل ؟! ومن تعتبرين هذا حلما جميلا ؟ انه كابوس ·

ـ لا يا ماما · لم يكن كابوسا فلقد كان الرجل جميل المنظر وعذب الحديث . ليس كالرجال الذين تحكين لي عنهم ·

قالت الأم بدهشة :

ـ وهل يوجد في الدنيا رجل جميل المنظر أو عذب الحديث · كفاك الله شرهم يا حبيبتي . لا تحلمي مثل هذه الأحلام السيئة مرة أخرى ·

ـ هو الذي جاء يا ماما . أنا لم أطلب منه المجيء ·

قالت الأم بفزع :

ـ من هـــو ؟

ـ الحلم يا ماما · هل في استطاعتي منع الأحلام أو اختيارها حسب رغبتي ؟

ثم أردفت قائلة وكأنها تحدث نفسها :

ـ كان حلماً جميلا ٠

ـ كان حلماً جميلا ! سلامتك يا حبيبتى ٠ ماذا جرى لك ؟

ثم صاحت قائلة :

ـ لا ، هذا فوق احتمالى ، أغرب ما سمعته منك ٠

ثم سيطرت على أعصابها وقالت بهدوء :

ـ هل أنت مريضة يا روحى ؟ أتشعرين بتعب ؟

قالت سوسن بحزن وقد أطرقت الى الأرض :

ـ أجل يا ماما ، أنا مريضة ٠

قالت الأم بلهفة وانزعاج :

ـ سلامتك يا حبيبتى ٠ هل أحضر لك الطبيبة ؟

اسرعت الأم باحضار ميزان الحرارة ووضعته فى فم سوسن ٠ وبعد دقيقة سحبته من فمها ونظرت اليه وقالت :

ـ حرارتك طبيعية ، فلماذا تهلوسين ؟

قالت سوسن وهى مطرقة الى الأرض والحزن يكسو وجهها :

ـ ماما ٠

ـ نعم يا روحى ؟

ـ أريد أن أسألك سؤالا لم يجبنى عنه أحد ٠ منذ زمن بعيد وأنا اتمنى معرفة الاجابة عنه ٠

اختنق صوت سوسن وهى تنطق الجملة الأخيرة ولم تستطع السيطرة على عواطفها فانخرطت فى البكاء ٠ انزعجت الأم فاحتضنت ابنتها وأخذت تربت على ظهرها وتبوسها قائلة :

ـ لا تبكى يا حبيبتى ، لا تبكى يا روحى • ما هو السؤال الذى تريدين الاجابة عنه ؟

ـ ما اسم أبى ؟ اننى حتى الآن لا أعرف له اسما •

قالت الأم بعصبية واضطراب :

ـ ولماذا تريدين معرفة اسمه ؟ انه لا يســــتحق منك هذا الاهتمـــــام •

ـ كل بنت لابد أن تعرف اسم أبيها حتى ولو كان •••

لم تستطع اتمام الجملة فانخرطت فى البكاء • قالت الأم وهى تربت على ظهر ابنتها بحركة عصبية لا ارادية :

ـ ذكرت لك جميع المعلومات التى ينبغى أن تعرفيها عنه •

ـ ولكننى لا أعرف اسمه ، ألم يكن له اسم ؟

ـ كان له اسم ، ولكننى لا أريد لك أن تعرفيه ، أريد منك أن تنسى أن فى يوم من الأيام كان لك أب •

قالت سوسن بدهشة وأسى :

ـ أنسى أن لى أباً !

ـ أجل ، انسى أن لك أباً ، فلن تحتاجى اليه فى أى يوم من الأيام •

تمتمت سوسن وكأنها تحدث نفسها :

ـ ألن أحتاج اليه فى أى يوم من الأيام ؟

ثم رفعت رأسها ونظرت الى أمها وقالت :

ـ ماما •

ـ نعم يا روحى •

ـ هل بابا حى ؟

ـ لا ، ليس حياً ، قلت لك مراراً يا حبيبتى انه مات • مات منذ زمن طويل • لم يبق منه سوى بضع عظام فى حفرة •

ـ ولو سألنى أحد عن اسم أبى ماذا أقول ؟ هل أقول له اننى لا أعرف اسمه ؟

قالت الأم بنبرة تعجب :

ـ لو سألك أحد ؟ أحد مثل من ؟ أسمع منك اليوم كلاماً غريباً • لن يسألك أحد هذا السؤال فلن يراك أحد غريب ليوجه اليك مثل هذا السؤال ولن ترى أحدا •

بكت سوسن ، فأخذت الأم تربت على ظهرها قائلة :

ـ لا تبكى يا حبيبتى • قلبى يتقطع عندما أراك تبكين • أود أن أراك دائماً سعيدة فرحانة • لا هدف لى فى الحياة سوى اراحتك واسعادك • هل يوجد فى الدنيا من يحبك أكثر من حبى لك ؟ لماذا اذن تفكرين فى أحد غيرى ؟

قالت سوسن وهى تبتلع دموعها :

ـ أنت أعز انسان لدى ، ولكننى أفكر فى نفسى أحياناً وتخطر ببالى أفكار سيئة •

ـ أفكار سيئة ؟! مثل ماذا يا روحى ؟

ـ مازلت أذكر كلمة سمعتها وأنا صغيرة لم أستطع نسيانها •

قالت الأم بلهفة :

ـ كلمة ؟! أية كلمة هذه ؟

– كلمة سمعتها من أبلا فتحية مدرسة العربى ، منذ ست سنوات .

– ماذا قالت ؟

– ذات يوم قالت لى اننى ....

ثم أطرقت الى الأرض والتزمت الصمت ، فقالت الأم بخوف ولهفـــة :

– انك ماذا ؟

– قالت اننى .. لا أحد يعرف لى أبا . لست أدرى ماذا كانت تقصد بهذا .

قالت الأم بهدوء مفتعل :

– تقصد بهذا أن والدك توفى ، وأنا لم أذكر اسمه لأية مدرسة من مدرساتك ولهذا لا تعرفه أية واحدة منهن .

– ولكننى أريد أن أعرفه . أريد أن أعرف ولو اسمه .

نظرت الأم الى ابنتها من طرف عينيها وقد تلاشت إبتسامتها المصطنعة وتبدلت ملامح وجهها وارتفع أحد حاجبيها كعادتها عندما تهم بالقاء تصريح خطير وقالت :

– هل ترغبين فى معرفة مكان أبيك ؟

– أجل يا ماما ، أريد أن أعرف أين هو لأرتاح .

قامت الأم قائلة :

– تعـــالى معى .

حملقت سوسن فى وجه أمها بدهشة تطل من أجمل عينين خلقهما الله وقالت :

ـ الى أين أذهب معك ؟

ـ لا تسأليني عن شيء ، هيا معى ، سأريك المكان الذى فيه أبـــوك ٠

قالت سوسن وهى مازالت جالسة :

ـ أهو هنا فى البيت ؟

ـ أجل ، انه هنـــا ٠

ـ هل يعيش معنا هنا ؟!

ـ ستعرفين الآن ، هيا معى نهبط الى البدروم ٠

قامت سوسن وساقاها لا تقويان على حملها ٠ طلبت منها الأم أن تنتظرها لحظة وتركتهــا وذهبت الى غرفتها ، ثم عادت وأحضرت من المطبخ مصباحاً يضيء بالكيروسين ، أشعلته واتجهتا نحو درجات السلم المؤدى الى البدروم ٠ شعرت سوسن بمزيج من الخوف وحب الاستطلاع وأخذت تهبط السلم وفى ذهنها عاصفة عاتية من الظنون والأحزان ، وفى عنفوان ذلك الاعصار تذكرت هشام ، فكان كومضة البرق فى حالك الظلام ٠ فتحت الأم بابا لا يكاد يرى ، فلونه أزرق كلون الجدران ٠ دخلت الأم وسوسن خلفها فرأت سردابا طويلا ٠

الى أين تقودنى أمى ؟ ما هذا السرداب المظلم الذى لم يسبق لى السير فيه ولم أكن أعلم عنه شيئاً طوال هذه السنين ؟ هل من المعقول أن يكون أبى فى هذا المكان ؟ هل هو سجين ؟ ومن الذى سجنه هنا ؟ وهل فى استطاعة أحد الحياة فى مكان كهذا ؟

عند نهاية السرداب رأت سوسن بابا آخر ، غمغمت بذهول وكأنها تحدث نفسها :

ـ لم أشاهد هذا المكان من قبل .

أدارت الأم فى ثقب هذا الباب مفتاحاً آخر اكبر حجماً من المفتاح الذى فتحت به باب السرداب . تركت المفتاح فى ثقبه ونظرت الى ابنتها قائلة :

ـ لا يعرف هذا المكان سواى ولم تطأه قبل هذه اللحظة قدم انسان غيرى .

ـ عجيب أن أعيش طوال هذه المدة فى البيت وتوجد فيه أماكن لا أدرى عنها شيئاً .

ـ توجد أشياء كثيرة من الأفضل الا يعرف الانســـان عنها شيئاً . سأفتح لك الباب الذى لم أفتحه لانسان غيرك وسأريك أبـاك .

قالت سوسن بدهشة وفزع :

ـ أبى ؟! أهو هنا ؟

ـ أجل هنا منذ سنوات . سترين الآن مكانه .

فتحت الباب ودخلتا رفعت الأم يدها بالصباح لتتيح لسوسن الرؤية رأت غرفة طولها نحو سبعة أمتار وعرضها نحو خمسة . أدارت بصرها باحثة فى أنحاء الغرفة فلم تر لوالدها أثراً ، ولكنها رأت ثلاثة نتوءات تبرز من أرض الغرفة لم تستطع معرفة كنهها . صاحت قائلة :

ـ ما هذا المكان ؟

قالت الأم بهـــدوء :

ـ هذا هو المكان الذى يأتى اليه الناس بعد أن يرتاحوا من هموم الدنيا . هذه الأشياء الثلاثة التى ترينها أضرحة ، مقابر .

شعرت سوسن برعب شديد فالتصقت بأمها وهى ترتجف • احتضنتها أمها بحنان قائلة :

ــ لا تخافى يا حبيبتى •

أشارت نحو أحد الأضرحة الثلاثة وأردفت قائلة :

ــ هل ترين هذا الضريح ؟ أبوك مدفون بداخله منذ سنين وأيـام •

ازداد التصاق سوسن بأمها فطوقت الأم خصر ابنتها بيدها • قالت سوسن وبصرها مصوب نحو الضريح الذى أشـارت اليه أمهـا :

ــ بابا ، أمدفون هنا ؟

ــ أجل يا روحى ، هل ارتحت الآن ؟

ــ والضريحان الآخران ، من فيهما ؟

ــ مازالا خاليين •

أشارت نحو الضريح الذى فى الطرف الآخر وقالت :

ــ سيكون هذا ضريحى فى يوم من الأيام •

ــ سلمت من كل شر يا ماما ، لا أحب أن أسمع منك هذا الكـلام •

تركت الأم خصر ابنتها فابتعدت عنها سوسن قليلا •

قالت الأم :

ــ الموت نهاية كل حى ، وهذا البيت هو دنيانا ، نعيش فيه ونموت فيه •

أدركت سوسن أن الضريح المتوسط سيكون ضريحها هى فسرت فى جسدها قشعريرة وأشاحت بوجهها عنه • قالت الأم :

ما رأيته الآن يا حبيبتى لن يعرفه سوانا ، هل تعاهدينني على ذلك يا روحى ؟

قالت سوسن بصوت متهدج :

ـ أعاهدك يا ماما ·

ثم أجهشت بالبكاء · فزعت الأم فاحتضنتها قائلة :

ـ ما بك يا روحى ؟ ما بك يا حبيبتى ؟

قالت سوسن وهى مختنقة بالبكاء :

ـ لا أريد البقاء فى هذا المكان ، هيا نخرج ·

خرجنا من الغرفة واغلقت الأم البـــاب بالمفتاح · هرولت سوسن متجهة نحو باب السرداب فمدت الأم خطاها لتظل جنب ابنتها · لم تنتظر سوسن أمها حتى تنتهى من اغلاق باب السرداب بالمفتاح بل سبقتها وأخذت تصعد درجات السلم تجر ساقيها وكأنها عائدة من تشييع جنازتها · بعد صعود سوسن بضع درجات لحقت بها أمها وقالت :

ـ لماذا بكيت يا حبيبتى ؟ لا يوجد ما يدعو للبكاء ·

قالت سوسن دون أن تنظر الى أمها :

ـ لست أدرى · هذه أول مرة أرى فيها شيئاً كهذا ، ويخيل الى بعد الذى شاهدته أن هذا البيت بحدائقه وأشجاره ما هو الا مقبرة كبيرة نعيش بداخلها ·

(١٤)

بعد خروج سوسن من السرداب اعتكفت فى غرفتها وأغلقت بابها وذهبت الأم الى غرفة المعيشة وجلست على الكرسى المجاور للنافذة المطلة على شجرة المشمش صفقت فأسرعت نحوها خطوات

نظاجة وعواطف ومرجانة . كانت الأم تبدو فى حالة نفسية سيئة ، تحرك يديها حركات لا ارادية وتتململ فى جلستها ولاحظت نظاجة أن سيدتها كانت تكلم نفسها .

شىء غريب ، هل سيدتى هى التى تكلم نفسها أم سوسن ؟! يبدو أنها التقطت العدوى من سوسن .

ـ نعم يا سيدتى ؟

نظرت الأم الى الخادمات الثلاث الواقفات أمامها وتفرست فى وجه كل واحدة منهن ثم قالت :

ـ لست مستريحة لتصرفات سوسن وطريقة تفكيرها فى هذه الأيام ، انها تقلقنى .

ـ قالت نظـــاجة :

ـ ماذا حدث يا سيدتى ؟

ـ سمعت منها كلاماً غريباً لم أعتد سماعه من قبل .

قالت نظاجة وقد شحب وجهها :

ـ كلام غريب ؟ ما غريب الا الشيطان يا سيدتى . ماذا قالت ؟

ـ ليست كعادتها . حدث لها تغير كبير مفاجىء لا أعرف له سبباً . كراهيتها للرجال لم تعد كما عهدتها فيها . رؤية الرجال فى الأحلام لم تعد تثير فزعها ، بل على العكس ، قالت لى انها رأت رجلا فى الحلم واعتبرته حلماً جميلا .

ثم أردفت قائلة بانفعال :

ـ تصوروا ، ترى رجلا فى الحلم وتعتبره حلماً جميلا ؟!

قالت نظـاجة :

ـ سلامتها يا سيدتي . ماذا جرى لها ؟

ـ لست أدري • وهناك أمر آخر يشغل بالى ، انها تتحدث الآن كثيراً عن أبيها • يبدو أنكن مقصرات فى تأدية واجبكن كما ينبغى • هل خنتن ما تعاهدنا عليـه ؟ ألســتن جميعاً ضـحايا الرجــال ؟

قالت مرجـانة :

ـ أجل ، نحن ضحايا الرجال الملاعين •

ـ أريد أن تنتقل الى قلب سوسن جميع الكراهية التى فى قلبى وقلوبكن لصنف الرجال • أنا لا أقبل أى تهاون في هذا • لابد أن تفزع منهم كما كان يحدث فيما مضى •

ثم صاحت قائلة بصوت مرتفع غاضب :

ـ هل تسمعن ما أقول ؟

قالت مرجـــانة :

ـ أجل يا سيدتي ، نحن سامعات •

قالت عواطف :

ـ أنا لا أكف ليلا ونهارا عن ملء قلبها بكراهية الرجال وسرد القصص التى تنفرها منهم •

قالت مرجانة :

ـ وأنا أيضاً يا سيدتى لا أمل تكرار ذلك •

كانت نظاجة فى هذه الأثنـــاء مطرقة الى الأرض ملتزمة الصمت • نظرت اليها الأم نظرة قاسية وقالت بسخرية :

ـ لماذا تلتزمين الصمت يا نظاجة ؟ هل يشغل بالك أمر أهم من سوسن ؟

كانت نظاجة هائمة في لجة من التفكير المضنى فقطع صوت سيدتها سلسلة أفكارها وقالت متلعثمة :

ـ لا يا سيدتى . لا شيء . لا شيء مطلقا . لا يشغل بالى سواها .

قالت الأم :

ـ أين هى ؟

ـ ربما تكون فى الحديقة يا سيدتى .

ـ لا تتركيها وحدها لحظة واحدة . هل تسمعين ما أقول ؟

ـ أسمع يا سيدتى . لن أتركها وحدها أبداً .

ـ وطوال فترة جلوسك معها لا تجعلى لسانك يكف عن شتم الرجال ووصفهم بأقذر وأسفل الأوصاف . كثرة تكرار الكلام لابد أن يحدث فى النفس تأثيراً . لا أريد أن أسمع منها مرة أخرى حديثا عن الرجال خاليا من الرعب والاشمئزاز ، ولا أريد أن تتحدث عن أبيها أو تخطر سيرته على بالها ، هل تفهمن ما أقول ؟

قلن جميعاً :

ـ مفهوم يا سيدتى .

ـ هيا اغربن عن وجهى ، واذهبى يا نظاجة الى سوسن ولا تفارقيها حتى لا تضطر للكلام مع نفسها .

ـ حاضر يا سيدتى .

ذهبت نظاجة الى غرفة سوسن فلم تجدها . هرولت تبحث عنها فى الحديقة فوجدتها جالسة على المقعد الخشبى الذى اعتادت

الجلوس عليه منذ تلقت أول خطاب من هشام . كانت مطرقة الى الأرض شاردة الذهن . تسللت نظاجة من جهة السور وخبأت عينى سوسن بيديها فى صمت فانتفضت سوسن واقفة وقد هزتها الفرحة قائلة :

– هشـــام ؟

قالت نظاجة وكفاها مازالتا على عينى سوسن :

– لا يا حبيبتى ، أنا نظاجة .

جلست سوسن وقد شعرت برد فعل اكتئابى . جلست نظاجة جنبها وقالت :

– لو عرفت والدتك ما دار بينك وبين هشـــام من حديث لقطعت رقبتى .

قالت نظاجة وكفاها ما زالتا على عينى سوسن : دمعتين :

– أنا حتى الآن لا أعرف اسم أبى يا نظاجة ، هل تعرفينه أنت ؟

قالت نظاجة وفى صوتها نبرة صدق :

– أعدم عينى وعافيتى يا سيدتى لو كنت أعرف اسمه أو أعرف عنه أى شىء .

نظرت اليها سوسن بعينين مبتلتين وقالت :

– من أين اذن حصلت على القصص المرعبة التى تحكينها لى عنه ليلا ونهارا ؟

همست نظاجة قائلة :

– حصلت عليها من والدتك ، هى التى لقنتها لى .

ـ هل يعنى هذا أنك لم ترى أبى ؟

ـ اذا أردت الحقيقة يا سيدتى أنا لم أره ، ولكن منذ حضورى الى هذا البيت وأنا أسمع عنه من والدتك حكايات تشيب ٠

ـ ماما تقول ان كل الرجال قبيحو المنظر ، ولكننى عندما رأيت هشاما وجدته جميلا ٠

ثم أردفت قائلة بحزن وخيبة أمل :

ـ ماما تخفى عنى الحقيقة يا نطاجة ٠ لست أدرى لماذا تفعل ذلك ٠ لم أكن أتصور أن ماما تقول أشياء غير صحيحة ٠

ـ والدتك تفعل ذلك لأنها تحبك ٠

قالت سوسن بدهشة :

ـ اتخفى الحقيقة لأنها تحبنى ؟

ـ أجل ، تود تنفيرك من الرجال لتعيشى سعيدة ، فالبعد عنهم غنيمة ٠

بدت سوسن شاردة الفكر ثم قالت بعد فترة صمت :

ـ أخشى أن يكون حديثها عن أبى غير صحيح أيضاً ، أليس من الممكن أن يكون أبى مظلوماً ؟

ـ لا يا حبيبتى ، هذا غير معقول ٠ وما الذى يدفعها لقول أشياء لم تحدث ؟

ـ لست أدرى ، ربما يكون فى الأمر سر لا أعرفه ٠

ثم أردفت قائلة بمرارة بعد لحظة صمت :

ـ ماما تحتفظ فى صدرها بأسرار كثيرة لا أعرفها يا نطاجة ٠

– والدتك لا تخفى عنك شيئاً ، بل أنت التى تخفين الآن عنها أسرارك .

– كنت على وشك الافضاء بأسرارى لماما ولكن الكلام وقف فى حلقى ولم يستطع الخروج ، لست أدرى لماذا .

قالت نظاجة بفزع :

– تقولين لها ؟! لا ، أبوس رجلك يا سيدتى اياك أن تبوحى لها بأى شىء عن هذا الموضوع لأظل على قيد الحياة ، فالحياة مهما كانت أفضل من الموت .

– وهل أظل محتفظة بهذا السر الى الأبد ؟

– ترى هل ينوى هذا الرجل الحضور الى هنا مرة أخرى ؟

قالت سوسن بثقة :

– أجل ، سيحضر طبعاً .

– قلبى شاعر بأن آخرتى اقتربت . يا خسـارة شبابك يا نظـاجة .

قالت سوسن بصوت خافت وكأنها تحدث نفسها :

– ما فائدة الشـباب ؟

– حفظك الله وأدام لك الشـباب يا سيدتى . هل يوجـد ما هو أحلى من الشباب ؟

عادت سوسن الى شرودها وقالت :

– نظـاجة .

– نعم يا روح نظاجة .

– من هـو أبى ؟

ـ لا تشغلى بالك يا سيدتى بهذه الأشياء التى لا لزوم لها ·

ـ هذه مسألة فى منتهى الأهمية بالنسبة لى · أريد أن أعرف كل شيء عن أبى وأريد أن أرى صورته ·

ـ مافات مات يا حبيبتى ، هذه أشياء راحت وراحت أيامها · أنت دائماً عاقلة ولم يحدث أن خطرت على بالك هذه الأشياء السيئة · لماذا تنبشينها الآن ؟

ـ الماضى لا يمكن أن يموت يا نظاجة ، من المغفل الذى قال ان الذى فات مات ؟

ـ أنا يا سيدتى ·

ـ بعض الناس يحاولون بناء جدار يخفى الماضى ، ولكن هذا الجدار من الممكن أن ينهار فيظهر الماضى ويراه الجميع · اسمعى يا نظاجة ·

استشعرت نظاجة أنها على وشك سماع شيء مثير فأرهفت السمع · استمرت سوسن قائلة بعد فترة صمت قصيرة :

ـ ذات يوم رأيت ماما فى غرفتها وفى يدها صندوق أسود صغير ، وعندما دخلت الغرفة أسرعت باخفائه فى الصوان · لماذا خبأته منى ؟ ترى ماذا فى هذا الصندوق ؟

ـ هل أقول لك ما يريح بالك ؟

ـ أجل يا نظاجة ، قولى ·

ـ عندما تدخل سيدتى الحمام تشجعى وادخلى غرفتها وفتشى فى المكان الذى خبأته فيه تجديه وافتحيه لترى ماذا فيه ، وأخبرينى عما ترين لأننى أنا أيضاً مشتاقة لمعرفته ·

ــ فكرة لا بأس بها ٠

في صباح اليوم التالى كانت سوسن فى غرفتها ومعها نظاجة وقد كفت عن نسج القصص التى تتحدث عن وحشية الرجال ٠ شعرت سوسن بنشوة غامضة لا تعرف لها سبباً فأخذت تغنى أغنية « قالوا لى الورد لون خدى » ، وفى أثناء الغناء همست نظاجة فى أذن سوسن قائلة :

ــ ستى سوسن ٠

فتوقفت سوسن عن الغناء ٠ قالت نظاجة :

ــ سيدتى الكبيرة دخلت الحمام ٠

ــ هل أقفلت بابه ؟

ــ أجل ، وهل تستحم وباب الحمام مفتوح ؟

ــ سأذهب الى غرفتها وأبحث عن الصندوق الأسود ٠

ــ هل أذهب معـك ؟

ــ لا ، سأذهب وحدى ٠

ــ سأنتظرك هنـــا ٠

دخلت سوسن غرفة نوم والدتها وقلبها يرتجف ٠

الصوان مغلق بالمفتاح ، ترى أين المفتاح ؟ أبحث عنه فى ذلك الدرج ٠ لا مفـاتيح فيه ٠ قد يكون فى الدرج الآخر ٠ لا توجـد مفاتيح فى هذا الدرج أيضاً ٠ أين تضع مفاتيحها ؟ قد يكون فى درج الكومودينو ٠ لا يوجد شىء أين خبأته يا ترى ؟ ليس من المعقول أن تكون أخذته معها الى الحمـــام ٠ قد يكون فى هذه الحقيبة الصغيرة ٠ انها مليئة بالمفاتيح ، ولكنها مفاتيح كبيرة الحجم ، أكبر من ثقب مفاتيح الصوان ٠ ها هو ذا مفتاح صغير ، أجربه فقد يفتح

الصوان . الحمد لله ، انه المفتاح المطلوب ، وها هو ذا الصندوق الأسود . ولكن الصندوق الأسود مقفل أيضا بالمفتاح ، كيف أعثر على هذا المفتاح ؟ لا داعي لفتح الصندوق الأسود ها هو ذا صندوق آخر ترى ماذا فيه هو أيضاً وكيف أفتحه ؟ انه مفتوح . ما هذا الشيء العجيب ؟

عثرت في الصندوق على صورة لوالدتها يرجع تاريخها الى سنوات عديدة مضت . أسرعت بوضع الصندوق في مكانه وأخذت الصورة وانطلقت تعدو نحو غرفتها فوجدت نظاجة فى انتظارها بلهفة . بادرت سوسن قائلة لها :

ـ ماذا وجـــدت ؟

أعطت الصورة لنظاجة قائلة :

ـ وجدت هذه الصـــورة .

أخذت نظاجة تفحص الصورة ثم تمتمت قائلة :

ـ غريبة . هل كانت والدتك راقصة ؟

قالت سوسن بدهشة :

ـ راقصة ؟! ما معنى هذه الكلمة ؟

ـ هذه صورتها وهي ترقص مرتدية ملابس الرقص .

اختطفت سوسن الصورة من نظاجة ونظرت فيها وقالت :

ـ أين هذه الملابس التى ترتديها ؟ انهــا لا تلبس شيئا تقريباً ، هل هذه صورتها فى الحمام ؟

ـ هذه بدلة الرقص يا سيدتى .

لم تفهم سوسن شيئا . قالت نظاجة :

ـ توجد كتابة على ظهر الصورة ، اقرئيها لى ، أريد معرفة المكتوب عليها .

قالت ســـوسن :

ـ مكتوب « كازينو النجمة مارس سنة ١٩٢٠ » ٠

غمغمت نظاجة قائلة بدهشة :

ـ النجمـــة ؟!

ـ أجل ، كازينو النجمة ، ما معنى كلمة كازينو يا نظاجة ؟

تفكرت نظاجة لحظة ثم قالت بعد أن عجزت عن ايجاد مرادف لكلمة « كازينو » :

ـ كازينو يعنى كازينو ، لست أدرى ماذا أقول يا سيدتى ٠

ـ أهو شيء حسن أم ردىء ؟

ـ انه المكان الذى يذهب اليه الرجال ليمتعوا أنفســـهم بالفرجة على أشياء حلوة ٠

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل سماع الغناء ورؤية النســاء وهن يرقصن ٠ أبوس رجلك يا سيدتى أسرعى بوضع الصورة فى مكانها حتى يمر اليوم على خير ٠ هيا قبل أن تخرج من الحمام ٠

هرولت سوسن ، ووضعت الصورة فى مكانها واخذت تبحث بسرعة فى أنحاء الصوان علها تعثر على صورة أبيها ، وبينما هى منهمكة فى البحث فوجئت بصوت أمها قائلة بهدوء :

ـ عم تبحثين يا سوسن ؟

قالت سوسن باضطراب وقد صفعتها المفاجأة

ـ أنا ؟ لا شيء يا ماما ٠

ـ هذه أول مرة اراك فيها تفتشين في صواني · ما الذى تبحثين عنه ؟

بعد لحظة تفكير قصيرة قالت سوسن :

ـ رغبت فى تزيين رقبتى بعقدك بضع لحظات وخجلت من ابداء هذه الرغبة لك ·

ـ هل يوجد من يخجل من أمه التى تحبه ؟ تعالى يا روحى البسك العقد بيدى واحتفظى به لنفسك فلست فى حاجة اليه · كل ما لدى ملك لك يا حبيبتى ·

ـ اشكرك يا ماما · اشكرك من صميم قلبى

ـ أنت أعز ما لدي ، ولن أرفض لك طلبا

بعد لحظة صمت أردفت قائلة وفى صوتها نبرة عتاب :

ـ عندما ترغبين فى أى شىء اطلبيه منى أنا وسوف البى طلبـــك ·

قالت سوسن وقد اطرقت الى الأرض خجلا :

ـ حاضر يا ماما ·

ـ واين وجدت مفتاح الصوان ؟

اشارت سوسن بيدها اشارة غير محددة قائلة :

ـ وجدته هنا ، فى الحقيبة الصغيرة التى فى الكومودينو ·

ظهر الألم فى نبرات صوت الأم وهى تقول :

ـ هل من اللائق يا سوسن أن تفتحى صوانى الخاص بدون اذنى ؟

قالت سوسن وهي مطرقة الى الأرض :

ـ سامحيني يا ماما . هل أغضبتك ؟

ـ انا لم أغضبك مرة واحدة في حياتي يا سوسن فلماذا تفعلين ما يؤلمني ؟ هذا الصوان خاص بي ولا أحب أن يفتحه احد حتى ولو كان أعز انسان .

طفرت الدموع من عيني سوسن وقالت وهي مطرقة الى الأرض :

ـ لن أفعل ذلك مرة أخرى .

أسرعت سوسن الى غرفتها فوجدت نظاجة في انتظارها وقد استبد بها القلق . ألقت سوسن بجسدها على الفراش وانخرطت في البكاء .. فزعت نظاجة وأخذت تربت على ظهر سوسن قائلة :

ـ لا تنكدي على نفسك يا حبيبتي . يقطعني ويقطع لساني انا السبب ، ليتني ما أشرت عليك بالذهاب الى غرفة ماما .

قالت سوسن وهي مختنقة بالبكاء :

ـ ماما حزينة جدا ولكنها لا تريد أن تبوح لي بذلك مسكينة ، لابد أن فتحي لصوانها دون اذنها آلمها ألما شديدا .

ـ هل رأت الصورة في يدك ؟

ـ لا ، لم ترها ، عندما رأتني في الغرفة كنت قد أعدت الصورة الى مكانها ، كنت في هذه اللحظة أفتش في الصوان ولما رأتني أفعل ذلك شحب لونها حتى خيل الى أن جسمها قد خلا من الدم . لقد نالت من أجلها ألما فوق طاقتي .

ـ هل علمت أنك رأيت صورتها ؟

ـ لا ، لم تعلم .

ـ الحمد لله ، هـذا هو المهم ، لو رأت الصـــورة فى يدك فربما ، لا سمح الله ولا قدر ، كان قد حدث لهـا ما هو أسـوأ من ذلك ·

ـ ولكن لماذا لم تقل لى أنها كانت راقصة ؟ قولى لى بالصراحة ، هل فى هذا ما يدعو للخجل ؟ فأنا طوال حياتى بين جـدران هذا البيت ولا أعرف أى شىء فى الدنيا خارج أسواره ·

ـ ما دامت قد أخفت عنك هذه الحقيقة فلابد أنها لا تحب أن تعرفيهـا ·

ـ هل هى شىء سيىء ؟

ـ لســت أدرى ·

لم تجد نظاجة اجابة عن هذا السؤال فقالت :

ـ لسـت أدرى ·

ـ ليتنى ما فتحت صوانها · ذهبت للبحث عن صـــورة أبى فاذا بى أعثر على صورة أمى !

ـ وما هذا العقد الجميل ؟ هل عثرت عليه فى أثناء البحث ؟

ـ لا ، ماما أهدته لى · أرأيت الى أى مدى هى طيبة ؟ لا نظير لها فى الدنيا فى طيبتها وحنانها ·

(١٥)

كان هشام جالسا مع صديقه زكريا فى أحد أركان مقهى يطل على البحر يقص عليه تفاصـيل مغامرته الأخـيرة الخطيرة ، وزكريا منصت اليه بدهشة وشفقة وخوف من المصير المجهول الذى يتربص به خلف كل شجرة وكل جدار فى ذلك القصر الرهيب الذى تكتنفـه المخاطر والأهوال ·

ـ أنا لا أصدق كلمة واحدة من هذا الكلام · هل من المعقو
ان تجازف بحياتك وتدخل بيت سوسن وتجلس معها وبعد كل هذا
تخرج سليما لا تنقص يدا ولا رجلا ولا دماغا ؟

ـ هأنذا أمامك سليما ·

ـ أحمد الله على سلامتك في هذه المرة ، ولكن اياك أن تحدثك نفسك الأمارة بالسوء بتكرار هذه العملة السوداء مرة أخرى ·

ـ بل سأكررها مرارا ، لابد ان أرى سوسن بأى ثمن ، حتى ولو كان هذا الثمن حياتي · هل ترغب في الذهاب معي وانتظاري خارج السور ؟

وما ذنبي انا ؟ انا شخص مشغول ولست خالي البال مثلك · لماذا لا تستفيد من ليسانس الحقوق وتعمل بالمحاماة لتجد ما يشغلك عن هذا الهواء ·· لماذا لا تكتب شيئاً او تقرأ شيئاً · اكتب قصة او رواية · كافح ، أمامك طريق طويل حتى تصبح مؤلفا شهيراً · لقد منحك الله الموهبة ولكن ينقصك المران المستمر وسعة الاطلاع · لا حلاوة بلا نار · لابد من التعب والعرق لتصل الى الهدف المنشود · اكتب كثيرا واقرأ أكثر · لاتضيع لحظة واحدة من وقتك · الدقيقة التي تهدرها الآن ستبكي عليها غدا · هأنت ذا قابلت سوسن وكلمتها فماذا استفدت وماذا ستكون النتيجة ؟

ـ سأتزوج منها · لابد ان أتزوج منها · أنا مصمم على ذلك ·

ـ نجوم السماء أقرب اليك ·· هذه البنت لن تتزوج أبدا · بعض الناس ، مثلك ، مغرمون بمحاولة الحصول على المستحيل وركوب الأهوال في سبيل الوصول الى أشياء لا أمل فيها على

الاطـلاق ، ويلتذون بمواجهة الأخطار التى تدمرهم • أنا متأكد من ان صعوبة الوصول الى هذه البنت واعتقادك ان الزواج منها صعب المنال هو الدافع الحقيقى لغرامك بها هذا الغرام القاتل • أقسـم انك لو كنت قد رأيتهـا فى الطريق لما استرعت انتباهك ، ولكن وجودها فى بيت تلتف حـوله الأسـوار العاليـة وتكتنفه الأسرار واعتقادك ان أمها تحول بينها وبين رؤية أى رجل وتصميمها على عدم زواجها ، هذه العوامل مجتمعة هى التى حركت عاطفتك نحوها بهذا الشكل القوى غير العادى •

ـ لا يـا زكريا ، انت مخطىء • تاكـد أننى لو كنت رأيت سوسن فى أى مكان وتحت أية ظروف لما اختلف شـعورى نحوها عما هو عليه الآن •

اطرق زكريا لحظة الى الأرض متفكراً ثم قال :

ـ هل تعرف شيئا عن أمها ؟

ـ لا •

ـ هل تعرف شيئاً عن أبيها ؟

ـ لا •

ـ ما رايك لو قلت لك ان تحرياتى الخاصـة تؤكد أن هذه البنت مجهـولة الأب •

ـ ماذا تعنى بقولك مجهوله الاب ؟

ـ ما اعنيه مفهوم وواضح •

ـ هذا لا يهمنى •

ـ وامها ، ماضيها مظلم وحاضرها بشع •

ـ وهذا أيضاً لا يهمنى · أنت حتى الآن تتحدث عن أبيهـا وأمها ، فهل أوصلتك تحرياتك الخاصة ومهارتك الفذة الى معرفة اى شىء عن البنت نفسها ؟ ·

ـ وماذا تنتظر من بنت أبوها مجهول وأمها بهذا الشكل ؟

ـ لا تظلم البنت بسبب ظروف لا يد لها فيها · ما ذنبها هى ؟

قال زكريا وقد نفد صبره :

ـ لا ، انت أمرك عجيب ، أنت حر ·· عقلك فى رأسك تعرف خلاصـــك ·

ـ اسمع يا زكريا ، أنت لم تجرب الحب ، الحب الحقيقى · من حب انســاناً فلا يهتم على الاطلاق بأية ظروف تحيط به · اننى أحب سوسن بكل جوارحى مهما كانت بشاعة أمها وحقارة أبيها · هذا هو الحب فى رأيى ·

ـ أجل ، الحب فى الروايات التى تكتبهـــا ، ولكنـه ليس الحب الذى تبنى عليه حياة عائليـــة مستقرة · اذا كان الحب فى حد ذاته غاية فلك أن تحب كمــا يحلو لك ، ولكن المصيبة هى أن الحب يقود الى المصير المحتوم ، الزواج · ولابـد مـن توافر شروط معينة للزواج حتى لا يصبح جريمة بشعة يظل الزوج مسئولا عنها طوال حياته وبعد مماته ·

ـ تأكد يا زكريا أن الحب الحقيقى لو وجـد فهو كفيـل بإرساء الحياة الزوجية على أمتن الأسس وأقوى الدعائم مهما كانت الظروف والأحوال ·

قال زكريا ساخراً :

ـ أبشع عيوب الحب أنه سريع الزوال · روحــه قصيرة ·

يومض ثم يختفى كضوء المنار ، وعلى الأخص لو كانت ظروف المحبوبة سيئة كظروف سوسن ٠

ـ فشل الحب آلاف المرات لا يبرر اليأس منه ، لابد من أن نمنحه كل مرة فرصة جديدة ٠ ومن طبيعة الحب غفران الذنوب ، وعلى الأخص تلك التى لا يد للانسان فيها ٠

ثم أردف هشام قائلا وقد نفد صبره :

ـ كفى ثرثرة ، اوجعت دماغى ٠

تمتم زكريا قائلا :

ـ الحق على ، مالى أنا ومال زواجك ٠ افعـــل ما يحـلو لك ولتذهب الى الجحيم ، فى سنين داهية ٠

(١٦)

كانت سوسن جالسة فى غرفتها تراجع دروسها ونظاجة جالسة على الأرض مستندة بظهرها على أحد الجدران محملقة فى سقف الغرفة تدور فى ذهنها افكار غير مريحة ٠

قلبى يحدثنى أن نهايتى ستكون بسبب هشام هذا الذى بدأ يحوم حولنا وينفذ من الأسوار ٠ ماذا يحدث لو اكتشفت سيدتى هذه الحقيقة المرعبة ؟ وماذا سيكون مصيرى ؟ سأختفى من الوجود ولا يعلم الذباب الأزرق مكانى ٠ هل اخبر أمها وأبرىء ذمتى من هذا الأمر الخطير ؟ ولكن شيئاً كهذا لن يكون وقعه عليهـا سهلا ، قد يخرجهـا عن طورها فتقتلنى فى ثورة الغضب ٠ ومن يدرى ، قد تقتل ابنتهـا أيضاً ٠ لا ، لن أخبرها سأكفى على الخبر ماجورا ٠

ربما لايحضر بعد ذلك · ولكن سوسن تسعد برؤيـاه ، والعجيب اننى انا ايضاً أصبحت أحب ان أراه · ولكننى اخاطر بحياتى فانا المسئولة عن سوسن · ماذا أصنع يا ربى ؟

بغتة توقفت سوسن عن القراءة والتفتت الى نظاجة قائلة وفي صوتها نغمة فرح :

ـ اليوم يوم الخميس يا نظاجة ·

افزعت المفاجأة نظاجة فانتفضت قائلة :

ـ لا يا سيدتى ، اليوم يوم الجمعة ·

قالت سوسن بثقة وتوكيد :

ـ بل اليوم يوم الخميس ، لقد حسبته بدقة ·

قالت نظاجة بلا مبالاة :

ـ الخميس او الجمعة كلها سواء ·

ـ لا ، الأيام لم تعد متشابهة كما كانت · سيحدث اليوم شيء مفرح جداً ·

ـ ماذا سيحدث يا سيدتى ؟ فرحينى فانا لم أفــــرح من مدة طويلة ·

قالت سوسن وعيناها تبتسمان :

ـ لن أقول لك · انا فرحانة ، فرحانة جداً

ـ ربنا يفرح قلبك ، فرحينى معك ·

ـ انه شيء يفرحنى أنا وحدى ·

ـ ما يفرحك يفرحنى ·

ـ ما يفرحنى هذه المرة قد لا يفرحك أنت ·

قالت نظاجة وقد بدأت تتوقع هبوب عاصفة :

ـ وهل هذا معقول ؟ إنا أعرف سبب ف[illegible]

قالت سوسن مبتسمة :

ـ ما هـــو ؟

ـ لابد أن والدتك أهدتك هدية حلوة كالعادة ٠

ـ لا ، انه شيء آخر غير هذا ٠

قالت نظاجه وقد اسرعت دقات قلبها :

ـ شيء آخر ؟ مثـــل ماذا ؟

ـ هشـــــام ٠

اضطربت امعاء نظاجة عندما سمعت اسم هشام وقالت :

ـ ما بـــه ؟

ـ سيحضر اليـــوم ٠

ـ سيأتى اليوم ؟ انها مصيبة ٠

ـ أرأيت ؟ ألم أقل لك انه شيء لايفرح به سواى ؟

قالت نظاجة وقد شـــعرت بحمل ثقيل من المسئولية يلقى على كتفيهـــا :

ـ ومن ادراك أنه سيأتى اليوم يا سيدتى ؟

ـ اتفقنا معاً على هذا الموعد ٠

غمغمت نظاجة قائلة

ـ أصبحت أشعر بقرب نهايتى ، وهل هذا شيء يفرح ؟

ـ لماذا أفرح عندما يأتى يا نظاجة ؟

قالت نظاجة بصوت مرتجف شاعرة بحنين لذكريات مضت :

لســـت أدرى ٠

ـ ان والدتي تبذل كل جهدها لتفرح قلبي ، ولكنني عندما جلست مع هشام شعرت بفرحة لم أشعر بمثلها في حياتي · لا ادري لماذا أحب التحدث معه ·

أوشكت نظاجة ان تلطم خديها وقالت :

ـ يا للمصيبة التي دقت على دماغك يا نظاجة ! ·

ـ اتركيني وحدي يا نظـاجة واذهبي لتنامي · ماما تقول ان النـــوم المبكر يجلب الصحة ·

ـ وانت يا سيدتي ، ألا ترغبين في هذه الصحة ؟ لماذا لا تنامين انـــت ؟

أنا لا أشعر برغبة لا في النوم ولا في الصحة ·

ـ ستنام ، وانت أيضاً ستنامين ، هيا معي · أنا متأكدة من انك تشعرين برغبة في النوم ·

سارتا نحو مبنى البيت · دخلت سوسن غرفتها واستبدلت بملابسها قميص النوم ثم استلقت على سريرها وراتها نظاجة تخفي كل جسدها ورأسها تحت الملاءة كما اعتادت أن تفعل ، فتركتها بعد أن تمنت لها نوماً هادئاً واتجهت نحو غرفتها ونامت ·

لم يغمض لسوسن جفن بل ظلت تنظر الى ساعتها من آن لآخر وكان عقاربها لا تتحرك · كان يخيل اليها ان العقارب قد سجلت مرور نحو نصف ساعة من الزمن ، ولكنها عندما تنظر اليها ترى ان كل ما مر لا يتعدى خمس دقائق ، وبعد أطول فترة مرت عليها في حياتها أشارت عقارب الساعة الى العاشرة والربع ·

باق من الزمن ربع ساعة ويحضر هشام ، ربما يكون الآن واقفا جنب الفتحة التي في السور في انتظار موعد الدخول · لابد أن

أسرع بالذهاب . أخشى أن يدخل فلا يجدني فيتوه في الجنينة ويظل تائها فيها طول حياته فالجنينة كبيرة طالما تهت فيها .

قامت من السرير بحرص قطة تسـير بين أوان من الخزف . سـارت على أطراف أصابعها وأطلت برأسها من باب غرفة نظاجة فوجدتها نائمة وقد علا شخيرها ، ثم سارت نحو غرفة نوم والدتها . شعرت بقلبها يدق بعنف . كان باب الغرفة مواربا ووالدتها نائمة على جانبها الأيمن وظهرها متجه نحو الباب . عادت الى غرفتهـا واستبدلت بقميص النوم أجمل رداء لديها وتسللت نحو السلم المؤدي الى الحديقة وأخذت تهبط درجاته .

نظرت الى السـاعة فوجدتهـا تقترب من العاشرة والنصف فسارت بين الأشجار حتى وصلـت الى المقعـد القريب من الثغرة . جلست متجهة بصرها نحو مبنى البيت لمراقبـة أية حركة بعينين منتبهتين كعيني طائر وأذنين مرهفتين كأذني خفاش تكادان تدركان صوت سريان الدم في عروقهـا . ومرت خمس دقائق وكأنهـا خمس ساعات ، ثم حانت منها التفاتة نحو الفتحة فلم تجـدها . لم تصدق عينيها .

شيء عجيب . كانت الفتحـة في هذا المكان بالضبط ، أيـن ذهبت ؟ ها هي ذي ، ولكنها أقفلت وظلت بلا طلاء ، ترى من الذي أقفلها ؟ لا أحد يعرف مكان هذه الفتحة سوى نظاجة . لابد أنها هي التي اقفلتها . لماذا أقفلتها هذه الملعونة ؟ كيف يدخل هشام ؟ .

كانت على وشـك البكاء عندما سمعت صوتاً من وراء السور يناديهـا :

ــ سـوسن .

نسيت خوفها وحرصها وصاحت قائلة وقد هزتها الفرحة :

ـ هشـــام ؟

ـ لم أستطع الدخـــول · الفتحة التى دخلت منها وجدتهـا مقفلة ·

ـ وكيف تدخل ؟ انا فى انتظارك منذ مدة طويلة

فى مثل ومض البرق خطرت لها فكرة ·

ساحضر له حبلا يستخدمه ليصعد الى السور ويهبط عندى · كنت قد رايت حبلا فى غرفة (الكرار) ساذهب لاحضاره · أدعو الله ان اجده فى المكان الذى رايته فيه ·

قالت لهشـــام :

ـ انتظرنى · ساحضر لك شيئا يمكنك من الدخول ·

وجدت الحبل فى مكانه فاخذته وأنطلقت تعدو باقصى سرعتها نحو المكان الذى كانت فيه ·

ـ احضرت حبلا طويلا سالقيه اليك من فوق السور · اربطه فى جذع الشجرة التى بالقرب منك واصعد الشجرة وهو فى يدك ثم الق به الى هنا وساربطه فى الشـــجرة القريبة من مكان الفتحة وعن طريق هذا الحبل يمكنك أن تهبط عندى ·

ـ ألقى بالحبل وسأجرب ·

حاولت القاء طرف الحبل عبر السور عدة مرات ولكنها باءت بالفشل فقالت :

ـ السور شديد الارتفاع ، لا أستطيع قذف الحبل ·

قال هشام شاعراً بيأس شديد وخيبة أمل ٠

ـ وماذا نعمل ؟

ـ خطرت لي فكرة ، ساصعد فوق الشجرة والقي به اليك ٠

أسرعت بتسلق الشجرة حتى وصلت الى قمتها ٠ قالت :

ـ هانذا عند قمة الشـــجرة ولكنني مع ذلك لا اســـتطيع رؤيتك فالسور شديد الارتفاع ٠

صاح هشام قائلا بغضب :

ـ ولماذا رفعوه كل هذا الارتفاع ؟

ضحكت سوسن وقالت :

ـ ليمنعوك من الدخول ٠

ـ القي الى الحبل بسرعة ٠

أدركت أنها ارتكبت خطأ جسيما فقالت :

ـ نسيت الحبل ملقى على الأرض ، ساهبط لأحضره ٠

ربطت الحبل حول وسطها وتسلقت الشجرة وقذفت بطرفه الاخر عبر السور وهمست قائلة :

ـ هل وجدت الحبل ؟

ـ أجـــل ٠

ـ أسرع بعمل ما قلته لك ٠

نفذ هشام تعليمات سوسن بدقة ، وفي خلال مدة لا تزيد على عشر دقائق وجد نفسه مع سوسن ٠ قالت :

ـ كنت أخشى الا تحضر ٠

ـ ولو أطعت قلبي لما فارقتك لحظة واحدة

قالت بدهشة :

ـ ولماذا لا تطيع قلبك وتبقى معنا هنا ؟ هيا بنا نذهب الى نهاية الحديقة ·

ساروا معا متشابكي الأيدي حتى وصلا الى أبعد مكان في الحديقة وجلسا متجاورين على مقعد خشبي يكاد يتوارى عن الأنظار خلف خميلة كثيفة الأشجار · قالت :

ـ هل ستبقى عندنا حتى لايتعبك تسلق السور ؟

ـ هذا مستحيل · لو رآني احد هنا قد تكون النتيجة سارة ·

ـ نظاجة تعلم ·

قال بدهشة :

ـ نظاجة ؟ من هي نظاجة هذه ؟

ـ مربيتي ·

ـ وكيف عرفت ؟

ـ أنا لا اخفي عنها شيئاً ·

ـ ووالدتك ، هل تعرف ·

ـ لا ، والدتي لا تعرف ·

ـ وماذا يحدث لو علمت ؟

ـ ستحزن حزناً شديداً ، ولذا لن اخبرها خوفاً عليها من الحزن ·

ـ اسعد لحظات عمري هي تلك التي اقضيها معك ·

ـ وأنا أيضاً ، أشعر بفرحة شديدة وأنا معك ولا أدري لماذا · كنت أجلس وحدي واغني للقمر والنجوم والفراشات ولكنني لم آكن

أشعر بالسعادة التى شعر بها الآن . انظر الى القمر ، ما أجمله ! . انه ينير لنا المكان لاستطيع رؤيتك .

– أنت أجمل من القمر وأجمل من كل شىء فى الدنيــا . عندما رأيتك شعرت بشىء غريب لم أشعر بمثله من قبل .

– وأنا أيضا شعرت بذلك الشعور منذ رأيتك أول مرة ، مع أنك رجل . أليس هذا عجيبا ؟ قبل أن أراك كنت أخاف من الرجال ، ولكننى عندما رأيتك أحببتك وأحببت أبى الذى لم أره .

قال هشام بدهشة :

– لم ترى أباك ؟

– لا ، لم أره ، كنت أتمنى أن أراه . ماما تحكى عنه حكايات مخيفة ، لكن ..

لم تكمل جملتها واطرقت الى الأرض فى صمت . قال هشام :

– ماذا تقول عنه والدتك ؟

– تقول ان شكله مرعب ، وانه كان يعذبها ، وهذا هو سبب خوفهــا عل من الرجال .

التزمت الصمت لحظات ثم التفتت اليه قائلة :

– هل رايت أباك ؟

– رأيته طبعاً . هل تعلمين من هو ؟

– مــن ؟

– هو الرجل الذى اشتريتم منه هذا البيت .

قالت سوسن وقد اتسعت عيناها دهشــة وانفرجت شفتاها فبدت رائعة الجمال :

ـ هل يعني ذلك ان هذا البيت كان بيتكم في يوم من الأيام ؟

ـ أجل ، كان بيتنا فيما مضى ، ولكن هذه الأسوار العالية لم تكن موجودة .

ـ وكنت تعيش هنا قبل أن نعيش نحن فيه ؟

ـ طالما لعبت في هذه الحديقة وأنا طفل صغير ، لم اكن اتصور أنني في يوم من الأيام سأدخله متزلقاً بواسطة حبل مثل !!

نظرت سوسن طويلا الى عيني هشام ثم قالت :

ـ عقلي لا يريد تصديق ما اسمعه منك ، ولكن لابد أنه صحيح . كم كانت سنك عندما كنت هنا ؟

ـ كانت سني نحو عشر سنوات عندما تركناه .

كانت سوسن تنصت الى حديث هشام بشغف شديد ، فقالت بلهفة :

ـ ولماذا تركتموه ؟

اطرق هشام الى الأرض مسترجعاً ذكريات قديمة ، ثم قال :

ـ كان أبي من الأثرياء ، ثم حدثت كارثة اطاحت بكل ثروته فاضطر لبيع هذا البيت لكم وانتقلنا الى بيت صغير نمتلكه في الاسكندرية . وبعد فترة قصيرة توفي والدي حزناً . وبعد عامين من وفاة أبي لحقت به والدتي ، وتركاني وحدي في الدنيا .

ـ هل تعيش بمفردك ؟

ـ أجل .

ـ ولا تجد من تكلمه ؟

ـ أتحدث مع عديد من الناس ولكنني لا أشعر بالسعادة الا عندما أتحدث معك ٠

ـ هل أنت حزين لأن ماما اشترت بيتكم ؟

ـ على العكس ، لو لم نبع هذا البيت لكم لما رأيتك ولما عرفتك ٠

ـ كيف ؟

ـ عندما كبرت كنت دائم الحنين لبيتنا هذا الذى أمضيت فيه سنوات طفولتى ، فكنت من آن لآخر أحضر لأراه وأدور حوله لأسترجع ذكريات الطفولة الجميلة ، فأنا من الذين يعشقون الذكريات ٠ وذات يوم ، منذ نحو عام اكتشفت تلك الفتحة الصغيرة التى فى السور ٠ نظرت من خلالها فرأيتك شعرت وكأن عينى آلة تصوير التقطت لك صورة وطبعتها فى ذهنى ثابتة لاتمحى ٠ منذ تلك اللحظة أصبحت أنت كل شىء فى حياتى ، ولم يعد لى فى الدنيا سواك وانتابنى احساس بأننى لم أعد وحيداً ، فصورتك فى خيالى تؤنسنى فى وحدتى ٠

كانت سوسن منصتة الى حديث هشام بمتعة ونشوة ، وتكاد تلتهمه بعينيها ٠ قالت له :

ـ كلامك حلو يشعرنى بالسعادة ٠ واصل الكلام ولا تسكت ٠

ولكن هشاما لم يجد ما يقوله فظل صامتاً ٠ شعرت سوسن بلذة لصمته لا تقل عن لذة حديثه ، فلقد أطلق صمته عنان تخيلاتها وأحلام يقظتها ٠ تخيلت نفسها تعيش معه فى كوخ بالقرب من قمة شجرة ، ثم رأت نفسها جالسة معه فوق سحابة تجوب الفضاء ،

ولكنها هبطت من الخيال الحلو الى الواقع اللذيذ عندما سمعته يقول :

ـ أسعيدة أنت في هذا البيت ؟

ـ كان يخيل الى أن رحيق السعادة الذى في جميع انحاء الدنيا قد وضع في اناء وقدم لى لأرتشف منه في أى وقت أشاء ، ولكنني بعد رؤياك أصبحت سعادتي في الجلوس معك وسماع كلامك . لم أسمع في حياتي كلاماً أحلى من كلامك .

ـ هل ترغبين في البقاء معي ولا يفترق أحدنا عن الآخر ؟

قالت بعينين مبتسمتين :

ـ اتمنى ذلك .

ـ هل تعلمين ماذا يصنع شاب وفتاة لا يريد احدهما الابتعاد عن الآخر ؟

قالت بشوق ولهفة :

ـ ماذا يصنعان ؟ يقفزان من فوق السور ؟

قال بعد فترة صمت قصيرة :

ـ لا ، بل يتزوجان .

قالت وقد شعرت بخوف لذيذ فالتصقت به بدلا من ابتعادها عنه :

ـ لا ، هذا غير ممكن ، لاتجعلنى أخاف منك .

قال بدهشة :

ـ ولماذا تخافين مني ؟

ـ ماما تقول أن الزواج شيء مخيف ، مرعب ، وجميع من في البيت يعتقدن ذلك ٠

ـ لا تصدقيهن ٠

ـ اذا لم أصدق الخدم فلابد أن أصدق ماما ٠

ـ ألم تقل لك والدتك ان منظر جميع الرجال مخيف ، فهل هذا مازال اعتقادك بعد لقائنا ؟

قالت بعد لحظة تردد :

ـ ولكنهن يقلن أن الرجال يتزوجون ليعذبوا النساء ٠ هل تريد تعذيبي ؟

قال بدهشـــة :

ـ هل من المعقول أن أحبـك كل هذا الحب وأعذبك ؟ لقـد خاطرت بحياتي بدخول منزلكم هذا لأسعد برؤياك ٠

ـ لكنهن يقلن ان الرجال يعذبون النساء بعد الزواج ٠

ـ يوجد رجال مجرمون ورجال طيبون ، كما يوجد نســاء مجرمات ونساء فضليات ٠ أبي ، مثلا ، كان رجلا فاضلا لم تخـرج من فمه طوال حياته كلمة واحدة تجرح مشاعر والدتي ٠ كانت عندما تمرض يشعر وكأنه هو المريض ٠ يحزن عندما تحزن ويفرح عندما تفرح ، ويوجد رجال كثيرون مثله ٠ أريد ان أثبت لك بالبرهان أن كل ما سمعته عن الرجال لم يكن صحيحاً ٠

ـ وكيف تثبت ذلك ؟

ـ سترين بعد زواجنا مقدار حبي واعزازي لك ٠

ـ أليس من الممكن أن نعيش معا بدون هذا الزواج ؟

ـ لا ، لابد من الزواج ٠

ـ ولكن ماما لا تريدنى أن أتزوج لأنها تحبنى حباً شديداً ٠

ـ وانا ايضاً أحبك ولا يمكننى الحياة بدونك ٠ لو لم اتزوجك سـاموت ٠

صـاحت قائلة :

ـ بعد الشر عنك ، لا أحب ان اسمع منك كلمة الموت

ـ الديك مانع من ذهابى الى والدتك لأطلب يدك ؟

ـ يدى ؟ ها هى ذى يدى ، خذها اذا كنت تريد ٠

ضـحك وقال :

ـ أطلب يدك معناها أطلب الزواج منك ٠

قالـت بفـزع :

ـ لا ، اياك أن تفعل ذلك ٠

ـ وماذا أفعـل اذن ؟

عصرت ذهنها متفكرة بضع لحظات ثم قالت

ـ لسـت أدرى ٠

وبغتة صاحت قائلة :

ـ غريبـة ٠

قال بخوف ولهفة :

ـ ماذا حـدث ؟

ـ طلع النهار دون أن نشعر ٠ ظننت القمر قد ازداد نـوره فاذا به ضوء الفجـر

ـ انتفض هشام واقفاً وقال :

ـ نسيت نفسي فلم أشعر بمرور الوقت . لابد من خروجي الآن .

قالت متشبثة به :

ـ لا تخرج . ابق معي .

ـ لابد من خروجي الآن ، ماذا يقلن لو رأينني هنا ؟

ـ وكيف تخرج ؟

ـ بالطريقة التي دخلت بها ، بالحبل .

ـ متى ستحضر ؟

ـ الخميس القادم ، في الموعد نفسه .

ـ لا تنس أن تفك الحبل المربوط في الشجرة خارج السور .

ـ حاضر .

عندما تأكدت من هبوطه بسلام جذبت الحبل وتسللت نحو مبنى البيت ووضعت الحبل في المكان الذي كان فيه . كان السكون سائدا ، لا صوت سوى زقزقة العصافير التي بدأت تصحو . ذهبت الى غرفتها على أطراف أصابعها . ارتدت ملابس النوم واستلقت على السرير وسحبت الملاءة فوقها ونامت .

ظلت الأم جالسة في البهو تنتظر استيقاظ سوسن وحضورها الى البهو لالقاء تحية الصباح كعادتها ، ولكن انتظارها طال فبدأت تشعر بشيء من القلق . مرت نظاجة بالبهو في طريقها الى الحديقة فسألتها الأم :

ـ أمازالت سوسن نائمة ؟

ـ أجل يا سيدتي . لست أدري لماذا تأخرت اليوم في الاستيقاظ على غير عادتها ، فهي أول من يصحو في البيت .

ـ الساعة الآن الحادية عشرة ، اذهبي وطمئنيني عليها ، أخشى ان تكون متوعكة .

لم تستطع الأم الانتظار حتى تعود نظاجة فقامت ولحقت بها . كانت سوسن مستسلمة لنوم عميق ولا أحد يعلم بماذا كانت تحلم . هزتها امها من كتفها قائلة :

ـ سوسن ، سوسن حبيبتي .

نادتها وهزتها عدة مرات اخرى فلم تستيقظ ، يئست الأم فقالت لنظاجة :

ـ اتركيها نائمة حتى تصحو من تلقاء نفسها .

وغادرت الغرفة عائدة الى البهو وجلست تحتسي فنجاناً من القهوة أحضرته لها عواطف . وما كادت تنتهي من احتساء القهوة حتى اقبلت نظاجة مهرولة وعلى فمها ابتسامة وقالت :

ـ ستي سوسن صحت من نومها .

زال التوتر الذي كانت تشعر به الأم عندما رات سوسن مقبلة مرتدية قميص النوم وقالت لنظاجة :

ـ أسرعي باعداد الفطور لـ

ذهبت نظاجة لاعداد الفطور وأقبلت سوسن نحو أمها تتثاءب . قالت الأم :

ـ لماذا نمت كل هذا النوم الطويل يا حبيبتي ؟

ـ لست ادري .

جلست بالقرب من أمها مطرقة الى الأرض ثم رفعت رأسها وقالت :

ـ ماما ·

ـ نعم يا حبيبتي

ـ أريد أن أطلب منك طلباً ، ولكن أخشى ان تحزني وتغضبي مني ·

وضعت الأم فنجان القهوة على المنضدة التي أمامها والتفتت نحو ابنتها باهتمام :

ـ اطلبي كل ما يخطر ببالك فلن أغضب منك أبداً ·

نظرت سوسن الى أمها بعينين متوسلتين قائلة :

ـ أريد أن أتزوج ·

كان هذا الطلب المفاجيء خارج نطاق توقعات الأم فشعرت بدوار خفيف قالت بدهشة :

ـ ماذا تقولين يا سوسن ؟ هذا مستحيل

أخذ صوتها يضعف تدريجياً وهي تردد الجم

ـ هذا مستحيل ، مستحيل ، أنا ···

لم تستطع اتمام الجملة فلقد مالت فوق الكنبة مغشياً عليها · فزعت سوسن فزعاً شديداً ولم تدر ماذا تفعل فهرولت في اتجاهات مختلفة صارخة :

ـ يا نظاجة ، يا عواطف ، يا مرجانة ·

ترامى الى سمعها وقع أقدام تقترب مسرعة · كانت نظاجة أول من وصل ، بادرتها سوسن قائلة وهي تبكي :

ـ الحقيني يا نظاجة ، ماما مغمى عليها ·

أقبلت عواطف ومرجانة وقد بدا الفزع في ملامحهن · هرولت نظاجة لاحضار زجاجة كولونيا بينما انحنت مرجانة تهز سيدتها لتفيق ولكن بلا جدوى ، وظلت سوسن واقفة تبكي · عادت نظاجة وفي يدها زجاجة الكولونيا ، نثرت منها بضع قطرات على وجه الأم مرددة هذه الكلمات :

ـ سلامتك يا سيدتي ، سلامتك يا سيدتي

(١٧)

عندما أفاقت الأم من غيبوبتها تذكرت ما قالته سوسن بدأت تبكي · قالت سوسن بصوت متهدج :

ـ لا تبكي يا ماما ، ماذا بك يا ماما ؟

نظرت الأم الى ابنتها بعينين دامعتين وقالت بصوت خافت ·

ـ لماذا تعذبينني يا سوسن ؟

انخرطت سوسن في البكاء والتزمت الصمت · ظلت عواطف طوال هذه الفترة محملقة بعينيها الواسعتين في وجه الأم ، وكان اشفاقها على سوسن أكثر من اشفاقها على أمها · أما مرجانة فكانت تغمغم بالفاظ غير مفهومة ، كعادتها ، وتخرج من الغرفة ثم تعود بلا هدف · قالت نظاجة :

ـ انها عين أصابتنا ·

ثم نظرت الى عواطف وقالت :

ـ أحضرى المبخرة من المطبخ ·

انطلقت عواطف تعدو لاحضار البخور · قالت نظاحة وكأنها تحدث نفسها :

ـ كنا سعداء ، اللهم اخزك يا شيطان

قالت مرجانة بلهجتها النوبية :

ـ الشيطان لا دخل له · سيدتى الصغيرة أغضبت سيدتى الكبيرة وسيدتى الصغيرة حزنت من أجل سيدتى الكبيرة

قالت الأم وفى صوتها رعشة عتاب ·

ـ سوسن ، سوسن ابنتى

قالت نظاحة بلهفـة :

ـ ما بها يا سيدتى ؟ ها هى ذى فى أحسن حال ·

قالت الأم بصوت متهـدج :

ـ سوسن ··

وأخذت تجفف دموعها فى صمت

تصاعدت رائحة البخور وسارت عواطف تحرك المبخرة حركة دائرية فى أنحاء البهو ومرجانة تسير خلفها مغمغمة ومحركة يديها حركات غريبة ، ثم وقفت عواطف أمام الأم وظلت تدير المبخرة فوق رأسها ومرجانة تواصل غمغمتها · قالت نظاحة دون أن تتوقف عن تحريك المبخرة :

ـ ماذا فعلت يا سيدتى سوسن ؟

ـ لم أفعل شيئاً ·

قالت الأم والألم ذائب فى كلماتها التى تبدو وكأنها محشورة فى حلقها :

ـ سوسن تقول لى انها

لم تستطع نطق باقى الجملة ، فظنت الخادمات محملقات فيها فى انتظار تكملة الحديث ، ولما طال انتظارهن قالت نظاجة :

ـ ماذا قالت يا سيدتى ؟

ـ قالت شيئاً مرعباً لم اكن أتصور أن يخرج من بين شفتيها ، تقول انها .. انها ..

قالت مرجانة وقد نفد صبرها :

ـ انها ماذا يا سيدتى ؟

استجمعت الأم قواها وقذفت الجملة من فمها وكأنها تبصقها : تريد أن تتزوج .

وانخرطت فى البكاء . فصاحت مرجانة قائلة بدهشة واستنكار :

تريد أن تتزوج ؟!

وقالت نظاجة : .

ـ هذا غير معقول .

ثم التفتت الى سوسن وسألتها :

ـ أحقيقة قلت هذا يا سيدتى سوسن ؟

قالت سوسن وهى مطاطاة الراس :

ـ اجل ، قلت ذلك ، ولكن لم اكن أتصور أن يسبب لماما كل هذا الحزن ..

قالت الأم وعيناها تدوران فى أنحاء المكان دون أن ترى شيئاً .

ـ بعد كل ما عملته طوال حياتي تأتي الآن سوسن وتقول لي انها تريـد أن تتزوج • سوسن ابنتي تريد أن تقتلني • تود أن تحرق قلبي • تريد أن تكون سبب عذابي • تريد ان تدخل جهنم باختيـارها •

ـ قالت مرجانة :

ـ تريد أن تتزوج رجلا ؟

قالت نظماجة :

ـ وهل ستتزوج سيدة يا غبيـة ؟

قالت مرجانة لسوسن :

ـ الرجال شكلهم قبيح يا سـيدتي • منظرهم كالعفريت كيف تعيش واحدة حلوة مثلك مع عفريت ؟ الرجال قلبهم أسود •

قالت الأم وقد بدأت تسيطر على اعصابها لتستبين غور أفكار ابنتهـا :

ـ ما الذي دفعك لهذا الطلب العجيب يا سوسن ؟ هل رأيت شيئاً في المنام ؟

ثم وجهت حديثها للخدم قائلة :

ـ انصرفن واذهبن لأعمالكن •

غادر الخدم البهو واتجهن نحو المطبخ • قالت سوسن :

أغاضبة مني يا ماما ؟

ـ لا يا حبيبتي ، بل حزينة من أجلك ، أريد لك حياة سعيدة لية من الأحزان ولا أريد أن يعذبك أحد • صارحيني يا حبيبتي ، يوجد في البيت ما يضايقك ؟

قالت سوسن وهي مطرقة الى الأرض :

ـ لا يا ماما ، لا يوجد ما يضايقني ٠

ـ لقد بذلت كل جهدي لاوفر لك كل أسباب السعادة في هذا البيت ٠ تعيشين كبنات الملوك ، خدم وحشم وعز وأبهة ٠ تقومين وتنامين على أكف الراحة ٠ ومنذ طفولتك ونحن نبصرك بحقيقة الرجال ٠ صنف الرجال يا حبيبتي غدار ٠ لا أمان له ، لا يتزوجون النساء الا ليلتذون بتعذيبهن ٠ لم أرفض لك أى طلب ، فعندما طلبت رؤية رجل أريتك رجلا لتعرفي بشاعة منظرهم ، ولكن الطلب الذي يضرك لا يمكنني تلبيته ، هذا مستحيل ٠

نظرت سوسن الى والدتها بطرف عينها وقالت :

ـ هل جميع الرجال يشبهون الرجل الذى فرجتني عليه ؟

ـ أجل ، جميعهم بهذا الشكل المرعب ٠

ـ ولكن الرجال يا ماما ليسوا جميعاً متشابهين ٠

قالت الأم بدهشة واستنكار :

ـ ليسوا جميعاً متشابهين ؟! من قال ذلك ؟

ـ رأيت رجلا آخر يا ماما غير الذي فرجتني عليه ٠

اعتقدت الأم أن سوسن تتحدث عن رجل رأته في المنام فقالت:

ـ وأين رأيتـــه ؟

ـ هنـا في البيت ٠

بدأت الأم تشعر بتفكك في مفاصلها واضطراب في دقـات قلبها ٠ قالت :

ـ هنا في البيت ؟ متى حدث هذا ؟

قالت سوسن تطمئن أمها :

ـ انه رجل لطيف ، لطيف للغاية يا ماما · لو رأيته ستحبين جميع الرجال كما حدث لى عندما رأيته ·

غمغمت الأم قائلة بصوت متحشرج وكأنها تحدث نفسها :

ـ رجل ، هنــا فى البيت ، شــكله لطيف ؟ أهذا معقول ؟ مستحيل ، لا تصدقى ذلك يا حبيبتى ، لا تصدقى ·

ـ كيف لا أصدق يا ماما اذا كنت رأيته بعينى وجلست معه وكلمنى وكلمته ، وكنت عندما أتحدث معه أشعر بفرحة لم أشعر بمثلها من قبــل ·

ـ مستحيل هذا مستحيل · من المستحيل أن يدخل البيت أى رجل · السور مرتفع ، شديد الارتفاع ·

ثم أخذت تضرب كفا بكف قائلة :

ـ تشعر بفرحة عندما تكلمه ! مستحيل ·

انخرطت الأم فى البكاء فقامت سوسن وجلست فى ركن البهو ناظرة الى أمها فى صمت · بعد فترة قصيرة تمكنت الأم من السيطرة على مشاعرها فمسحت دموعها وقالت :

ـ تعالى يا سوسن ، تعالى يا حبيبتى ، اجلسى جنبى هنا · قالت الأم محاولة أن تبدو طبيعية على الرغم من البركان الثائر في جمجمتها :

ـ أحقيقة ما قلته الآن يا حبيبتى أم رأيته فى المنام ؟

قامت سوسن ببطء وجلست جنب أمها مطأطئــة الرأس

قالت سوسن وقد شعرت بأن حملا ثقيلا كان جاثما على صدرها وأزاحته :

ـ ما قلته حقيقة يا ماما ولم يكن حلماً

ـ هل هذا معقول ؟

ـ أجل ، واسمه هشام ٠

ـ هشام ! وكيف دخل البيت ؟

ـ لست أدرى ، المهم أنه تمكن من الدخول ٠

قالت الأم بصوت حاد مرتفع :

ـ ومتى حدثت هذه المصيبة ؟

ـ منذ مدة طويلة ٠ فى بادىء الأمر كان يلقى لى بخطابات من وراء السور ، ثم جاء هو بنفسه ٠

صاحت الأم قائلة وقد تفجر غضبها :

ـ منذ مدة طويلة ! كل هذا كان يحدث فى البيت وأنا لا أدرى عنه شيئاً ٠

اخذت سوسن تربت على ظهر أمها قائلة :

ـ لا تحزنى يا ماما ، اطمئنى ، فهو لطيف جداً وعذب الحديث ٠

شعرت الأم وكأنها كانت تضع كل يوم فى خزانتها ما تستطيع جمعه من المال ، ثم اكتشفت بغتة سرقة خزانة نقودها ولا أمل فى العثور عليها ولا قدرة لديها على توفير أموال جديدة ٠ انها خيبة الأمل التى يحس بها هائم فى الصحراء ظمآن يبحث عن بئر ماء وعندما يصلها يجدها جافة ٠ وفى لقطات خاطفة كلقطات فيلم سينمائى يعرض بسرعة تفوق سرعته العادية أضعاف المرات ، رأت المجهود المضنى الذى بذلته لتعلية أسوار القصر والأحاديث التى

صبتها على مدى الأيام هى وكل من فى البيت فى إذني بسوسن لاثارة رعبها واشمئزازها من الرجال · رأت كل هذا وكأنه بحيرة ملأتها قطرات المطر عاماً بعد عام ثم تبخر ماؤها فى مثل غمضة عين وضاع فى الفضاء الفسيح ·

صاحت قائلة بسخريه :

– وتفرحين عندما يجلس معك ، اليس كذلك ؟ تفرحين !

– أجل يا ماما ، وجودى معه يفرحنى · تقولين انك تفرحين لفرحى ، فلماذا لا يفرحك فرحى هذا

قالت الأم فى ثورة غضب :

– لا ، لا ينبغى أن تفرحى عندما تتكلمين مع رجل · هذا لا يصح ·

ثم أردفت قائلة بنبرة هادئة وصوت خافت :

– أتوسل اليك يا سوسن من أجلى أنا أن تخافى وتحزنى لو كلمك أى رجل ، لابد أن تخافى · أجل لابد أن تشعرى بالحزن والألم والرعب لو تحدثت مع أى واحد من الرجال الملاعين · بقدر حبى لك اكرهى الرجال · من أجل خاطرى

– ولكن الرجل الذى رأيته يا ماما لا يخيف · ليتك ترينه · لو رأيته ستحبينه ·

شعرت الأم وكأن سهماً أصابها فى مقتل ، فصاحت قائلة :

– لا ، لا ، لا يمكن أبداً · هـذا غير ممكن · انه مجرم ، سافل ·

قالت سوسن بهده :

– لا يا ماما ، ليس مجرماً ، انه يحبنى ·

قالت الأم بسخرية :

ـ يحبك ؟ كل الرجال يدعون ذلك في بادىء الأمر ولكنهم جميعاً كذابون . اياك أن تصدقيهم .

ـ هل صدقته ؟

ـ لم أكن أود تصديقه ، ولكنني لست أدري لماذا صدقته .

ـ لا ، لا تصدقيه ، لا يمكن أبداً . اكرهيه . انه كاذب . لا أحد يحب البنت سوى أمها . كلهم كاذبون . يقولون مثل هذه الكلمات ليخدعوا البنات الأبرياء أمثالك .

شرد ذهن سوسن في عالم آخر غير عالم الأم . غمرتني بالنشوة فقالت :

ـ هل تتصورين يا ماما أنه أمسك يدي

صاحت الام قائلة بفزع :

ـ أمسك يدك ؟! ولماذا سمحت له بذلك ؟ ألم تخافي ؟ كيف لم تخافي منه عندما لمس يدك ؟

ـ لست أدري لماذا لم أخف ، بل شعرت بسرور وهو ممسك بيدي . لماذا يسر الانسان عندما يمسك يده شخص آخر ؟ هذا شيء غريب ، مع أنني أتضايق عندما تمسك بطانجة يدي

أخذت الأم تلطم خدها الأيمن بحركة هستيرية ، ثم تفرك يديها بعصبية صائحة :

ـ أمسك يدها ، أمسك يدها ، آه يانا ، آه يانا . وا مصيبتاه وامصيبتك يا منيرة في آخر الزمن .

فزع الخدم عندما سمعن صراخ سيدتهن فهرولن نحو البهو محدثة أقدامهن أصواتا مضطربة . كانت نظاجة أول من ظهر فى البهو وخلفها مرجانة ثم عواطف . قالت نظاجة بلهفة وهى تلهث :

ـ ما بك يا سيدتى ؟ سلامتك . ماذا حدث يا سيدتى سوسن ؟ لماذا تحزنينها كل هذا الحزن ؟

ـ أنا لم أحزنها مطلقاً ، هى التى تحزن من الأشياء التى تفرحنى .

اختنقت سوسن بالبكاء وظلت ناظرة الى أمها فى انتظار انحسار موجة غضبها فى حين أن الأم واصلت ضرب كف بكف قائلة :

ـ أمسك يدها . أمسك المجرم يدها .

ثم صاحت قائلة للخدم :

ـ كل هذا يحدث فى البيت وانتن غافلات . أين كنتن عندما دخل رجل وأمسك يد سوسن بعد الذى عملته طوال عمرى ؟ تكلمن . أين كنت يا نظاجة ؟

قالت نظاجة وجسدها يرتجف :

ـ أعدم عينى وعافيتى لو كنت رأيت شيئاً من هذا ؟

ـ ألم أطلب منكن عدم تركها وحدها لحظة واحدة منذ سمعتها وهى تكلم نفسها ؟

قالت سوسن بهدوء :

ـ لم أكن أكلم نفسى يا ماما بل كنت أتحدث مع هشام .

ذهلت الأم وتمتمت قائلة :

ـ غير معقول ! هل كنت تكلمين رجلا عندما سمعتك تتكلمين في الجنينة ؟ وأين كان هذا الرجل ؟ لماذا لم أره ؟

قالت سوسن ببساطة :

ـ كان مختبئاً خلف شجرة ٠

ـ مختبئاً خلف شجرة !؟ لقد زرعت كل هذا الشجر ليواريك عن عيون الرجال فتكون النتيجة أن يتوارى خلفه رجل !

ـ الشجرة التى توارى خلفها هشام ليست من الأشجار التى زرعتها يا ماما ، بل من الأشجار الكبيرة التى كانت فى البيت قبل أن نسكنه ٠

انسحبت سوسن وجلست فى المكان الذى كانت جالسة فيه فى ركن البهو وأخذت تستعيد فى ذاكرتها شريط مقابلتها لهشام وحديثها معه ٠٠ وتحسب الأيام الباقية لرؤياه ولم تعد تشعر بوجود أمها التى تفصد العرق من وجهها وبدت حائرة العينين تديرهما بذهول فى أنحاء البهو دون أن تستقر على مكان معين ٠

(١٨)

فى المساء ، كانت سوسن مستلقية على الفراش فى غرفة نومها ونظاجة جالسة على كرسى بالقرب منها تتحدثان معا ، كالعادة ، قبيل النوم ٠ قالت نظاجة :

ـ لم يكن من المستحسن ذكر أى شىء لوالدتك عن لقائك بهشام ، لقد رأيت ماذا فعلت بنفسها عندما علمت بذلك ٠ انها ما زالت تبكى حتى الآن ٠

ـ لم أستطع اخفاءه عنها ، فأنا أريد الزواج من هشام ٠

ـ أما زلت تتحدثين عن الزواج من هشام ؟ لست أدرى من اية داهية أتى هذا الرجل ٠ كنا فى راحة وسعادة قبل أن تهوى على رءوسنا هذه المصيبة ٠

ـ ولكنه رجل لطيف يا نظاجة ، ليس سيئاً كالرجال الذين تحكون لى عنهم ٠ لست أدرى ماذا أفعل ، أريد الزواج منه ولكننى لا أحب أن أغضب ماما ٠

ـ هذا مستحيل ، اختارى واحدة من الاثنتين ٠ وعلى أية حال لن تسمح والدتك على الاطلاق بزواجك منه ، فأخرجى هذا الموضوع من دماغك حتى لا تكونى سبباً فى موتها من الحزن ٠

ـ كنت أظن أنها ستفرح لفرحتى ٠

ـ مامتك يا حبيبتى قضت سنوات وسنوات ترتب وتوضب لتبعدك عن صنف الرجال وتبعدهم عنك وتشحن قلبك بكراهيتهم فهل من المعقول بعد كل هذا أن تسمح بزواجك ؟

ـ ولكن يا نظاجة ليس كل الرجال سيئين ٠ ان هشاما ، لو أنه رجل ، الا أنه طيب وجميل وحنون ، أحسن من جميع السيدات اللاتى رأيتهن ٠

ثم تداركت الأمر فأردفت قائلة :

ـ ما عدا ماما طبعاً ٠

ـ أستحلفك بالله يا حبيبتى أن تصرفى النظر عن مسألة الزواج هذه اذا كنت حقيقة تحبين والدتك ٠

ـ اننى أحب ماما حباً شديداً ، ولكننى فى الوقت نفسه أريد الزواج من هشام ، وهذا يعذبنى ٠

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ألا نجنى من هؤلاء الرجال سوى تعب القلب ؟

ـ ولكن قلبى يفرح عندما أرى هشاما ٠ أظل أنتظره وأعد الأيام حتى أراه ٠

ـ نامى يا سيدتى سوسن ، نامى ٠

ثم نظرت نحو سقف الغرفة ورفعت يديها وأردفت قائلة :

ـ نجنا يا رب من هذه الكارثة ٠

ما لبثت سوسن أن استغرقت فى نوم عميق ، فغادرت نظاجة غرفة نوم سوسن وبحرص شديد أغلقت بابها وسارت على أطراف أصابعها متجهة نحو غرفتها المجاورة لغرفة سوسن ٠ استلقت فى سريرها ولم تدر متى غلبها النوم ، ولكنها شعرت بيد تهز كتفها وصوتا هامساً يقول :

ـ نظاجة ، نظاجة ٠

انتفضت نظاجة قائلة بفزع :

ـ نعم يا سيدتى ٠

ـ بدت الأم ، وهى مرتدية قميص نومها الأبيض الطويل ، لعينى نظاجة وكأنها شبح شاحب الوجه فقفزت من فراشها ووقفت جنب السرير تفرك عينيها وقد أسرعت دقات قلبها ملتزمة الصمت فى انتظار معرفة سبب وجود سيدتها فى غرفتها ٠ لم تكن تعلم كم مضى من الوقت وهى نائمة ولكنها من خلال النافذة رأت الحديقة غارقة فى الظلام ٠ بادرتها سيدتها قائلة :

ـ هيا معى نوقظ عواطف ومرجانة ·

ازداد رعب نظاجة وقفز الى ذهنها حادثة اختفاء بركة فقالت بصوت مرتجف :

ـ ماذا حدث يا سيدتى ؟

ـ أشعر بوجود رجل فى البيت ·

قالت نظاجة بخوف ودهشة :

ـ رجل فى البيت ؟!

ـ أجل · يوجد رجل فى البيت ·

سارتا معاً وساقا نظاجة لا تقويان على حملها · دخلتا غرفة عواطف ومرجانة ·

قالت السيدة :

ـ عواطف ، مرجانة ·

انتفضت عواطف واقفة وهبطت مرجانة من سريرها · بدت مرجانة هادئة فى حين ارتعش جسد عواطف والتزمنا الصمت · قالت الأم :

ـ يوجد رجل هنا ، فى البيت ·

صفعت مرجانة خدها قائلة :

ـ رجل فى البيت ؟ يا للمصيبة ! ·

كادت عواطف تنهار فاستندت الى السرير قائلة بصوت ضعيف :

ـ رأيت رجلا هنا يا سيدتى ؟

ـ لا ، سمعت صوته ·

قالت مرجانة متعجبة :

ـ ومن أين دخل يا سيدتى ؟

ـ لست أدرى · دخل كما دخل الرجل الذى تحكى عنه سوسن · قلبى يقول لى انه هو ذلك الرجل المسمى هشام ، هيا نبحث عنه ·

قالت عواطف وقد فشلت فى السيطرة على الرعشة التى سرت فى جسدها :

ـ وأين نبحث عنه يا سيدتى ؟ البيت كبير والحديقة واسعة والدنيا ليل ، لو اختبأ فى مكان فلن نعثر عليه ·

قالت الأم باصرار :

ـ لابد أن نعثر عليه لتكون هذه آخر ليلة فى عمره ·

تمتمت مرجانة بكلام غير مفهوم ، ثم سرن معاً فى حذر شديد· لم يتركن غرفة فى البيت دون فحص وبحث ، حتى غرفة سوسن فتشنا وتظرن تحت السرير ·

قالت مرجانة :

ـ لم يبق سوى الجنينة ·

قالت نظاجة بخوف ولهفة :

ـ لا يمكن أن نعثر عليه فى الجنينة ·

قالت مرجانة :

ـ الجنينة كبيرة جداً يا سيدتى ، العفريت الأزرق لا يمكنه العثور عليه فيها ·

قالت عواطف :

ـ قد يكون مسلحاً يا سيدتى فيعتدى علينا مدافعا عن نفسه ٠

ـ قالت الأم بحزم وتصميم :

ـ سنبحث عنـه فى الحـديقة ٠

ظللن يجبن أنحاء الحديقة فى خوف وحذر ٠ كانت عواطف فى أثناء جولانها تتوقـع فى أية لحظة أن ينقض عليها رجل من فوق احدى الأشجار أو يهوى على رأسها بمطرقة وطافت بذهنها فكرة أرعبتها خشيت أن تخور قواهـا فيتركنها وحدهـا فى الحديقـة الواسعة فسارت معهن تجر ساقيها ٠ قالت مرجانة :

ـ هل سنظل نبحث عنه حتى الصباح يا سيدتى ؟

وقالت نظاجة :

ـ وماذا تقول سيدتى سوسن لو صحت من نومها ولم تجـد أحدا فى مبنى البيت ؟

قالت الأم وكأنها متأكدة مما تقول :

ـ سوسن نائمة ولن تصحو الا فى الصباح ٠

تمتمت عواطف قائلة :

ـ النهار أوشك أن يطلع ٠

شـعرت الأم بارهـاق شديد فتوقفت عن المشى وبدا وجهها مكفهر تطل منه عينان كعينى نمرة أفلت منها صيد ثمين فقالت وفى صوتها حشرجة :

ـ لن أيأس من العثور عليه ، سيقع فى يدى يوماً ما ٠

قالت مرجانة :

- أليس من الممكن أن يكون ما قالته سيدتي سوسن مجرد حلم ؟

تجاهلت كلام مرجانة وقالت :

- لن يفلت من يدى . ان لم يكن اليوم ، فغدا .

عدن الى البيت ، وما لبثت مرجانة أن نامت بعد بضع دقائق ، أما الأم ونظاجة وعواطف فلم يغمض لهن جفن حتى الصباح .

كانت الأم جالسة وحدها في البهو عندما أقبلت نحوها سوسن قائلة :

- صباح الخير يا ماما .

- صباح الخير يا روحى . اجلسى جنبى .

جلست سوسن جنب أمها فاحتضنتها وباستها وربتت على ظهرها متظاهرة بالهدوء وفى أعماقها حزن يلذعها . قالت :

- هل نمت نوماً مريحاً يا حبيبتى ؟

- رأيت هشاما فى المنام ، كنا جالسين معا على دكة بالقرب من حمام السباحة . مرقت من أمامنا فراشة ، وبينما أتابعها ببصرى وأتأمل جمالها رأيتك واقفة بالقرب منا . خفت أن تحزنى لوجود هشام ، ولكننى وجدتك تبتسمين وتقولين لى : « هل هذا هو هشام ؟ » قلت « أجل يا ماما . انظرى كم هو لطيف » ، قلت لى : « انه حقيقة لطيف ، لم أكن أتصور ذلك » . وسألتينى اذا كنت راغبة فى الزواج منه فقلت اننى أتمنى ذلك ، فقلت لى : « ما دامت هذه رغبتك فسأحققها لك ، فلتتزوجا » . فقمت وظللت أبوسك حتى صحوت من النوم . ما رأيك فى هذا الحلم يا ماما ؟

قالت الأم وقد تقلصت عضلات وجهها :

ـ هلاوس ، انها هلاوس يا حبيبتى • أما زلت تفكرين فى هذا الرجـل ؟

ـ أفكر فيه غصباً عنى يا ماما • لقد حزنت عندما صحوت من النوم واكتشفت أنه لم يكن سوى مجرد حلم • حاولت النوم من جديد لأراه فلم أستطع •

ـ اسمعى يا حبيبتى •

ـ نعـم يا ماما •

ـ أتحبيننى أم لا تحبيننى ؟

ـ أحبك جداً يا ماما •

ـ هل يرضيك أن تعملى عملا يعذبنى ؟

ـ لا يا ماما ، أنا لا أحب أن أكون سبب عذابك •

ـ ولكن كلامك هذا يعذبنى •

ـ ما دام كلامى عن هشام يعذبك فلن أذكر لك أية كلمة عنه بعد اليوم ، سأتكلم مع نظاجـة •

ـ لا تتحدثى عنه لا لى ولا لنظاجة • اطردى من دماغك هذه الأفـكار •

ـ حاولت أن أطردهـا من ذهنى فلم تطعنى • لا تريـد أن تخرج ، فماذا أصـنع ؟

ـ الزواج عذاب يا حبيبتى والرجال غدارون ، هل ترغبين فى تعذيب نفسـك وتعذيبى ؟

تأكدى أنك لو فى يوم من الأيام ، لا سمح الله ولا قدر ، تزوجت فسيكون آخر يوم فى حياتى ، لن أستطيع الحياة وأنا أراك

تتزوجين وتعذبين . أريد أن أراك سعيدة كما كنت طوال حياتك قبل رؤيتك لهذا المجرم .

– قالت سوسن وقد بدأت تختنق بالبكاء :

– لكن يا ماما لو أن ربنا لا يرغب فى تعذيبك فلماذا يضع فى ذهنى هذه الأفكار ؟ أنا لا أريد لك العذاب .

– هل يهون عليك عمل شىء يكون سبب موتى ؟

– بعد الشر عنـك يا ماما ، لا تقولى هذه الكلمة . عنـدما أسمعها منك أحس بأن قلبى يعتصر .

لم تستطع سوسن مقاومة البكاء فانهمرت دموعها من عينيها . قالت وصوتها يقطعه البكاء .

– أريد أن أعمل ما يفرحك ، لكن توجد أشياء خارجة عن ارادتى لا أستطيع التغلب عليها، ولو لم أتزوج من هشام فسأموت.

استمرت فى البكاء ، فأخذت والدتها تربت على ظهرها قائلة :

– كفى بكاء يا حبيبتى . اذا كنت تحبيننى فلا تبكى .

– حاضر يا ماما . لن أبكى .

ولكنها انفجرت باكية ، فقالت بصوت متقطع :

– لا أستطيع منع البكاء . اننى على الرغم منى أسبب لك حزنا ، لكننى أحبك .

(١٩)

بعد ثلاثة أيام ، عندما دخلت مرجانة المطبخ وجدت عواطف منزوية فى أحد الأركان تبكى ، سألتها عن سبب بكائها فقالت :

– أبكى من أجل سـيدتى سوسن ، انها لا تكف عن البكاء

طوال النهار والليل . قلبى ينفطر من أجلها . البنية تريد أن تتزوج فلماذا تقف أمها فى طريقها ؟ لماذا لا تزوجها ؟ كانت كالوردة فاصبحت كالليمونة . لماذا هذه القسوة ؟

ـ اسكتى أنت ، لا شأن لك بهذا . هل يهمك مستقبلها أكثر مما يهم أمها ؟ لو سمعت كلامك هذا لقصفت عمرك .

ـ وأين هو مستقبلها هذا ؟ هل ستبقى طوال حياتها فى هذا السجن ؟ كانت فيما مضى صغيرة لا تعرف شيئاً ، ولكنها كبرت وبدأت تشعر بالحب ، فهل ستعيش وتموت هنا ؟

ـ وهل تعتبرين هذا البيت سجناً ؟ انه جنة . لا يمكن أن تكون الجنة أجمل منه .

ـ وما فائدة الجنة اذا ظل الانسان يبكى فيها . هذا البيت كتفاحة بداخلها دودة ، حلوة من الخارج ومعطوبة من الداخل .

ـ كانت سعيدة وفرحانة قبل مجئ هذا الذى يدعى هشام . هكذا الرجال اذا هبطوا فى مكان أفسدوه وحولوه من جنة الى نار .

ـ ستى الكبيرة هى السبب ، لماذا تعذب ابنتها كل هذا العذاب . هذا الشاب لم يرتكب أى ذنب ولم يفعل ما يستحق عليه العقاب . انه يحب سوسن ويريد أن يتزوج منها .

تلفتت مرجانة الى جميع الجهات ثم همست قائلة :

ـ احذرى الاسترسال فى هذا الكلام حتى لا تحفرى قبرك بلسانك .

بعد يومين انزعجت الأم عندما رأت ابنتها جالسة تبكى فوق مقعد خشبى فى أحد الأركان المهجورة بالحديقة . قالت :

ـ أمازلت تبكين يا سوسن ؟

قالت سوسن وهى تمسح دموعها :

ـ لا يا ماما ، أنا لا أبكى ، أنا فى غاية السعادة .

ـ ولكننى أراك غير سعيدة .

ـ لا أمل لى فى الدنيا سوى رؤيتك سعيدة ، ولهذا أحضرت لك شيئاً يفرحك .

فتحت الأم علبة صغيرة مغلفة بالقطيفة وقدمتها لابنتها قائلة :

ـ ما رأيك فى هذا القرط ؟

نظرت اليه سوسن نظرة خاطفة ثم أخذت العلبة وأقفلتها ووضعتها جنبها على المقعد وقالت :

ـ حلو .

ـ يبدو أنه لم يعجبك .

ـ كل ما تعطينه لى يعجبنى ، ولكن لدى أشياء كثيرة لا أستعملها .

ـ ولماذا لا تستمتعين بها ؟

ـ لأنها كثيرة ، لا أدرى ماذا أختار منها .

ـ لا توجد بنت فى الدنيا لديها كل هذه الأشياء الحلوة الغالية الثمن ، لو عند بنت غيرك أصبحت أسعد فتاة فى الدنيا .

ـ لكن فى قلبى حزناً يا ماما .

قالت الأم بانزعاج :

ـ سلامة قلبك يا حبيبتى ، ولماذا هذا الحزن ؟

ـ أخشى أن تحزنى مرة أخرى لو أخبرتك عن سبب حزنى .

ثم أردفت قائلة وقد فاضت دموعها وارتجف صوتها :

ـ ٠٠ وأنا لا أريد أن أسبب لك أى حزن ٠

قالت الأم وكأن يدا تضغط على خلايا مخها :

ـ أما زلت تفكرين فى هذه الأشياء السيئة ؟

ـ لابد ان ربنا لا يحبنى ٠

قالت الأم بدهشة :

ـ ربنا لا يحبك ؟ لماذا تقولين هذا يا حبيبتى فأنت طوال حياتك لم تفعلى ما يغضب الله ٠

ـ لأننى طوال الليل أدعو الله أن يمنعنى من التفكير فى هشام لئلا تحزنى ، ولكننى ما زلت أفكر فيه ٠ كلما حاولت نسيانه أجد نفسى أزداد تذكرا له وتفكيرا فيه ٠

ثم قالت وهى تجهش بالبكاء :

ـ لماذا يريد ربنا تعذيبى وأنا لم أرتكب أى ذنب ؟ اننى أذهب لأنام لأبعد نفسى عن التفكير فيه فأراه فى الحلم جالسا معى ٠

جلست الأم على حافة المقعد جنب سوسن وأخذت تربت على ظهرها قائلة بحنان :

ـ أنت يا روحى التى تعذبين نفسك ، لا تعذبى نفسك هكذا ٠ أكل هذا من أجل رجل خائن وغدار لا أمان له ؟ انسيه يا حبيبتى ٠ سوف تنسينه وتعودين سعيدة كما كنت ٠

ـ صلى يا ماما وادعى ربنا أن أنساه فقد يستجيب لدعائك أنت ٠ لا أريد أن أسبب لك أى حزن ، ولكننى عاجزة عن ذلك ٠

في مساء ذلك اليوم كان هشام جالساً في شرفة منزله شارد الذهن ناظراً الى النجوم يفكر في سوسن . وبجواره يجلس صديقه زكريا الذي ظل ملتزماً الصمت مدة طويلة ثم التفت الى هشام وقال :

ـ كم وجـدتها ؟

ـ وجدت ماذا ؟

ـ النجوم · منذ أكثر من ساعتين وأنت محملق في السماء ، لابد أنك تعـد النجوم ·

ـ أنت خالي البال يا زكريا ، اتركني وشاني ·

ـ لا ينبغي أن يكون الحب سبباً في هذا النكد الى هذا الحد · ما الذي يحزنك الآن ما دمت تزور المحبوبة وتجلس معها ؟ ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

ـ هل تتوقع أن اظل طوال حياتي أتسلق الأسوار لرؤيتها ثم العودة للجلوس معك ؟ لست أدري ماذا ستكون نهاية كل هذا ؟

ـ نهاية سوداء · يبدو أنني عن قريب سأقف لأتقبل العزاء فيك وفيم كنت تفكر الآن ؟

ـ أفكر في عمل حبل على هيئة سلم لأصعد السور واهبط منـه بسـهولة ·

ـ ذنبك على جنبك · لو رآك أحد وأنت تصعد السور بهذه الوسيلة وأطلق عليك الرصاص فلن يلومه أحد · الا تشعر أن هذا تصرف لصوص ؟

ـ أنا لا أشعر الا برغبتي في رؤيتها ·

ـ أنت الجاني على نفسك ·

نظر زكريا الى ساعته فوجدها تقترب من الثانية صباحاً ، فانتفض واقفاً وغادر منزل هشام وتركه محلقاً في النجوم سابحاً في ملكوت السماء شاعراً بشيء من الشقاء العذب .

في نحو العاشرة صباحاً كانت سوسن جالسة على الحشائش تحت شجرة مانجو ضخمة وبالقرب منها تجلس نظاجة . كان الحزن يكسو وجه سوسن والدموع تترقرق في عينيها . قالت :

ـ نظـاجة .

ـ نعـم يا حبيبتي .

ـ لو مت ، هل أذهب الى الجنة ؟

فزعت نظاجة من كلمة الموت فقالت :

ـ ان شاء الله بعد عمر طويل ستذهبين الى الجنة .

ـ ولو ذهبت الى الجنة وطلبت شيئاً فهل يتحقق طلبي ؟

ـ وماذا ستطلبين بعد عمر طويل ؟

ـ هل يوجد زواج في الجنة يا نظاجة ؟ أقصد لو طلبت من ربنا أن يزوجني من هشام في الجنة فهل يستجيب لرجائي ؟

ـ ربما ، من يدري .

ـ ساصعد الى قمة أعلى شجرة في الحديقة وأقذف بنفسي الى الأرض لأموت .

شحب وجه نظاجة وقالت بفزع :

ـ بعد الشر عنك يا حبيبتي . وهل هذا كلام تقولينه ؟

تفكرت سوسن قليلا ثم قالت :

ـ ولكننى أخشى أن تحزن ماما لو فعلت ذلك وأنا لا أحب أن اسبب لها أى حزن ، وسيحزن هشـــام ، وهو أيضــآ لا أحب أن يحزن · لا أحب أن أحزن أحدا ، ولكننى لا أريد أن أعيش ·

ـ بل ستعيشين وتتمتعين بالدنيا · هل تهون عليك نفسك؟

ـ فرحى يحزن ماما وموتى يحزن الناس ، لست درى ماذا أفعـــل ·

قالت نظاجة بدهشــة :

ـ فرحك يحزن ماما ؟ وهل هذا معقول ؟ ماما تتمــنى لك الفرح والسعادة طوال عمرك · لا أمل لها فى الحياة سوى هذا ·

ـ ولكن توجد أشياء تفرحنى وتحزنها هى ، وأنا أحب ماما ولا أحب أن تحزن ·

ـ انسى الهم ينسك يا سيدتى ·

ـ لا أستطيع نسـيانه ·

كانت الأم جالسـة فى البهو ومرت من أمامها عواطف متجهة نحو غرفة النوم لتنظيفها وترتيبها · قالت الأم :

ـ أين سوسن يا عواطف ؟

ـ مع نظاجة فى الجنينـة ·

فى هذه اللحظـة أقبلت نظاجة نحو المبـنى تعـدو فى رعب شديد ، قفزت درجات السلم الخارجى واقتحمت البهو صائحة :

ـ سيدتى · سيدتى ، ستحدث مصيبة ·

انتفضت الأم واقفة وقد اضطربت دقات قلبها وشعرت بألم فى صدرها · قالت :

ـ ماذا حدث ؟

ـ سيدتي سوسن ٠

قالت بلهفة :

ـ ما بها ؟

ـ تسلقت الشجرة وتريد أن تلقي بنفسها على الأرض ٠

انطلقت الأم تعدو ونظاجة تعدو أمامها لترشدها الى المكان ٠ وقفتا أمام الشجرة تلهثان ٠ قالت الأم وصوتها متحشرج بالبكاء :

ـ سوسن ٠

انبعث من أعلى الشجرة صوت سوسن قائلة بنبرة حزينة :

ـ نعم يا ماما ٠

بصوت مرتجف قالت الأم :

ـ ماذا تعملين فوق الشجرة يا روحي ؟

قالت سوسن وهي على وشك البكاء :

ـ سأقفز من فوق الشجرة ، لو مت فلا تحزني من أجلي فأنا لا اريد أن تحزني ٠

ـ أيهون عليك يا حبيبتي أن تحرقي قلب أمك التي تحبك ٠ لو ألقيت بنفسك من فوق الشجرة سأموت على الفور ، فهل تريدين موتي يا سوسن ؟

بكت الأم ، فقالت سوسن :

ـ بعد الشر عنك يا ماما ٠ أنا التي أريد أن أموت ، الا تحبين لي الراحة ؟ لو مت سارتاح ، لست أدري لماذا يحزنكم الشيء الذي يفرحني ٠

قالت الأم مستعطفة :

ـ انزلى يا حبيبتى وسألبى جميع طلباتك . انزلى يا روحى من فوق الشجرة . ألا تشفقين على أمك التى تضحى من أجلك دائماً ؟

ـ أنا أيضاً أريد ان أضحى من أجلك ، وما دامت رغباتى تسبب لك حزنا فسألقى بنفسى من فوق الشجرة .. ستحزنين من أجلى فترة ، ولكن بعد سنة أو سنتين ستنسينى .

ـ من المستحيل أن أعيش بعدك دقيقة واحدة . حياتى مرتبطة بحياتك فلا معنى لحياتى ولا قيمة للدنيا بدونك . لا تحرقى قلبى يا حبيبتى .. تعذبت كثيراً فلا تزيدى عذابى . سأحقق لك جميع رغباتك . سأضحى بكل شىء من أجلك . اذكرى لى طلباتك وسأحققها لك على الفور .

ـ انت تعلمين طلباتى يا ماما .

ـ سأزوجك من هشام الذى لم أره حتى الآن ولا أعرف عنه شيئاً .

خرجت هذه الجملة من فم الأم وكأنها اعتراف متهم انتزع منه تحت تهديد السلاح . صاحت سوسن قائلة بفرحة :

ـ أحقيقة ستزوجيننى من هشام ؟

ـ أجل يا روحى ، هيا انزلى من فوق الشجرة وتعالى نتحدث معاً .

شعرت سوسن وكأن الحياة قد بدأت تسرى فى جسدها فقالت وهى تسرع بالهبوط :

ـ هاأنذا أنزل ، سأنزل لأبوسك يا ماما ٠

عندما لمست قدماها الأرض اندفعت نحـو امهـــا واحتضنتها وأخذت تنثر القبلات على خديهـــا ٠ قالت سوسن لوالدتها وهمـــا متجهتان الى مبنى البيت ونظاجة تسير خلفهما :

ـ عقلي لا يريد تصديق ما ســـمعته منك يا ماما ٠ أحقيقة ستقبلين زواجي من هشام أم قلت ذلك حتى لا القى بنفسي من فوق الشـــجرة ؟

ـ لا يا حبيبتي ، لم أكن أخدعك ، سأحقق لك رغبتك ٠

ـ على أية حال الشجرة موجودة واذا لم تبرى بوعدك فلن أجد صعوبة في تسلقها ٠

ـ سأبر بوعدي ٠ ما دمت تصرين على الزواج من هشام هذا فلتتزوجي منه ولن اعترض طريقك ٠ توجـــد أشـياء مهما عمـل الانسان لا يمكنه منعها ٠

وسالت دموعها على خدها ، فأردفت قائلة وهي تمسح دموعها :

ـ ولكن لي طلب واحد يا سوسن يا حبيبتي ٠

ـ نعم يا ماما ٠

ـ اذا جاء هشام مرة أخرى فلا تسمحي له بالخروج قبل ان أراه ٠ اريد التأكد من أنه كفء لك ، فأنا أكبر منك سناً وأكثر خبرة وأدرك أشياء كثيرة لا تدركينها ٠

قالت سوسن وقد هزتها الفرحة

ـ يا حبيبتي يا ماما ٠ منيتي أن ترى هشـــاما ٠ لو رأيتـه بينه ٠٠ أنا فرحانة ، فرحانة جداً يا ماما ٠

احتضنت سوسن أمها وقبلتها عدة قبلات • قالت الأم :

ـ عندما يأتي هشام ، اذا كان ناويا على المجيء ، فسأجلس معه وحدي وأتحدث معه وأكون رأيي فيــه • اذا وجدته يستحقك فسأسمح لك بالزواج منه ، إما اذا تبين لى أنه غير جدير بك فسأطلب منك أن تنسيه ولا تفكرى فيه • هل توافقين على ذلك ؟

ـ لقد عرفته جيداً يا ماما ، وعندما تعرفينه مثلى ستوافقين على زواجنـــا •

نظرت الأم الى سوسن بطرف عينها مبتسمة ابتسامة مغتصبة وقالــت :

ـ كيف دخل البيت يا حبيبتى ؟

قالت سوسن بعد لحظة تفكير وهى مطرقة الى الأرض :

ـ لست أدرى ، كنت أراه أمامى بغتة ولا أعلم كيف أتى •

قالت الأم وقد تلاشت ابتسامتها :

ـ هذا غير معقول يا روحى ، لابد أنك تعرفين وسيلة دخوله •

ـ لا يا ماما ، لا أعرف •

ـ تقولين انه ابن الرجل الذى اشترينا منه هذا البيت ؟

ـ أجل ، هو أيضاً أمضى فترة طفولته هنا • أنا وهو عشنا فى بيت واحد ولكن لم ير أحدنا الآخر الا بعد سنين •

فى مساء اليوم التالى كانت سوسن تغنى فوق الأرجوحة وقد بدت منشرحة الصدر ، لمحت نظاجة سائرة بالقرب منها فنادتها • هرعت نظاجة الى سيدتها التى بادرتها قائلة :

ـ انا فرحانة يا نظاجة • أريد أن أرقص من الفرحة فاليــوم يوم الخميس •

ـ الخميس ؟ ما هى حكاية يوم الخميس هذا ؟ كنت لا تميزين بين يوم وآخر ، فما الذى جعلك تحسبين حساب الأيام ؟

ـ أصبحت أحب يوم الخميس . قلبى سيقفز من الفرحة .

ـ ربنا يفرح قلبك يا سيدتى . أتمنى لك الفرحة والسعادة كل يـــوم .

ـ أنا اليوم أسعد من فى الدنيـــا . اريد أن أجرى واقفز من الفرحـــة .

ـ أجرى واقفزى كما تريدين . كل من فى البيت يفرح لفرحك ويحزن لحزنك .

قالت سوسن وقد شعرت بحزن مفاجىء :

قالت نظاجة بعد لحظة تردد :

ـ هل ماما فرحانة أم حزينة يا نظاجة ؟

ـ لست أدرى . انها معتكفة فى غرفة نومها .

ـ اخشى أن تكون حزينة .

ـ لا ، ليست حزينة ، والدتك لا بركة لها سواك .

ـ ذكرتنى بدادة بركة . اننى أفكر فيها أحياناً . كانت حنونة وتحبنى . لست أدرى لماذا تركتنا . ترى أين ذهبت ؟

ـ ذهبت الى حيث ذهبت ، لا شـــأن لنا بها . لكن قولى لى يا سيدتى . هل يهون عليك أنت أيضاً أن تتزوجى وتتركينا ؟

قالت سوسن بدهشة :

ـ اتركم ؟ ولماذا اتركم ؟

ـ عندما تتزوجين الن تتركينا وتذهبين الى بيت عريسك ؟

ـ أنا لن أترككم أبدا ، لا يمكنني أن أترك ماما لو تزوجت من هشام فسيعيش معنا في هذا البيت • البيت كبير يتسع لنا جميعاً • أليس كذلك ؟

ـ أجل ، يتسع لعشرة أمثالنا • لكن افرضي أن هشاما فضل الانتقال معك الى بيت آخر فماذا تعملين ؟ هل تتركين والدتك وحدها ؟

بعد فترة تفكير قصيرة قالت سوسن :

ـ لست أدرى • هل من الممكن أن يرفض البقاء هنا ؟ لا ، انه سيقبل الحياة معنا ، ولماذا يرفض ؟ البيت جميل جداً •

سمعت سوسن أمها تناديها ، فتوقفت عن التأرجح وقالت :

ـ نعم يا ماما •

ـ الساعة جاوزت التاسعة ، اذهبي لتنامي •

ـ حاضر يا ماما •

ذهبت سوسن الى غرفة نومها • ارتدت قميص النوم واستلقت على السرير وغطت جسمها ورأسها بالملاءة وجلست نظاجة بالقرب منها • التزمت سوسن الصمت وتظاهرت بالنوم ، فقامت نظاجة وذهبت الى غرفتها لتنام • وبعد نحو ساعة نهضت سوسن من فراشها واستبدلت بقميص النوم الرداء الذى كانت ترتديه وتسللت الى غرفة نظاجة فوجدتها تغط في نومها •

أنا مسرورة من نظاجة لأنها سريعة النوم • وماما أغلقت باب غرفتها فلابد أنها نامت هي الأخرى • الساعة العاشرة وعشر دقائق • هشام على وشك المجيء •

ذهبت الى الغرفة المهجورة لاحضار الحبل فلم تجده في المكان الذى وضعته فيه ٠

انا متأكدة من أنني وضعته في هذا المكان فمن الذى أخذه ؟ ولماذا اختفى ؟ هل علم أحد ؟ ماذا أعمل ؟ هشام الآن فى انتظارى خارج السور ٠ وسأذهب اليه بسرعة ليعرف أننى فى انتظاره ثم نفكر معاً فى طريقة لدخوله البيت ٠

انطلقت تعدو حتى وصلت الى المكان المعتاد وهمست قائلة :

ـ هشـــام ، هشـــام ٠

ـ سوسن حبيبتي ، ظننتك نسيت الموعد ٠

ـ مستحيل أن أنسى ٠ متى حضرت ؟

ـ منذ ربع ساعة ، يخيل الى أنها سنة ٠

ـ تأخرت قليلا لأننى كنت أبحث عن الحبل ولم أجـــده ٠ لست أدرى من الذى أخذه ٠ كيف ستأتى ؟

ـ معى حبـــل ٠

هزتها الفرحة فصاحت قائلة :

ـ أنت مدهش ٠ كيف عرفت أننى لن أجد الحبل ؟

ـ صنعت حبـــلا على شكل سلم ليكون صعودى وهبوطى أسهل ٠ سأصعد فوق الشـــجرة والقى اليك بطـرفه لتربطيه فى الشجرة التى عندك كما فعلت فى المرة السابقـة ، وفى خـــلال ثلاث دقائق سأكون عندك ٠

ـ احترس جيداً وأنت تصعد الشجرة ٠

ـ لا تخـــافى ٠

بعد بضع دقائق كانا معا داخل الأســوار . شعر هشام فى هذه المرة بأنه اقل خوفا من المرة الســـابقة . جلســا على المقعد الخشبى الذى جلسا عليه يوم الخميس الماضى .

ـ اوحشتنى يا حبيبى

ـ وانت اوحشتنى . كنت افكر فيك طوال يقظتى واحلم بك عندما انـــام .

ـ انا لا أشعر بسعادة كاملة فى أثناء وجودى معك

قالت سوسن بفزع :

ـ لمـــاذا ؟

ـ لاننى أحمل هم لحظة الفراق

ـ ألا تخاف وانت قادم وحدك فى الظلام ؟

ـ حبى لك يمدنى بالشجاعة وينير لى الطريق .

ـ منذ اسبوع لم اسمع كلامك الحلو . كنت اتمنى أن يكون القمر بدرا ليضىء لنا الحديقة .

ـ لم نالف وجود قمرين فى مكان واحـــد . أنت القمر الذى يضىء البيت والحديقة .

ـ هل ترانى فى أحلامك كما اراك ؟

ـ فى أثناء وجودى معك يخيـــل الى أننى فى حلم جميـــل لا اصـــحو منه الا بعد لحظة الفراق .

ـ سأخبرك بشىء لن تصدقه . مفاجأة لم تكن تتصورها . شىء عجيب لا يخطر على البال .

قال بلهفة :

ـ ما هو يا حبيبتى ؟

ـ شيء سيفرحك جداً ٠

قال وقد ازدادت لهفته :

ـ قولى يا حبيبتى ٠

ـ أخبرت والدتى أنك تحضر لرؤيتى فى البيت ٠

ـ اذهله الخبر ولم يفرحه فقال وقد شعر برعب :

ـ وماذا قالـت ؟

ـ قبلـت زواجنـا ٠

هزته الفرحة فصاح قائلا :

ـ يخيل الى أننى فى حلم ، فلقد حلمت بذلك مرة ٠

ـ ليس حلماً فى هذه المرة ٠ ولكن والدتى طلبت منى طلبا ٠

ـ ما هـو ؟

ـ تريد أن تـراك ٠

قال بفرحة كفرحة طفل :

ـ أحقيقة تود رؤيتى ؟ هذا يعنى أنها ليست غاضبة ٠

ـ فى بادىء الأمر غضبت وحزنت ولم تكن موافقـة على الزواج ، ولكنها عندما رأتنى على وشك القاء نفسى من فوق الشجرة وافقت على زواجى منك ٠

قال برعب :

ـ تلقين بنفسك من فوق الشجرة ؟ سلامتك يا حبيبتى ٠

ـ لا يمكننى الحياة بدونك ، وعندما أدركت ماما ذلك وافقت على الزواج ٠

تمتم هشـــام قائلا :

- هذا شيء يصعب تصديقه ، أجمل من أن يكون حقيقة ٠

- لا شك أن والدتي عندما تراك ستحبك وستجدك لطيفا مختلفـــا عن جميع الرجال الذين عرفتهم وستوافق على زواجنـــا فـــوراً ٠

- هل تود رؤيتي الآن ؟

- لم أذكر لها شيئا عن حضورك اليوم ٠ انهـا الآن نائمة ولا تعرف أننا جالسان معا ٠

- مادامت وافقت على زواجنـــا وطلبت رؤيتي فلمـــاذا لم تخطريها عن قدومي الليلة ٠

- خشيت ألا تحضر فتظن أنك كاذب ٠

- أنا أيضا مشتاق لرؤيتها ، فمتى أراها

- هل أذهب لأوقظها من النوم ؟

كانت مفاجأة عنيفة عنـــدما سـمعا صوت الأم منبعثـا من خلفهما قائلة :

- أنا صاحية يا حبيبتي

فصاحت سوسن قائلة بفزع وقد انتفضت واقفـــة بحركة لا اراديـــة :

- ماما !

وقف هشام أيضا ، وقالت الأم بهدوء :

- لا تخافي يا روحي ، لماذا فزعت هكذا ؟ هل تخاف البنت من أمها ؟ شعرت بك عندما خرجت فجئت خلفك دون أن تشعري ٠

ثم نظرت الى هشام وقالت :

ـ هذا اذن هشـــام ٠

قال هشام وهو يقاوم الرعب الذى استولى عليه :

ـ اجـــل ، انا هشـــام ٠

ـ تعال يا ابنى ، تعالى يا سوسن ، هيا معى ٠

(٢٠)

سار الثلاثة نحو مبنى البيت ٠ فتحت الأم غرفة الصالون التي لم يدخلها اى رجل ٠ دخلت وخلفها سوسن وهشام ٠

ـ اذهبى الى غرفتك يا سوســـن واتركينى مع هشـــام بضـــع دقائق ٠

ـ حاضر يا ماما ٠

ـ اقفلى البـاب خلفك ٠

ـ حاضر يا ماما ٠

جلست الأم على احـــد الكراسى ، ولما هم هشـــام بالجلوس قالـــت له :

ـ لم أسمح لك بالجلوس ٠

فظل واقفاً أمامها وكانه داخل قفص الاتهام ٠ قالت الأم :

ـ قبل كل شيء اريد ان أعرف سبب مجيئك الى هذا البيت ٠

ـ كنت أحضر للفرجة على البيت ، وذات يوم اكتشفت وجود فتحة صغيرة فى السور ، نظرت من خلالها فرأيت سوسن ، ومنذ ذلك اليوم ٠٠

ـ ومن يومها أحببت سوسن ، أليس كذلك ؟

ـ أجـــل ٠

ـ بلغنى من سوسن أنك كنت تعيش فى هذا البيت قبل أن أشتريه من أبيك ٠

ـ أجل ، خرجت منه وأنا فى العاشرة من عمرى ٠

ـ لقد اشتريت هذا البيت واعتزلت الدنيا لابعد سوسن عن عيون الرجال وابعدهم عنها ، ولهذا بنيت هذه الأسوار العاليـــة وعشنا طوال هذه السنوات لا نرى رجلا ولا يرانا رجل ٠ وملأت قلب سوسن بكراهية الرجال والخوف منهم ٠ كانت تصحو من نومها مرعوبة لو رأت رجلا فى الحلم ٠ وقاسيت كثيراً حتى نجحت فى تحقيق خطتى ٠ ولكن كل الكفاح الذى كافحته والتعب الذى تعبته ضاع ، ضاع بسببك ، بسببك انت ٠ مهما وصفت لا يمكننى التعبير عن مبلغ الحزن الذى دخل قلبى بسببك ٠ لقد دخلت هذا البيت لتحطم حياتي وحياة ابنتى ٠ أتظن أن أمراً كهذا من الممكن أن أتقبله بسهولة ؟ هل تريد أن تستولى على ابنتى ؟ تخطفهـــا منى ؟ هذا مستحيل بعد الجهد الذى بذلته ٠

ـ ولكننى لم أحضر لأخطف سوسن ، بل للزواج منها ٠

ـ لا فرق عندى بين الخطف والزواج ٠ سوسن لن تتزوج أبـداً ٠

ـ هل تسمحين لى بسؤال ؟

ـ اســـأل ٠

ـ ما سبب تصميمك على عدم تزويج ابنتـــك ؟ انا أعلم أن كل أم تتمنى زواج ابنتها ٠

لا شـــأن لك بذلك

ـ أنـا متأسف ٠

ـ على اية حال من الممكن ان اخبرك عن السبب • السبب بسيط • لا أحب لسوسن أن تتعذب في حياتها كما تعذبت أنا • أريد لها السعادة الدائمة • ما فائدة الأم إذا لم تستفد من تجاربها ابنتها ؟ لقد عرفت الحياة وذقت مرارتها وحلاوتها ، وأريد ان تكون حياة سوسن حلوة كالعسل المصفى • هكذا كانت حياتها الى أن ظهرت أنت في الميدان • ما بنيته طوال حياتي هدمتـــه أنت في لحظة • من الممكن أن تتصـــور الآن مبلغ كراهيتي لك • أكرهك بكل قلبي • على قدر حبي لسوسن اكرهك أنت •

ـ اترفضين زواج سوسن لكي لا تتعذب في حياتها ؟

ـ اجـــل •

ـ لا أظن أن هذا هو السبب •

ـ وماذا يكون غير ذلك ؟ تكلم •

ـ مهما تعذبت سوسن في حياتها فلن يكون عذابها اشـد قسوة من العذاب الذى تصطلي بناره بسببك في هذه الأيام •

ـ انت الآن سبب عذاب سوسن ولست انا • كانت سعيدة قبل أن تلقى لها من وراء السور خطاباتك السامة • كان من الواجب أن أعلي الأسوار أكثر من ذلك •

ـ مهما بنيت وعليت لن تستطيعي منع الربيع عنـدما يحل موعده • الحب لا تحجبه الحواجز والأســوار • الحب يطير كعبير الزهـــور •

هوت بقبضة يدها على المنضدة التى أمامها قائلة :

ـ ولكنني سأمنعه • لا شيء يستطيع الوقوف في طريقي • من يقف في طريقي هو الجاني على نفسه • سوسن في غنى عن الحب

الذى يلقى بجثته من خلف الأسوار • يكفى حبى لها • انها غارقة فى حبى وحنانى •

ـ حقيقة هى غارقة فى حبك حتى أوشـك على كتم انفاسها وازهاق روحهـا •

ـ انا المسئوله عن ابنتى • ما شأنك أنت يا لص يا من تدخل البيوت متسلقا الأسوار ؟

ـ لست لصا ، لقد دخلت متسلقا السور لأننى لم أجد للبيت بابا أدخل منه •

ـ للبيت بوابة كبيرة ، ولكنها لا تفتح لأمثالك بـل تفتح لمن أسمح لهم بالدخول •

ـ ولهذا فان أمثالى لابد أن يتسلقوا الســور ليدخلوا • اريد أن أسأل سؤالا •

ـ ماذا تريد أن تقول ؟

ـ هل من الممكن معرفة شيء عن العذاب الذى تعذبتـه فى حيـاتك ؟

ـ عذبنى ابوها كثيرا

ـ لنفرض أن اباها عذبك فهل يعنى هذا أن جميع الرجال يعذبون زوجاتهم ؟

ـ لا أريد أن أخضع سوسن للتجربة ، تكفى تجاربى أنا •

ـ لقد عاشت أمى مع أبى فى غاية السعادة •

ـ ومن يضمن لى أنك ستكون كأبيك ولا تكون كأبيها هى ؟

ـ لا أحد يضمن • عندما تزوج أبى من أمى لم يشترط عليه أحد أى شرط ومع ذلك عاشت أمى سـعيدة • موت العديد من الأطفال لم يمنع الآباء من الانجاب • وفى كل يـوم تقع أحـداث مروعة ، طائرات تحترق وقطارات تتصادم ومنازل تنهار ، ومع ذلك لم يحجم الناس عن ركوب الطائرات والقطارات ولم يهجروا مساكنهم لأن بعضها قد ينهار • الانسان مهدد بالأخطار فى كل لحظة • فهو معرض لكوارث وأوبئة وزلازل وبراكين وأعاصير ومع ذلك يعيش ويكافح • لو هرب جميع الناس من الدنيا مثلك لخربت منذ زمن طويل ، منذ وفاة أول طفل وسقوط أول طائرة وتصادم أول قطار أو أول سيارة ومنذ فشل أول زواج •

صاحت الأم قائلة فى غضب وقد تفاعل فى صـدرها مزيج عجيب من القسوة والعنف والكراهية لهشام ولجميع الرجال :

ـ كفى ، كفى • لقـد أطلت بالى عليك أكثـر من اللازم • لو ظللت تثرثر طوال حياتك فلن تستطيع محو كراهيتى للرجال • كلهم كذابون خداعون • أتظن أنك قادر على تغيير ما فى ذهنى بكلمتين من كلامك هذا ؟ لو ظننت هذا فأنت عبيط ، أهبـل • لابد أنك صببت فى أذن سوسن كلاما كثيرا من هذا النـوع فصـدقتك المسكينة لأنها لا تعرف الدنيا ، تظن أن كل الناس ملائكة مثلها • لقد استغللت براءتها لتخطفها كما تخطف الحداة الطائر الصغير • لم تفكر فى التخلص من حياتها الا بعد أن ملأت ذهنهـا بكلامك القاتـل •

ظل هشام ملتزما الصمت طوال حديث الأم ، ثم نظر اليها وقـال :

ـ عندما دخلت هذا البيت كان حبى لسوسن هو المسيطر على جميع مشاعرى ، وهو الذى دفعنى لمواجهـة المخاطر والأهوال

والتغلب على جميع المصاعب . وحبي هذا هو نفسه الذي يدفعني الآن الى انقاذ هذه البنت منك ، من الجحيم الذي تعيش فيه . اتظنين انها تعيش في جنة ؟ هذه الجنة لا يشعر بها غيرك . اتظنين حياتها في هذا البيت حلوة كالعسل المصفى كما تقولين ؟ لا أحد يشعر بطعم هذا العسل سواك ، ولكن مذاقه في فم سوسن مر ، مر كالحنظل . خوفك عليها من العذاب اذاقها العذاب الذي لم يذق أحد مثله . من الناس من يعيش في مرض لخوفه من المرض ، ومن يعيش ميتا لخوفه من الموت ، ويعيش في عذاب لخوفه من العذاب .

قالت الأم بهدوء مريب ناظرة الى هشام بعينين ثابتتين كعيني الافعى :

— ألست خائفا من هذا الكلام الذي تقوله ؟ الا تخشى أن تكون هذه الليلة آخر ليلة لك في عمرك ؟

قال هشام وقد أمده اليأس بشجاعة خارقة لم يشعر بمثلها من قبل ، متصوراً أن حياته بدون سوسن لا تختلف عن الموت :

— لا ، لست خائفا . اقتلوني اذا أردتم فسأموت مستريح الضمير . لا أحد يستطيع تصور مقدار السعادة التي اشعر بها الآن بعد أن عبرت عن كل ما في نفسي . لو مت فيكفي أن تعلم سوسن أنني كافحت وعملت المستحيل حتى آخر لحظة في عمري . ولكنني أحب ان أقول لك ان الأم التي يمتلىء قلبها بالحقد والكراهية مثلك لا يمكن أن تحب أي انسان ، حتى ولو كان هذا الانسان ابنتها . أنت لا تحبين سوسن كما تظنين فأنت لا تحبين سوى نفسك ، ولن يعذب ابنتك سواك .

انتفضت واقفة وصفعته على خده صفعة قوية جعلته يترنح ، صائحة بانفعال شديد :

ـ اخرس يا مجرم · اخرس يا نص · هل أنا أعذب ابنتي ؟ أعذب سوسن ؟

وفقدت السيطرة على أعصابها فانهالت على خديه صفعا وانفجرت تصيح قائلة في أثناء صفعه :

ـ كيف تجرؤ على اتهامي بتعذيب ابنتي ؟ هل أنا أعذب سوسن ؟ هل أنا لا أحب ابنتي ؟

في هذه اللحظة فتح الباب واندفعت الى الغرفة سوسن تجهش ببكاء عنيف يهز جسدها قائلة :

ـ كفى ، كفى ، لا تضربيه ·

ثم ألقت برأسها على كتف هشام قائلة :

ـ حبيبي هشام ، لا تحزن ·

وانخرطت في بكاء لم تبك مثله في حياتها · أخذ هشام يربت على ظهرها قائلا :

ـ لا تبكي ، لا تبكي يا سوسن ·

ثم أردف قائلا بصوت متهدج :

ـ سأخرج الآن يا سوسن وكفى ما رأيته الليلة ·

قالت سوسن بلهفة :

ـ لا ، لا يمكنني السماح لك بمغادرة البيت وأنت حزين ·

ثم التفتت الى أمها وقالت وهي مختنقة بالبكاء :

ـ لماذا فعلت به هذا يا ماما ؟ لماذا صفعته على وجهه ؟

قالت الأم محاولة السيطرة على أعصابها :

ـ كيف عرفت ذلك ؟

– منذ خروجى من الغرفة وأنا واقفة خلف الباب أدعو ربنا أن توافقى على زواجنا ، وبدلا من ذلك أسمعك تصفعينه وتشتمينه ؟

– هل سمعت أيضاً ما قاله لى ؟ هل ترضين لى أن أقبل مثل هذا الكلام من أحد ؟

– كل ما قاله وكل ما فعله كان من أجلى لأنه يرغب فى الزواج منى • انه يحبنى فلماذا لم تسامحيه ؟

قالت الأم بهدوء :

– لا تحزنى ، سأسامحه من أجلك •

قالت سوسن لهشام ودموعها ما زالت تسيل على خدها :

– لا تحزن يا هشام ، لا تحزن •

– لست حزيناً يا حبيبتى ، فلا ورد بلا أشواك ولا حلاوة من غير نـار •

وضعت الأم ساقا فوق ساق ، وبحركة عصبية لا ارادية أخذت تهز الساق المرفوعة عن الأرض مصوبة بصرها نحو سوسن وبدت كنمرة تستعد للهجوم ثم قالت :

– اسمعى يا سوسن ، لـو خـيروك بينى وبين هشام فأينا تختارين ؟

قالت سوسن وهى مختنقة بالبكاء :

– انتمـا الاثنين •

– لا ، اختارى أحدنا ، أأنا أم هو ؟

– أختار الموت ، فلا تجبرينى على اختيار الموت •

ارتجفت الأم لسماع كلمة الموت من ابنتها فتحولت من نمرة الى هرة وقالت بهدوء :

ـ سأزوجك من هشام يا حبيبتى ٠

هزت الفرحـــة سوسن فصاحت قائلة بفـم مبتسم وعينين باكيتين :

ـ أحقيقة سأتزوج من هشـــام ؟ لو حـدث هذا لأصبحت أسعد بنت فى الدنيا ٠

قالت الأم بهدوء ولو أنهـــا لم تستطع السيطرة على قطـرات الدموع التى طفرت من عينيها :

ـ من هذه اللحظة أنت خطيبته وهو خطيبك ٠

هرولت سوسن نحو باب الغرفة تريد أن تحمل النبأ الى كل من فى الدنيا ، ولكنها قبل خروجها من الباب لم تشـــأ أن تترك هشام وحده مع أمها فعادت وجذبته من يده ووجد نفسه يعدو معها خارج الغـــرفة ٠

كانت الخادمات نائمات يحلمن ؟ نظاجة تحلم أنها سائرة فى زقاق مظلم وبغتة ظهر لها شاب وسيم أخذ يغازلها ويتحدث عن جمالها ، ومرجانة تعبث بثعبان يتلوى بين يديها ، وعواطف تجرى خلف رجل تحاول اللحاق به ٠ انقطع خيط أحلامهن وشعرن برعب شديد عندما سمعن صوت سوسن يقتحم سكون الليل صائحة :

ـ نظاجة ، عواطف ، مرجانة ٠

ترامت الى أذنى سوسن أصوات من أماكن مختلفة تقول :

ـ نعم يا ستى ، نعم يا ستى ، نعم يا ستى ٠

وأسرعت جميع الخطوات المضطربة مقتربة من سوسن . كانت مفاجأة لاتخطر لهن على بال عندما وجدن سوسن واقفة مبتسمة جنب هشام . قالت بفرح :

– ماما وافقت على زواجنا . هشام أصبح خطيبى .

ألجمت المفاجأة لسانى عواطف ومرجانة وظنتا أنهما ما زالتا تحلمان وقالت نظاجة غير مصدقة :

– سيدتى وافقت على زواجكما !

قالت سوسن :

– هيا اسألن ماما ان كنتن غير مصدقات .

أمسكت سوسن يد هشام وكأنها تخشى أن يهرب ، وما كادت تستدير متجهة نحو غرفة والدتها حتى وجدتها قادمة نحوهم بخطوات بطيئة ، فتركت سوسن يد هشام وتوقف الجميع وسارت الأم بضع خطوات أخرى ثم وقفت فى مواجهتهم وقالت :

– ما هذه الضجة ؟

قالت نظاجة :

– أحقيقة ما تقوله ستى سوسن ؟

– ماذا تقول ؟

قالت سوسن بفرح :

– ألست الآن خطيبة هشام وهو خطيبى ؟

قالت الأم بهدوء :

– أجل يا حبيبتى .

ثم نظرت الى الخادمات واردفت قائلة بلهجة جادة :

ـ هشام خطب سوسن وأنا وافقت • باركن لهما •

أطلقت نظاجة زغرودة ثم قالت لسوسن :

ـ مبروك يا ستى ، ألف مبروك •

ثم قالت لهشـــام :

ـ مبروك يا سيدى هشام ، مبروكة عليك •

تمتم هشـــام قائلا :

ـ الله يبارك فيك •

وقالت عواطف لسوسن وهشام :

ـ مبروك يا ستى ، مبروك يا سيدى •

ـ الله يبارك فيك •

غمغمت عواطف قائلة :

ـ منذ أعوام لم تخرج من فمى كلمة « سيدى » •• أوحشتنى كلمة « سـيدى » ••

ظلت مرجانة محملقـــة فى وجـه هشـام طوال هذه الفترة ثم قالــت :

ـ مبـــروك •

قالـــت الأم •

ـ هشام سيبيت عندنا الليلة ، أليس كذلك يا سوسن ؟

ـ أجل يا ماما ، فبيته بعيد ومن الخطـــر السير وحـده فى هذه الســاعة •

قالت الأم لهشام بصوت منهدج :

ـ متى تحب أن يكون عقد القران ؟

قال هشـــام :

ـ كمـــا تريدين ٠

قالت سوسن بلهفة :

ـ الآن يا ماما ٠

قالت الأم :

ـ لا أستطيع عقد القران الآن ٠

ثم التفتت الى هشام وقالت :

ـ موعدنا الخميس القادم لعقد القران ٠

ـ كما تريدين ، ولو انني كنت أتمنى أن يكون الآن كما قالت سـوسن ٠

قالت الأم لهشام وهي تمسح قطرات من الدموع طفـــرت من عينيهـــا ٠

ـ سأحضر المأذون والشهود بمعرفتي ، فلا داعي لأن تشغل بالك بهذه الأمور وعليك أن تحضر بمفردك ٠

ـ ألا يمكنني احضار بعض أصدقائي معي ؟

ـ لن أسمح لأحد سواك بدخول البيت ، وهنـــاك أمر آخر ينبغي أن تعلمـــه ٠

ـ ما هـــو ؟

ـ سوسن لن تغادر هذا البيت بعد الزواج ، ينبغي أن تعلم ذلك ٠ لن تبتعد عني سوسن أبدا ٠

أسرعت سوسن قائلة :

ـ لا مانع لدينا ، أليس كذلك يا هشام ؟

– لا يهمنى المكان ، المهم أن أكون معك ٠

قالت الأم لنظـــاجة :

– أعدى غرفة سوسن ليبيت فيها هشام ٠

قالت نظاجة بدهشـــــة :

– وأين تنام سيدتي سوسن ؟

– ستنام معى فى غرفتى ، فى حضنى ٠

ذهب الخدم لاعداد الغرفة لهشـــام وهن غير مصدقات لما رأته عيونهن وسمعته أذانهن ٠

قالت نظـــاجة :

– سيطير برج من رأسى ٠ ماذا جرى فى هذا البيت ؟ كيف تعمل ســـيدتى الكبيرة هذه العملة ؟ أبعـــد كل ما فعلته طوال هذه السنين توافق فى آخر الزمن على زواج سوسن ؟! واحسرتـــاه على كذبى الذى واظبت عليه منذ دخولى هذا البيت ، ويالضيعة الحكايات التى كنت اخترعها وأقصها على سوسن كل ليلة !! ٠

همست مرجـــانة قائلة :

– لابد أن فى المسألة سرا لا نعرفه ٠

قالـــت عواطف :

– أى سر هذا ؟ انه شئ يحير العقل ٠ قلبى شاعر بأن شيئاً ســـيحدث غدا ٠

حاول هشام السهر طوال الليل ، ولكن النـــوم غلبه فنـــام وأمضت سوسن ليلتها مع أمها فى فراشها ، وعندما غادرت الفراش فى نحو السابعة لن تكن أمهـــا جنبها ، فقامت وذهبت تبحث عن

نظاجة لتعرف منها أخبار هشام • وجدت غرفتها مغلقة فلم تشأ أن تفتحها خوفا من أن يكون هشام ما زال نائماً فيها • كانت مرجانة في المطبخ تعد طعـام الفطور ، بادرتها سوسن قائلة وقد شعرت بالفرحة تملأ قلبها :

ـ صباح الخير يا مرجانة •

ـ يسعد صباحك يا سيدتي •

ـ أما زال هشـــام نائما ؟

نظرت اليها مرجانة بدهشة كاذبة وقالت :

ـ هشام ؟ هشام من يا سيدتي ؟

ـ هشـــام خطيبي •

ـ خطيبك ؟ متى خطبك هذا المدعو هشام ؟

ـ ماذا جـــرى لعقلك ؟

ـ سلامتك أنت يا سيدتي • من هو هشام هذا ؟ لم يسبق لي سماع هذا الاســـم •

اعتقدت سوسن أن مرجانة تداعبها ، فقالت لها :

ـ أنا لا أحب هذا السخف ، لابد أنه ما زال نائما • سأذهب لأراه •

بخطوات سريعة سارت سوسن نحو غرفتها ، فأسرعت مرجانة وسارت معها • فتحت سوسن الغرفة فلم تجد بها أحدا •

شيء عجيب ، لقد أمرت والدتي باعداد غرفتي ليبيت فيها هشام ولهذا السبب نمت معها في غرفتها •

قطع سلسلة أفكارها صوت مرجانة عندما قالت :

ـ ها هي ذي غرفتك يا سيدتي خالية وفرش السرير كما هو لم يلمســه أحد ·

قالت سوسن بانفعال وقد بدأت تشعر بقلق مرعب :

ـ ما هذا الكلام الفارغ ؟ وأنت تعلمين جيدا أن هشاما جاء الى بيتنا بالأمس وباركت لنا عندما خطبني · سأذهب لأسأل ماما ·

خرجت سوسن من المطبخ لتبحث عن أمها فوجدتها واقفــة عند بابه تسترق السمع لحديثها · قالت سوسن بصوت مرتجف :

ـ مــامــا ·

ـ نعــم يا روحي ·

ـ أين هشام ؟ لماذا تركته يخرج من البيت قبل أن أراه ؟

ـ هشام ؟! سلامتك يا حبيبتي · أنت تعلمين جيداً أنني لا أسمح بدخول صنف الرجال ·

بدأت سوسن تشعر بصداع في جبهتها وقالت :

ـ أنت أيضا تنكرين أن هشاما كان عندنا ليلة أمس وظللت تتحدثين معه فترة طويلة ، ووافقت على زواجنا ، وبات عنــدنا هنا في البيت ولهذا نمت معك في غرفتك ·

ـ صحوت من نومي يا حبيبتي فوجدتك في حضني ، ولكنني لا أعلم لماذا أتيت الى غرفتي · ظننت أنك رأيت حلما مفزعا فخفت وجئت لتنامين معي كما حدث ذات ليلة من قبل ·

ـ انكما بانكاركما حضور هشام أنت ومرجانة تدفعان بي نحو الجنون · حرام ، حرام ·

انفجرت سوسن باكية ، فاحتضنتها أمها وأخذت تبوسها قائلة :

ـ سلامتك يا حبيبتي ، سلامتك .

ثم صاحت قائلة :

ـ يا نظاجة ، يا عواطف .

أسرعتا بالحضور فسألتهما الأم :

ـ هل رأيت يا عواطف رجلا اسمه هشام عندنا فى البيت ليلة أمس ؟

قالت عواطف وهى مطرقة الى الارض :

ـ لا يا سيدتى ، لم أر أحدا .

ثم التفتت الأم الى نظاجة قائلة :

ـ وأنت يا نظاجة ، هل جاء رجل الى البيت ليلة أمس ووافقت على خطبته لسوسن ؟

ـ وهل هذا معقول يا سيدتى ؟

نظرت الأم مبتسمة الى سوسن وقالت :

ـ هل صدقت الآن يا سوسن ؟ الرجال لا يدخلون هذا البيت يا حبيبتى ، لابد أنك كنت تحلمين .

أخذت سوسن تدير بصرها حولها بذهول قائلة :

ـ كنت أحلم ! غير معقول !

ثم أردفت قائلة بتوكيد :

ـ لقد كان هشام هنا ليلة أمس وخطبنى من ماما . أنا أعلم جيدا الفرق بين الحلم والحقيقة فلست مجنونة . هذا غير ممكن ، غير ممكن .

وانخرطت فى البكاء فاحتضنتها الأم وأخذت تربت على ظهرها قائـلة :

ـ كفى يا حبيبتى ، لا تبكى يا روحى • أنا لا أطيق سماع بكائك • أريد لك السعادة طوال حياتك • كفى بكاء يا روحى •

ـ أنا متأكدة من أننى لم أكن أحلم ، فأنا لم أنم طوال الليل من الفرحة ، وشعرت بك يا ماما عندما غادرت الفراش وخرجت من الغرفة ، فمتى حلمت ؟ سأبحث عنه فى كل شبر فى البيت وفى الحديقـــة •

(٢١)

أخذت سوسن تبحث عن هشام فى جميع أنحاء غرف المنزل فلم تجد له أثرا ، ثم انطلقت تنادى عليه فى الحديقة فلا تســمع ســوى صدى صوتها • فى هذه الأثناء كانت الأم جالسة على كرسى مريح فى ركن بغرفة نومها وأمامهـــا على الأرض جلست نظـــاجة القرفصاء • سمعت الأم صوت سوسن منبعثا من الحديقـــة تنادى هشاما فقالت لنظاجة :

ـ أما زالت سوسن تأمل فى العثور على هشـــام ؟

ـ أجل يا ســـيدتى ، يبدو أن اللعبـــة لن تنطلى عليهـــا • لا سمح الله ولا قدر ، أخشى أن تفقد عقلها •

ـ ولكن من واجبى أن أمنع هذا الزواج بأية وسيلة • لا أحب لها أن تتعذب كما تعذبت أنا •

ـ أبوس يدك يا سيدتى ، لا تؤذى هشاما ، لا من أجله هو ولكن من أجل سيدتى سوسن •

ـ اننى أفعل هذا من أجلها ، هل من المعقول أن أترك سوسن تتزوج وتعيش مع رجل ؟

ـ ولكنها قد تؤذى نفسها لو حدث لهشام أى مكروه ٠

ـ أليس من الممكن أن تنساه ؟

ـ لن تنساه يا سيدتى طوال حياتها ، فأنا اعرفها جيدا ٠

نظرت الأم الى نظاجة بعينين مفترستين وقالت :

ـ وأنا ، ألا أعرفها ؟

ـ تعرفينها يا سيدتى ، ولكننى أنا أيضا أعرفها ٠ ليست من النوع الذى ينسى شيئا كهذا ٠ انه حبها الأول ٠٠ والأخير ٠

اطرقت الأم الى الأرض وأسبلت جفنيها وقالت بصوت كفحيح الفحى :

ـ كنت أنوى التخلص منه اليوم ولكننى خفت على سوسن فأمهلته انتظارا لرد فعلها ٠

ـ ليس من المعقول أن ندخل فى روعها أن هشاما لم يحضر امس الى البيت ٠

وليس من المعقول أيضا أن أتركها تلقى بنفسها فى جحيم الزواج ٠

نظرت نظاجة بطرف عينيها الى سيدتها وقالت :

ـ أليس أفضل من أن تلقى بنفســــها من فوق شجرة ؟ لو رأيتها وهى تبحث عنه لأشفقت عليها ٠ منظرها يقطع القلب ٠ أتوسل اليك يا سيدتى ألا تعذبيها ٠

انتفضت الأم صائحة بانفعال :

ـ أنا لا أعذبها ، بل أمنع عنها العذاب ٠

استجمعت نظاجة كل ما لديها من شجاعة وقالت :

ـ أين هو يا سـيدتى ؟

تجاهلت الأم سؤال نظـاجة وقالت وفى نبرات صـوتها مرارة :

ـ أمرى الى الله ، لقد انتصر على ، سأذهب اليه ·

ـ وماذا تقولين له ؟

ـ سأقول اننى كنت أرغب فى التأكد من حب سوسن له ·

ـ وماذا تقولين لسوسن ؟

ـ الكلام نفسه ، كنا نختبر حبها لهشام ، واننى اطمأننت عندما تأكدت من شدة حبها له ·

قالت نظاجة بعد فترة تردد :

ـ ولكن هذا الكلام يا سيدتى لن ينطلى لا على سوسن ولا على هشام ، فحبهما لبعضهما واضح ولا يحتاج لبرهان انها ، اسم الله عليها وحواليها ، توشك أن تموت حبا ·

فى هذه اللحظة اقتحمت سوسن الغرفة قائلة بانفعال ودموعها تبلل خديها :

ـ تأكدت الآن من أن هشاما كان هنا بالأمس وأريد أن أعرف أين ذهب ؟

قالت الأم بهدوء :

ـ وكيف تأكدت ؟

ـ الحبل الذى أحضره معه أمس وصنعه خصيصا

ضحكت الأم ضحكة مغتصبة وقالت :

ـ اجلسى يا حبيبتى ٠

جلست سوسن على حافة السرير ٠ قالت الأم :

ـ لقد استراح قلبى ، تأكدت الآن من حبك لهشـــام حبا شديدا ٠ سأحضره لك ٠

قالت سوسن بفرحة يشوبها الشك والقلق :

ـ هل يعنى هذا أن هشاما بخير ؟

ـ وماذا سيجرى له لا سمح الله ؟

انخرطت سوسن فى بكاء عنيف وقالت :

ـ لماذا تعذبيننى كل هذا العذاب ؟

قامت الأم شاعرة بأن رجليها لا تقويان على حملها واتجهت نحو باب الغرفة ، فقامت سوسن وسارت خلفها قائلة :

ـ سأحضر معك ٠

ـ لا يا حبيبتى ، ابقى هنا مع نظاجة ٠

خرجت الأم من الغرفة وأغلقت بابها وظلت سوسن تذرع أرضها جيئة وذهابا ٠ قالت لها نظاجة وقد طفرت دموعها من عينيهـــا :

ـ لا تقلقى يا سيدتى فكل شىء سيكون على ما يرام ٠

حاولت سوسن فتح باب الغرفة ولكنها وجدته مغلقا بالمفتاح فعادت تذرع الغرفة ٠ أطلت من النافذة فلم تر لأمها أثرا ٠ شعرت أنها سجينة فقالت :

ـ سأقفز من النافذة ٠

فزعت نظاجة وتشبثت بسوسن قائلة :

ـ لا ياسيدتى ، لا تفعلى ، أقسم لك أنك سترين هشاما الآن ٠

ذهبت الأم الى المطبخ فوجدته خاليا من الخدم ، فعملت فنجان شاى وضعته على صينية وهبطت السلم المؤدى الى البدروم ٠٠ سارت بضع خطوات ثم توقفت وسحبت حجرا من الجدار وأخذت مفتاحا كان متواريا خلف الحجر ٠ بعد نحو عشرة أمتار وصلت الى باب غرفة ، فتحته بالمفتاح ودخلت وأغلقته خلفها ٠

كانت الغرفة صغيرة أنيقة ونظيفة ٠ فى الجانب الأيمن منها سرير كسرير المستشفيات بجواره منضدة وفوقه يرقد هشام على ظهره مغمض العينين ٠ وضعت الصينية على المنضدة وفتحت باب صوان صغير فى الجدار به عدة قوارير ٠ أخرجت منه قارورة صغيرة أخذت تمررها أمام أنف هشام فلم يتحرك ٠ أخذت تهزه من كتفه هزا عنيفا مع استمرار تمرير القارورة أمام أنفه قائلة :

هشام ، هشـــام ٠

بعد فترة بدأ يفتح عينيه ويدير بصره فى أنحاء المكان قائلا :

ـ من ؟ من هذا ؟

قالت الأم بهدوء :

ـ سوسن فى انتظارك منذ ساعات فالى متى ستظل نائما ؟

حاول القيام ولكنه لم يستطع ٠ قال :

ـ سوسن ؟ أجل ، لست أدرى لماذا أشعر بدوار ٠

ساعدته على القيام حتى استند بظهره على السرير ثم قدمت له الفنجان قائلة :

ـ اشرب الشاى هذا لينعشك وتعال معى لتغسل وجهك فتفيق ٠

ـ كم الساعة ؟

ـ الحادية عشرة ٠

قال وهو يدير بصره فى أنحاء الغرفة :

ـ من الذى أحضرنى هنا ؟ يخيل الى اننى نمت ليلة أمس فى غرفة أخرى ٠

لم تخبره بطبيعة الحال أنها خدرته ونقلته الى هذه الغرفة بمعاونة مرجانة ولا أحد سواهما يعرف ذلك وأنها كانت تنوى التخلص منه ، ولكنها قالت :

ـ نقلناك الى هنا فى أثناء نومك ٠ كان من اللازم التأكد من حب سوسن لك قبل اتخاذ أية خطوة ولقد تأكدت من لهفتها عليك فاطمأن قلبى ٠

بعد احتساء فنجان الشاى صعدا معا سلم البدروم وقادته الى الحمام ٠ شعر ببعض الانتعاش عندما غسل وجهه وسار مع الأم نحو غرفة نومها ٠ طلبت منه البقاء بالقرب من الغرفة ٠ فتحت الباب ودخلت فشعرت سوسن بشىء من خيبة الأمل عندما وجدت والدتها تدخل بمفردها ولكن أمها عاجلتها قائلة :

ـ هل تودين رؤية هشام يا سوسن ؟

قالت سوسن بلهفة :

ـ أجل ، أريد أن أراه ٠

قالت الأم لنظاجة :

ـ اذهبى واحضرى هشاما ، انه جنب الباب ٠

قالت ســـوسن :

ـ ســأذهب أنا اليه ٠

قالت الأم بحزم :

ـ لا ، هو الذى ينبغى أن يحضر اليك ٠

دخلت نظاجة وبجوارها هشام فقالت سوسن بلهفة وفرحة :

ـ هشام ! لم أكن أتصور أنك هنا ٠ بحثت عنك طويلا ٠

طفرت الدموع من عينيها فقال لها هشام :

ـ لا تبكى يا حبيبتى ، هاأنذا أمامك ، فلماذا تبكين ؟

قالت سوسن لأمها :

ـ هشام لم يتناول عشاء ليلة أمس ولابد أنه جائع ٠

قال هشـــام :

ـ لا أشعر بالجوع ٠

قالت الأم :

ـ أعدى لهما الفطور فى الجنينة يا نظاجة ٠

وجدا الحبل فى مكانه فوق السور فأخذته سوسن وصعدت به فوق الشجرة والقته خارج السور ليستطيع هشام الحصول عليه بعد خروجه من البوابة فقد يحتاج اليه اذا لم تدخله الأم من بوابة البيت فى المستقبل ، ثم عادا وجلسا حول منضدة تحت شجرة ليمون يتناولان فطورهما ٠ قالت سوسن :

ـ كنت على وشك الجنون عندما سألت عنك عقب قيامى من الفراش فوجدت والدتى وجميع الخدم ينكرون وجودك قائلين ان هذا البيت لا يدخله الرجال ٠

كادت البلعة تقف في حلق هشام وقال بدهشة :

ـ شيء عجيب . هل قلن لك اننى لم احضر ولم يرني أحد هنـــا ؟

ـ أجل ، حاولن ايهامي بأن كل ذلك لم يكن سوى حلم حتى كدت اصدقهن ، الى أن وجدت الحبل الذى أحضرته معك ليلة أمس ، هو الذى انقذني من الجنون .

ـ يبدو أن أحداثا عجيبة تجرى في بيتكم هذا .

ـ هذا أول حادث غريب يحدث لى هنا .

ـ ولكننى أعتقد أنه لن يكون الأخير . لا ينبغى أن نعيش في هذا البيت بعد الزواج .

قالت سوسن بفزع :

ـ لا ، هذا غير ممكن . لا يمكنني ترك والدتي وحدها . لابد أن نعيش معها ، ألم توافق على ذلك ؟

ـ ولكننى أصبحت أشعر بخوف من هذا البيت .

قالت بدهشة :

ـ مم تخاف ؟ والدتي في منتهى الطيبة ، وهذا بيت جميل لن نجد له مثيلا ، ولا يوجد فيه ما يدعو للخوف . ألا يسعدك أن نعيش في بيت تشعر بالحنين اليه ؟ هل كان فيما مضى أجمل مما هو عليه الآن ؟

ـ كلا ، على العكس ، لقد ازداد جمالا بوجودك فيه ، ولكن هناك أشياء أخرى ترعبنى .

ـ مثل ماذا ؟

ـ شيء غامض ينفرني الآن منه · قد يشعر الانسان أحيانا بخوف لا يعرف له سببا · أفضل الحياة معا في بيت آخر · انني أمتلك بيتا لا بأس به في الاسكندرية ، ما رأيك لو نعيش فيه بعد الزواج ؟

ـ لن توافق والدتي على ذلك ، وأنا أيضا لا أستطيع البعد عنها · سنكون سعداء معها هنا · ما رأيك ؟

ـ نعيش هنا ما دامت هذه رغبتك ، فأنا لا أرفض لك طلبا ·

ـ أحقيقة سنتزوج الخميس القادم ؟

ـ أجـل ·

ـ أنا في انتظار هذه اللحظة بفارغ الصبر · أخشى أن أكون في حلم ·

ـ ستكون كل حياتنا حلما جميلا ، لا يوجد أجمل منه سوى جمالك أنت · ينبغي أن أنصرف الآن للقيام بالاجراءات المطلوبة مني ·

ـ لا أحب أن تبتعد عني لحظة واحدة ·

ـ لابد أن أبتعـد الآن لنتقرب ونصبح معـا طوال العمر ، ولن تستطيع أية قوة أن تفرق بيننا بعد ذلك ·

بعد الفطور ذهبا معا الى مبنى البيت · كانت الأم جالسة في البهو مستندة برأسها على كفها تدور في ذهنها أفكار حزينة فلم تلاحظ صعود سوسن وهشام درجات السلم الخارجي ولم تتنبه الى وجودهما في البهو الا عندما سمعت سوسن تقول :

ـ هشام يريد الخروج ·

فانتفضت الأم فى فزع وقالت لهشام بصوت مختنق بالبكاء :

- موعدنا يوم الخميس القادم ، السابعة مساء بالضبط . ستكون نظاجة فى انتظارك خلف البوابة . دق على الباب ثلاث دقات وستفتح لك نظاجة .

ثم قامت ودخلت غرفتها ثم عادت ونادت نظاجة التى هرولت نحو الام . سلمتها مفتاح البوابة وطلبت منها ان تفتحها ليخرج منها هشام . عندما اتجه نحو السلم أسرعت سوسن بالسير معه ولكن أمها أمرتها بالبقاء معها ، فسار هشام بصحبة نظاجة ووقفت سوسن عند قمة السلم ناظرة اليه . التفت هشام الى الخلف ولوح بيده الى سوسن قائلا :

- أراك يوم الخميس .

قالت سوسن وقد دمعت عيناها :

- مع السلامة ، مع السلامة يا هشام .

وظلت تودعه بنظراتها حتى وصل الى البوابة وأدارت نظاجة المفتاح لتفتحها ، فالتفت هشام نحو سوسن ولوح لها بيده مرة أخرى فردت له التحية . فتحت نظاجة البوابة فتحة ضيقة تسمح بخروج هشام ، فخرج . ثم أسرعت باغلاقها وعادت لتسلم المفتاح لسيدتها فوجدتها واقفة تطل من نافذة غرفتها نحو البوابة . أما سوسن فلقد انسحبت الى غرفتها ووجدت نفسها تبكى .

(٢٢)

ظل زكريا ساهرا فى انتظار هشام حتى الصباح . لم يشعر برغبة فى تناول اى طعام ، فجلس فى الشرفة ناظرا الى الطريق لعله يرى هشاما قادما فى أية لحظة ، وبعد أن يئس من بقائه على قيد الحياة رآه . لم يصدق عينيه فلوح له بيده وقد امتلأ قلبه

بفرحة مفاجئة لم يكن يتوقعها ورد هشام مبتسما . أسرع زكريا بفتح الباب واستقبل هشاما بالأحضان وكأنه عائد من ميدان قتال قائلا :

ـ حرام عليك يا أخى ، أين قضيت ليلتك السوداء ؟ أرعبتنى وسهرتنى حتى الصباح .

ـ أما أنا فلقد نمت نوما عميقا لم أنم مثله فى حياتى :

ـ أين ؟

ـ فى بيت سوسن .

قال زكريا بدهشة :

ـ نمت فى بيت سوسن وخرجت منه سليما ؟!

ـ وسأقضى جميع الليالى والأيام الباقية من عمرى هناك ابتداء من الخميس القادم .

ـ لماذا ؟ ماذا جرى للدنيا ؟

ـ الدنيا أصبحت جميلة .

ـ ولماذا ابتداء من الخميس القادم ؟

ـ انه موعد عقد قرانى على سوسن .

ـ عقد قرانك على سوسن ! هل هذا معقول ؟ أرأيت أمها ؟

ـ طبعا ، رأيتها وكلمتها ووافقت على زواجنا .

ـ هذه هلاوس لا يمكننى تصديقها . لابد أن حبك لهذه البنت قد أثر على عقلك .

ـ بل أنا فى كامل قواى العقلية .

ـ أفى كامل قواك العقلية وتقول انك ستتزوج من البنت التى أبعدتها أمها عن جميع الرجال طوال حياتهـا وملأت قلبهـا بكراهيتهم ؟

ـ ولكن سوسن رأتنى وأحبتنى ٠

ـ أمرى الى الله ، سأضطر للسفر معك لحضور عقد القران ٠

ـ لا داعى لتعبك ، فلقد اشترطت الأم ذهابى بمفردى ٠

صاح زكريا قائلا بفزع :

ـ لا ، لا تذهب بمفردك ، أنا لا آمن عليك من هذه الغولة ، لابد أنها تنوى لك شرا ٠

ـ لن تستطيع ايذائى خوفا على ابنتها ٠

ـ أتقول انك ستعيش معهم فى بيتهم ؟

ـ أجـل ٠

ـ ولماذا لا تعيش مع عروسك فى بيتك ؟

ـ الأم لا تستطيع الحياه بعيدة عن ابنتها ، فاشترطت ذلك وقبلت الشرط ٠

ـ وبيتك هذا ، هل ستتركه خاليـا تسكنه الأشباح والعفاريت ؟

ـ لا ، بل سيسكنه عفريت واحد ٠

ـ من ؟

ـ أنت ٠ ستبقى أنت فيه ٠ وسأكتب لك توكيلا للحصول على ايجار عمارة كليوباترا والاحتفاظ بالفلوس معك حتى أستلمها

منك واياك أن تتصرف فيها ، فانا أعرف جيداً نقط الضعف التى فيـــك ·

ـ لا تخف ، مبروك يا هشـــام · ربنا يتمم بالخير ويجعل العواقب سليمة ·

في مساء الخميس التالى دخل هشام من بوابة البيت لأول مرة منذ رؤيته لسوسن · فتحت له نظاجة وقادته الى غرفة الصالون الذى وجده خاليا · لم ير سوسن ، ولم يكن فى البيت أية دلائل تشير الى وجود احتفال بعقد قران · كانت نافذتا الصالون مغلقتين فبدا مظلما رطبا · سأل نظاجة عن سوسن فقالت له انها مع والدتها تعدها لحفل الزفاف ·· خرجت وتركته وحيدا بالصالون وأغلقت عليه الباب بالمفتاح · بعد نحو ساعة شعر بملل شديد فقام وحاول فتح احدى نوافذ الصـالون فلم يستطع وبدت كما لو أنها مثبتة بمســامير · حاول فتح النافذة الثانية فاستعصى عليه فتحها هى الأخرى · شعر برعب يزداد مع مرور الزمن · بعد نحو ساعتين لم يستطع الجلوس فقام وأخذ يتحرك فى أنحاء الغرفة كأسد فى قفص معتقدا أن الأم قد نصبت له فخا وان هذه الغرفة قد أعدت لتصبح سجناً له طوال حيـاته · بعـد ثلاث ساعات من الوحدة والعذاب فكر فى الصياح بأعلى صوته عسى أن يصل الى مسامع سوسن ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة عندما تصور عدم جدواها ·

بدأ يتذكر أيامه الماضية ، أيام الطفولة ، عندما كان يجلس فى هذه الغرفة مع بعض ضيوف والده ويجول فى غرف البيت ويعدو مع بعض أصحابه من الأطفال بين أشـجار الحديقة · وبينما هو مستمسل فى هذه الأفكار سمع صوت مفتاح باب الغرفة ، ثم فتح الباب ودخلت الأم وبصحبتها ثلاثة رجال ، أحدهم معمم يتأبط دفترا فاستنتج أنه المأذون ، أما الرجلان الآخران فلابد أنهما شاهدا

عقد القران ، فشعر وكأنه كان ملقى فى بئر عميقة فى مكان مهجور وانتشله من قاع البئر أحد المارة ٠

تم عقد القران وتسلم هشام قسيمة الزواج ٠ طواها بعناية ووضعها فى الجيب الداخلى لسترته ٠ سالت الدموع من عينى الأم فقامت وقام الرجال الثلاثة وغادر الجميع الغرفة وتركوا هشاما وحده مرة أخرى وشعر بالباب يقفل بالمفتاح ٠

لقد عدت ســجينا كما كنت ٠ ما فائدة عقد القران اذن ؟ وما فائدة هذه القسيمة التى فى جيبى ؟ هل هو لمجرد ارضـــاء سوسن ؟ وأين هى سوسن التى لم أرها منذ حضــورى اليوم ؟ أنا لا أعرف هذا المأذون ولا هذين الشاهدين ، أليس من المحتمل أن يكون كل هذا مجرد لعبة وأن تكون قسيمة الزواج التى فى جيبى مزورة ؟ كل شيء ممكن ٠ ولكن لماذا تلجأ الى ايهامى بعقد القران وفى مقدورها التخلص منى بطرق أخرى ؟ ما الذى ترمى اليــه هذه المرأة وتخطط له ؟ ولكننى رأيت الدموع تترقرق فى عينيها لحظة عقد القران وهذا يطمئننى بعض الشيء ، اذ لو كانت تخطط لعدم اتمام الزواج لما بكت ٠ من يدرى ؟ ربما تكون دموع التماسيح ، أو لخوفها من حزن سوسن لو لم يتم عقد القران ٠

كانت سوسن فى هذه اللحظات جالسة أمام المرآة فى غرفة نوم أمها وقد ارتدت ثوب الزفاف وبصحبتها عواطف ومرجانة ٠ دخلت نظاجة الغرفة وقالت :

ـ مبروك يا سيدتى سوسن ، ألف مبروك ٠ تم عقد القران وخرج المأذون ٠

احتضنت عواطف سوسن وباستها قائلة بفرحة حقيقية
ـ مبروك يا سيدتى ٠

ـ الله يبارك فيــك ٠

قالت مرجانة بصوت متهدج أقرب الى البكاء :

ـ مبروك يا سيدتي سوسن ٠ مبروك ٠

ثم رفعت يديها ونظرت الى سقف الغرفة واردفت قائلة :

ـ رب اكتب لها السعادة ، يا رب ٠

قالت سوسن :

ـ الله يبارك فيك يا مرجانة ٠

فى هذه اللحظة دخلت الأم وقالت بصوت متهدج :

ـ مبروك يا سوسن يا حبيبتى ٠

قامت سوسن وباست أمها فاحتضنتها الأم وباستها ثم أجهشت بالبــكاء ٠

قالت سوسن ؟

ـ لماذا تبكين يا ماما ؟ هل أنت حزينة ؟

ـ لا يا حبيبتى ، لست حزينة ٠

أسرعت الأم بمغادرة الغرفة وهى تجفف دموعها ، وعواطف ومرجانة تهرولان خلفها ٠ قالت سوسن بفرح وهى ناظرة الى المرآة :

ـ هل أصبحت الآن متزوجة يا نظاجة ؟

ـ أجل يا سيدتي ، أنت الآن متزوجة ٠

ـ هل يعنى هذا أن هشاما أصبح الآن زوجي ؟

ـ أجل ٠ هو زوجك وأنت زوجته ٠

انقضت سوسن على نظاجة وباستها ثم قالت :

ـ أنا في منتهى الفرح ، ساطيع من الفرحة . هل ماما فى حالة أيضـا ؟

قالت نظاجة متلعثمة :

ـ ماما ؟ أجل ، فرحانة .

قالت سوسن وكأنها تحدث نفسها :

ـ لا يبدو عليها الفرح .

ثم صاحت بغتة قائلة :

ـ أين هشـام ؟

ـ لست أدرى يا سيدتى . سيدتى الكبيرة هى التى تعرف مكانه .

ـ أريد أن أراه . ألست الآن زوجته ؟

كانت الأم واقفة جنب باب الغرفة تنصت لحديث سوسن . دخلت الغرفة وقالت لسوسن :

ـ هيا معى يا سوسن لترى هشاما .

كان هشام قد وصل الى ذروة اليأس عندما سمع صوت المفتاح فانتفض واقفا بحركة لا ارادية ودخلت سـوسن متالقة فى ثوب الزفاف وبجوارها أمها . أسرعت سوسن الى هشـــام واحتضنته قائلة :

ـ حبيبى هشـــام .

فسحبتها أمها برفق وأجلستها بجوارها على الأريكة وطلبت من هشـام الجلوس على كرسى بالقرب منهما . نظر الى سـوسن مبتسما والتزم الصمت . شعرت سوسن برغبة قوية فى الجلوس

جنبه والامساك بيده ولكنها كبتت هذه الرغبة وظلت ناظرة اليه مبتسمة والدموع تسيل من عينى أمها · قامت الأم وسحبت ابنتها من يدها قائلة :

ـ كفى جلوسا الآن مع هشام فستشبعين جلوسا معه فى المستقبل · تعالى يا حبيبتى لأريك غرفتك الجديدة ·

سارتا معا مسافة طويلة حتى وصلتا الى غرفة لم يسبق لسوسن دخولها فلقد كانت دائما مغلقة · فتحت الأم الغرفة فاذا هى غرفة نوم أنيقة ، قالت لسوسن :

ـ ما هى ذى غرفتك التى ستنامين فيها ، هل تعجبك ؟

أخذت تدير بصرها فى أنحاء الغرفة مبهورة بجمالها وروعة أثاثها ·

اين كان هذا الأثاث ؟ انه يبدو جديداً لم تلمسه يد من قبل · ترى أكان هنا طوال هذه المدة دون أن أدرى عنه شيئاً أم اشترته والدتى لى خصيصا لهذه المناسبة دون أن اشعر بذلك لتفاجئنى به ؟

ـ غرفة جميلة جدا يا ماما ، كل ما فيها يدل على ذوق رفيع ، ولكن السرير ضيق لا يتسع لاثنين ·

ـ انه السرير الذى ستنامين عليه أنت يا حبيبتى

قالت سوسن بدهشة :

ـ الن ننام معا أنا وهشام ؟

ـ لا يا حبيبتى ، سينام هشام فى غرفة أخرى فى الجناح الآخر ·

ـ ستكون غرفته بعيدة جدا عن غرفتى ·

– وماذا يضيرك لو كانت غرفته بعيدة ؟ هل ستخافين ؟ على أية حال لن نتركك وحدك فى الغرفة . أنا أعلم أنك خائفة من هشام ، لا تحملى هما يا روحى فانا محتاطة لكل شىء ، ولذا سأقفل غرفته بالمفتاح كل ليلة بعد نومه وأفتحها له فى الصباح وأحتفظ بمفتاح غرفته معى ، ولن أتركك وحدك فى غرفتك دقيقة واحدة . فستبيت معك نظاجة طوال الليل . فهل اطمأن قلبك ؟

– ولكننى لست خائفة من هشام ، انه الآن زوجى . من قال اننى خائفة منه ؟

– اننـــا لا نعرفه حتى الآن معرفة كافية ، ومهما كان فهو رجل ، ولا ينبغى أن نأمن لجنس رجل ، فالاحتياط واجب ، وطالما أنا على قيد الحياة لن أترككما وحدكما أبدا ، لا بالليل ولا بالنهار فلا تشغل بالك وكونى مطمئنة تمام الاطمئنان .

– اننى مطمئنة ولا يشغل بالى شىء سوى حبى له والتفكير فيه . أحب الجلوس بصحبته والتحدث معه . هل توجد بنت تخاف من زوجها ؟

– كل النساء يخفن من أزواجهن . أنت ما تزالين صـغيرة لا تعرفين شرور الدنيا . لا يمكننا الاطمئنان لأى رجل الا بعد اختباره لمدة عامين أو ثلاثة أعوام على الأقل .

– وهل سنظل على هذه الحال مدة عامين أو ثلاثة ؟

– وربما أكثر ، قـد تمتد فترة الاختبار الى عشرة أعـوام أو خمسة عشر . من واجبى أن أكون حريصة على سعادتك .

– هل سيظل هشام وحده فى غرفة الصالون ؟

– هشام ذهب الى غرفته لينام واغلقت غرفته بالمفتاح فكونى مطمئنة .

ثم رفعت صوتها منادية نظاجة التى اقبلت مسرعة . قالت لهـا الأم :

– ابتداء من هذه اللحظة ستنامين مع سـوسن فى غرفتهـا ولا تتركيها وحدها لحظة واحدة ، لا بالليل ولا بالنهار ، فليس لى فى الدنيا أعز منها .

قالت نظاجة وهى مطرقة الى الأرض :

– حاضر يا سيدتى .

اعتكفت سوسن فى غرفة نومها بصحبة نظاجة . لم تشعر برغبة فى النوم فظلت مستندة بظهرها على السرير ونظاجة جالسة القرفصاء على أرض الغرفة مطرقة الى الأرض . كانت تدور فى ذهن سوسن افكار مؤلمة .

ما جدوى عقد القران ما دمنا ننام فى مكانين متباعدين ؟ وهل اغلاق الغرفة على هشام هو الشىء الذى يطمئننى ويسعدنى كما تقول والدتى ؟ ومن يدرينى ما اذا كان هشام نائما الآن فى غرفته أم فى مكان آخر لا يخطر على البال ؟ هل هو الآن فى البيت أم طردته فى ظلام الليل ؟ لابد أن شوقه لرؤيتى لا يقل عن شوقى لرؤيته . لماذا تعذبنى أمى كل هذا العذاب ؟ ولكنها طيبـة تخاف على من الرجال . لابد أنها ستدرك عن قريب أن هشاما يختلف عن جميع الرجال الذين تخاف منهم فتسمح لنا بالحياة معا حياة سعيدة . لا شك أنها تتمنى لى السعادة .

نظرت الى نظاجة فوجدتها نائمة وقد تدلت رأسها فوق صدرها . شعرت برغبة فى التحدث معها فرفعت صوتها قائلة :

ـ نظـاجة ٠

انتفضت نظاجة قائلة برعب شديد لا مبرر له :

ـ نعم يا سيدتى ٠

ـ ما رأيك فى هذه الحكاية الغريبة ؟

ـ ما غريب الا الشيطان يا سـيدتى ٠ ما هى هذه الحكاية الغريبة لا سمح الله ؟

ـ هل من المعقول أن ينام هشام وحده فى ليلة فرحه فى غرفة مقفلة بالمفتاح لا تفتح الا فى الصباح ؟

ـ يا سيدتى هذا من باب الاحتياط ٠ سيدتى الكبيرة تخاف عليـــك ٠

ـ تخاف على من ماذا ؟

ـ انها تعرف الدنيا أكثر مما تعرفينها ٠ انها من فرط حبها لـك ٠٠

انفجرت سوسن تبكى ، ففزعت نظاجة وجلست جنبها على حافة السرير وأخذت تربت على ظهرها قائلة :

ـ هل يبكى أحد ليلة فرحه ؟ انها أسعد ليلة فى عمر الانسان ، اللهم اخزك يا شيطان ٠ نامى يا سيدتى ٠ نامى لتقومى فى الصباح منتعشة ٠ نامى ربنا يفوتها على خير ٠

لم تجد سـوسن جدوى من الحديث فاستلقت على الفراش والدموع تبلل وسادتها ٠ عندما صحت نظاجة من نومها فى الصباح

وجدت سوسن مستندة بظهرهــا على السرير محملقة في سقف الغرفة · قالت لنظاجة :

ـ اذهبي يا نظاجة واخبريني ما اذا كان هشام قد صحا من نومــه ·

ـ حاضر يا سيدتي ·

عندما عادت نظاجة بادرتها سوسن قائلة بلهفة :

ـ هل صحا هشــام ؟

قالت نظاجة وهي شاردة اللب :

ـ هشـــام ؟

ـ أجل ، ومن يكون غيره ؟

ـ لم أجده في غرفته ·

ـ هل وجدت الغرفة مفتوحة ؟

ـ اجل ، الغرفة مفتوحة ولكن لا أحد فيها ·

ـ واين ذهب فى هذا الصباح الباكر ؟

ـ قد يكون قد ذهب ليجول فى الجنينة ·

فى هذه اللحظة دخلت الأم الغرفة قائلة :

ـ صباح الخير يا سوسن ·

ـ صباح الخير يا ماما · أين هشام ؟ نظاجة تقول انه غير موجود فى غرفته ·

طفرت الدموع من عينى نظاجة وخشيت أن تلمحها الأم فغادرت الغرفة · قالت الأم بنبرة تنبىء بخبر مزعج :

ـ هشـــام ؟

ـ أجل . ألا تعرفين أين ذهب يا ماما ؟

قالت الأم بصوت فيه حزن وتوكيد .

ـ لا أحد يعرف ؟

ـ أجل ، ألا تعرفين أين ذهب . هشـــام هرب من البيت يا سوسن ، هرب وتركك وأنت عروس فى صباح عرسك لتعرفى يا روحى أن كل الرجال غداروں لا أمان لهم .

شعرت سوسن بدوار وخدر فى ذراعيها . فقالت بذهول :

ـ هرب ؟ هشام هرب ؟ هرب وتركنى ؟

ثم أردفت قائلة وهى مختنقة بالبكاء :

ـ من المستحيل أن يهرب منى هشام ، لابد أنه موجود . ابحثوا عنه جيدا .

جلست الأم على كرسى بأحد أركان الغرفة ووضعت فخذهـا اليمنى فوق فخذها اليسرى وأخذت تهز ساقها اليمنى قائلة :

ـ بحثنا عنه يا روحى فى كل مكان فى البيت وفى الحديقة . أنت لا تعرفين الرجال كما أعرفهم ، فالغدر والخيانة فى دمهم . انهم يجرون خلف المرأة التى تروق فى عينهم حتى يظفروا بها ، وعندما تسكرهم نشوة الانتصار يهربون منها ، واذا لم يهربوا منها فانهم يعذبونها .

قالت سوسن باكية :

ـ لكن هشاما لا يمكن ان يهرب منى . انه يحبنى ولا يستطيع البعد عنى . انه فى انتظار هذا اليوم منذ رآنى وتحمل كثيرا وضحى كثيرا من أجلى .

ـ لم يضح من أجلك سواى يا روحى • كل الرجال كذابون • كلامهم ناعم كجلد الثعبان بصدقنه البنات المساكين • يخيل الى أن هشاما هذا قد تراهن مع أحد أصدقائه على استطاعته الوصول اليك وعقد قرانه عليك وذهب ليخبره أنه كسب الرهان ، وانتهى الأمر فنسيك ولم يعد يذكر عنك شيئا ولن يفكر فيك بعد ذلك •

ـ هذا غير معقول • أنا لا أصدق أن هشاما ينسانى • لابد أن أراه وأكلمه • لا أتصور اننى لن أراه • سأجن لو لم أراه •

ـ ولكنه لا يريد أن يراك يا حبيبتى • هرب وتركك ، ومن نسيك انسيه ولا تفكرى فيه • لقد خدعك وخدعنا فيه • قلبي كان يحدثني بذلك • هذا هو اليوم الذى كنت أخشاه •

ـ اريد أن أراه حتى ولو لم يكن يرغب فى رؤيتى • لا أستطيع البعد عنه • اننى احبه • أحبه بكل قلبى ، وقلبى يحدثنى بأنه من المستحيل أن يهرب منى •

ـ وأين ذهب اذن اذا لم يكن قد هرب منك ؟

ـ لست ادرى ، سأذهب لأبحث عنه •

ـ هل تريدين التأكد من هروبه كما تأكدت أنا ؟

صاحت سوسن قائلة :

ـ لا ، لا أريد أن أتأكد ، لا اريد التأكد من هروبه منى • لا أستطيع تصديق ذلك ، لا أستطيع •

أخذت تنادى بأعلى صوتها قائلة :

ـ نظاجة ، عواطف ، مرجانه •

أسرع الخدم بتلبية النداء · قالت سوسن باكية :

ـ تعالين انظرن ماذا جرى لى ·

قالت عواطف بلهفة :

ـ ما بك يا سيدتى ؟ سلامتك ·

ـ هل تصدقن أن هشاما يهرب منى ؟ انه لم يهرب منى ، أليس كذلك ؟ طمئنننى · لابد أننا سنجده هنا ·

لم تستطع عواطف السيطرة على مشاعرها فسالت الدموع من عينيها ، وحاولت نظاجة مسح دموعها بسرعة ولكن سوسن لمحتها فقالت :

لماذا تبكين يا نظاجة ؟ تكلمى · أين ذهب هشام ؟

أسرعت الأم قائلة :

ـ ألم نبحث عنه فى جميع أنحاء البيت وفى الحديقة قبل أن تصحو سوسن من النوم فلم نجده يا نظاجة ؟

قالت نظاجة باكية :

ـ أجل يا سيدتى ، ولكننى أرثى لحال سيدتى سوسن ·

صاحت الأم قائلة :

ـ لماذا ترثين لحالها ؟ شخص خائن غادر هرب ، هل هذا شىء يدعو للحزن والرثاء ؟ فليذهب فى ستين داهية · من الواجب أن تباركن لهـا ·

التزمت الخادمات الصمت مطرقات الى الأرض ، فصـاحت الأم قائلة :

ـ ما بالكن صامتات كالأصنام ؟ هل فقدتن النطق ؟ أمرتكن أن تباركن لسوسن ·

قالت نظاجة باكيـــة :

ـ مبروك يا سيدتي سوسن ٠

وقالت عواطف وهي تجفف دموعها :

ـ مبروك يا سيدتي ٠

وقالت مرجانة :

ـ مبـــروك ٠

وقالت الأم :

ـ ذهب في داهية ٠

صاحت سوسن قائلة بانفعال هستيري :

ـ لا ، لا ، لا يا ماما ، لا تقولي هذا ٠ مستحيل أن يهرب مني هشام مستحيل ٠ سأذهب لأبحث عنه ٠

انطلقت تعدو في أنحاء البيت بلا نظام كعصفور يحاول الخروج من زجاج نافذة فيصـــطدم رأســـه ويعاود الكرة المرة بعد المرة بلا جدوى ٠ كان جسدها ينتفض وهي تنادي هشاما بأعلى صوتها :

ـ هشام ، هشام ، هشام ، أين أنت ؟

وظلت تنادي دون أن تسمع لندائها أية استجابة ، فهبطت الى الحديقة تواصل النداء حتى أضناها الارهاق ٠ صعدت السلم وكأنها تصعد جبلا حاملة على كتفيها أحزان جميع البشر ٠ وجدت أمها جالسة في البهو ٠ قالت لها الأم بسخرية :

ـ هل عثرت على هشام يا روحي ؟

قالت سوسن وهي مختنقة بالبكاء :

ـ لم أجده ، ولكنه لم يهرب مني ٠

ثم أردفت قائلة باستعطاف :

– أبوس يدك يا ماما ارحمينى وأعطنى مفتاح البوابة ٠

قالت الأم بدهشة وفزع :

– مفتاح البوابة ؟! لماذا يا حبيبتى ؟

– سأبحث عنه فى كل الدنيا ٠ أريد أن أكلمه لأعرف ذنبى ٠ لكن من المستحيل أن يتركنى هشام ٠

ثبتت الأم عينيها فى عينى سوسن بضع لحظات ثم قالت :

– هل تريدين التأكد من هروب هشام ؟ سأريك الآن ما يثبت ذلك ٠

انخرطت سوسن فى البكاء وصاحت قائلة :

– لا ، لا يا ماما ، لا أريد أن أتأكد ٠

ثم تجاهلت الأم كلام ابنتها وقالت :

– تعالى معى يا روحى ، تعالى وسأريك الشيء الذى أكد لى هروبه من البيت ٠

هبطتا السلم الخارجى وسارت سوسن جنب أمها وكأنها سائرة نحو تنفيذ حكم الاعدام حتى وصلتا الى المكان الذى اعتاد هشام الهبوط فيه بواسطة الحبل ٠ دهشت سوسن عندما وجدت الحبل معلقا فى السور ٠

هذا غير معقول ٠ من الذى ألقى بهذا الحبل فوق السور ؟ انه الحبل الذى بحثت عنه فلم أجده وهو غير الحبل الذى أحضره هشام معه عندما جاء آخر مرة سرا قبل أن تسمح له والدتى بالدخول

من البوابة · من المستحيل أن يكون قد عثر على هذا الحبل الذى لم أستطع أنا العثور عليه · الحبل الذى أحضره معه آخر مرة كان على هيئة سلم ولقد أخذه معه بعد أن استخدمه فى تسلق السور عند مغادرته البيت ، ودخل أمس عن طريق البوابة ولم يحضر معه حبلا · هل وجد هذا الحبل فى الغرفة التى نام فيها ؟ واذا فرضنا ذلك ، وهو بعيد الاحتمال ، فمن الذى ثبته فى الشجرة التى خارج السور ؟ انه فى الغالب غير مثبت فى هذه الشجرة · معنى هذا أن والدتى لا تقول الحقيقة · انها تخفى عنى شيئاً رهيباً ، ولكننى لا أستطيع اتهامها بذلك · انها بدلا من أن تثبت لى هروب هشام أثبتت [illegible] ، هنا فى البيت · ترى أين هو الآن وماذا حدث له ؟

قالت الأم :

ـ فيم تفكرين يا حبيبتى ؟ انظرى ، أليس هذا حبله ؟ انه كما دخل البيت بهذا الحبل هرب بالحبل نفسه ، انه يا روحى معتاد على تسلق الأسوار ·

لم تدر سوسن ماذا تقول ، فقالت بعد فترة تردد :

ـ ولكنه أحضر الحبل ليلتقى بى ومن المستحيل أن يستخدمه ليهرب منى ··

ـ القلب الذى يحب من الممكن أن يكره ·

صاحت سوسن قائلة وقد اختنقت بالبكاء :

ـ لا يا ماما ، القلب الذى يكره هو الذى يعجز عن الحب ، ولكن القلب الذى يحب من المستحيل أن يتغير فى يوم وليلة ·

قالت الأم :

ـ كل شيء ممكن يا حبيبتي · القلب الذي يحب من الممكن أن يكره · العصفور يكون مع العصفورة في عش واحد ، وبغتة يتركها ويطير الى عش آخر · انسيه يا روحي ولا تفكري فيه · عودي سعيدة كما كنت قبل رؤية خلقته · اجري وغني وتأرجحي وعومي في حمام السباحة · اكرهيه يا حبيبتي · اعتبري هذه الفترة كابوسا وصحوت منه ·

ـ كيف أكرهه وأنا أحبه ؟

ـ اذا كنت تحبينني اكرهيه من أجل خاطري · أريد أن أبعد عنك جميع الأحزان · هل من المعقول أن يعيش أي انسان في هذا النعيم ويحزن ؟

ـ لا أريد هذا النعيم · لا أريد الجواهر والحرير · لا أريد كل هذه الحدائق ، لا أريد هذا القصر ، ولكنني أريده هو · اريد هشاما · الجنة بدونه تصبح جحيما · المكان الذي نعيش فيه معا هو الجنة · أشعر كأنني أحترق · أنا أحترق يا ماما ·

انخرطت في بكاء عنيف وأخذت تنادي :

ـ يا نظاجة ، يا عواطف ، يا مرجانة ، أنقذنني من العذاب ، أطفئن النار التي في قلبي · حرام عليكن ، قلبي يحترق · انه يحترق يا ماما ·

في مثل لمح البصر ظهرت الخادمات اللائي كن مختبئات خلف الأشجار ينصتن الى الحوار الدائر بين الأم وسوسن ·

قالت نظاجة وهي تمسح دموعها :

ـ كفى بكاء يا سيدتى · لو يرجعه البكاء لبكينا جميعاً معك · انسيه يا سيدتى · انسيه ·

قالت سوسن مختنقة بالبكاء :

ـ كيف أنساه ؟ لو نسيت اسمى ونسيت نفسى ونسيت جميع الأيام التى مرت من عمرى فلن أنساه ولن أنسى اللحظات التى أمضيتها معه ·

وهل أمضيت معه وقتا يذكر يا سيدتى ؟

ـ هذا سبب حزنى · انه كالنور الذى ومض فى حياتى فأضاءها لحظة ثم انطفأ وتركنى أعيش فى ظلام · كان كحلم صحوت منه قبل أن يكتمل · هل تعتقدين يا نظاجة أن هشاما هرب منى حقيقة ؟

ـ ان لم يكن قد هرب فأين ذهب ؟ ألم ترى يا سيدتى الحبل الذى هرب عن طريقه وما زال ملقى فوق السور ؟

ـ عندما رأيت الحبل هيىء لى أنه ألقاه على السور ليحضر لى لا ليهرب منى · نظاجة ·

ـ نعم يا سيدتى ·

ـ أليس من الممكن أن يكون قد نسى شيئاً فى بيته وذهب لاحضاره وسيعود ؟ خطرت لى هذه الفكرة الآن · سأظل فى انتظاره فى هذا المكان · لابد أنه سيعود ·

قالت الأم :

ـ لا يا روحى ، لن يرجع أبدا ·

- لماذا تقولين انه لن يرجع ؟ كيف عرفت ذلك ؟

- ليس من المعقول يا روحى أن يعود مرة أخرى .

- ولمـــاذا ؟

- لو كانت فى نيته العودة لما صحا مبكرا وقفز من السور كاللص لو كان الأمر كذلك لأنتظر حتى نصحو من نومنا وخرج من الباب كما يفعل خلق الله .

نظرت سوسن الى نظاجة وقالت وكأنها تستنجد بها :

- هل تعتقدين ذلك يا نظاجة ؟ أتظنين أنه لن يعود ؟

ولم تنتظر اجابة نظاجة فالتفتت الى أمها وقالت :

- وجما لم يشأ أن يوقظنا من نومنا لئلا يتعبنا ، فهو رقيق ، رقيق المشاعر ، لم أر فى حياتى أرق منه .

قالت نظاجة محركة رأسها يمينا ويسارا :

- وهل رأيت غيره يا سيدتى ؟

قالت الأم بنبرة عتـاب :

- أحقيقة لم ترى من هو أرق منه يا سوسن ؟ وحبى وحنانى ولهفتى عليك طوال حياتك ألم تعوضك عن شخص كهذا لا نعلم عنه أى شيء ؟ كان يخدعك منذ رآك وعرفت الآن أنه كذاب حقير دنيء النفس . كنت أخاف عليك من يوم كهذا . لم أكن أحب أن يدخل الحزن قلبك . لا يوجد يا حبيبتى ما هو أرق وأحن من قلب الام .

سحبت الأم سـوسن من يدهـا واتجهتا نحو مبنى البيت والخادمات الثلاث سائرات خلفهما . فى نحو العاشرة مساء تسللت

سوسن الى الحديقة وجلست على المقعد الذى اعتادت الجلوس فوقه عندما كانت تنتظر قدوم هشام . كانت تمر عليها لحظات يخيل فيها أنها سترى هشاما قادما اليها عن طريق الحبل الذى ما زال ملقى فوق السور ، وفى لحظات أخرى تخشى أن تكون أمها هى التى طردته من البيت فتشعر بيأس مرير وحزن يعتصر قلبها ، وفى تأرجحها بين الاحتمالين شعرت بدوار فاستندت برأسها على كفيها ، وما كادت تفعل ذلك حتى سمعت صوت أمها خلفها تناديها :

ـ سوسن .

ففزعت كعادتها عندما تسمع صوتا مفاجئا وانتفضت قائلة :

ـ نعم يا ماما .

ـ هل ستبقين طوال الليل جالسة فى هذا المكان ؟ متى ستنامين ؟

قالت سوسن وهى مطرقة الى الأرض :

ـ لا أشعر برغبة فى النوم . سأظل هنا جنب السور ، قد يشتاق لرؤياى فيعود .

جلست الأم جنب ابنتها وأحاطت كتفها بذراعها وقالت :

ـ لو بقيت جالسة يا روحى فى هذا المكان حتى نهاية العمر ، لن تريه ، أنا أعلم أنه لن يعود . الرجال جبناء وأنذال ، عندما يهربون لا يعودون ، فلا تأملى فى المستحيل .

قالت سوسن بلهفة وفرح :

ـ ها هو ذا قادم . أسمع صوت حفيف أوراق الشجرة التى خارج السور . هل تسمعين ؟

ـ لا يا حبيبتى ، انه صوت الهواء يهز غصون الشجر ٠

طأطأت سوسن رأسها وقالت بصوت ضعيف :

ـ ظننته هـو ٠

ـ لا يا روحى ، ليس هو ٠ يؤلمنى حزنك ويعذبنى ٠ انسى كل هذا من أجلى ٠ عندما أراك حزينة هكذا أشعر بقلبى يتقطع ٠ لا تعذبينى يا سوسن ٠

ـ أنا التى أتعذب ٠ لو وزع حزنى على كل الناس لأحزنهم جميعاً ٠ قلبى صغير لا يتسع لكل هذا الحزن ٠

ـ يسلم قلبك يا حبيبتى ٠ هيا معى لتنامى ٠ ستنسين كل هذا مع مرور الأيام ٠ مرور الأيام يداوى جراحا عديدة ٠

ـ اذا تركت هذا المكان فماذا يصنع لو أتى ولم يجدنى ؟

ـ قلت لك يا روحى انه لن يحضر ، أنا اكبر منك واكثر خبرة بغدر الرجال ٠

(٢٣)

قامت الأم ولفت ذراعها حول خصر ابنتها التى سارت معها منكسة الرأس يعذبها بريق خافت من الأمل ما زال يومض فى ظلام الأفكار التى تعربد فى ذهنها ٠ دخلت الأم غرفتها ودخلت سوسن غرفة نومها دون أن تشعر بالمسـافة التى قطعتها ٠ وجدت نظاجة جالسة على السجادة متكئة على السرير وقد غلبها النوم ٠ لم تشأ سوسن أن تزعجها فصعدت الى الفراش بحرص شديد واستندت بظهرها على السرير وظلت محملقـة فى سـقف الغرفة عاجزة عن التفـكير فى أى شيء فلقد تداخلت الأفكار فى ذهنها كما تتشـابك

قضبان سكك حديدية تنطلق فوقها قطارات فى شتى الاتجاهات ، تتلاقى وتفترق وتتصادم بلا قيادة أو تنظيم ·

أخرجها من تلك الدوامة بغتـة صوت نظاجة عندما سمعتها تقول :

ـ أما زلت صاحية يا سيدتى ؟ متى تنامين ؟

بصوت خافت قالت :

ـ لا اشعر بالنـوم يا نظاجة ، كلما هممت بالنـوم يوقظنى الحزن ·

ـ لو كنت مكانك يا سيدتى لما فكرت فيه · لماذا تعيرينه كل هذا الاهتمام ؟

ـ لست أدرى ، ولكنى كنت اشـعر بالفرحـة وأنا معـه وينتابنى الحزن عندما يغيب عنى · كنت أجد لذة فى التفكير فيه قبيل النوم لأراه فى أحلامى ·

ـ نامى فقد ترينه فى الحـلم ·

ـ غفت عينى لحظة قصيرة الآن وبدلا من رؤيته رأيت ماما · حتى فى الحلم أصبحت رؤياه بعيدة المنـال ·

ـ وماذا رأيت فى هذا الحلم ؟

ـ الحلم نفسه الذى يتكرر ، رأيت حمام السباحة ممتلئا بالعسل بدلا من الماء ، وأنا سابحة فى العسل ، وماما واقفة عند حافة الحوض تقول : « كل هذا العسل من أجلك يا روحى · كلى منه واسبحى فيه ، لقد أحضرته خصيصا لك » · وذقت العسل فوجدته مرا ·

- ما هذه الهلاوس التى لا معنى لها يا سيدتى ؟ هل يوجد عسل مر ؟

- لست أدري لماذا أرى هذا الحلم مراراً .

نطقت نظاجة بهذه الكلمات ثم أسندت رأسها على السرير وبعدلحظات كانت تحلم أن شابا وسيما يطاردها فى الحديقة وهى تضحك وتختبىء منه بين الأشجار ، ثم تطل من خلف الشجرة وتبتسم له فيعود لمطاردتها من جديد ، ولكن سوسن لم تستطع النوم فظلت ساهرة . نادت نظاجة فلم تستيقظ .

نظاجة نامت ، انها تبتسم وهى نائمة فلا حزن فى قلبها كالحزن الذى يملأ قلبى . لايوجد فى الدنيا من هو اكثر حزنا منى .

أمسكت سوسن كتف نظاجة وهزتها هزة قوية قائلة :

- نظاجة .

صحت نظاجة من نومها مرعوبة وقالت بلهفة :

- نعم يا سيدتى ؟

- سأموت من الحزن يا نظاجة سأخرج لأبحث عن هشام .

- وأين تبحثين عنه فى هذا الظلام ؟

- فى الجنينة .

- لقد بحثنا عنه فى كل مكان .

- ولكننى أحب أن أبحث عنه . بحثى عنه يشعرنى بشىء من الأمل وأنا لا أريد أن افقد الأمل . سأظل ابحث عنه طوال حياتى .

- واصلى البحث عنه فى النور عندما يطلع النهار .

ـ اذا كنت تحبيننى يا نظاجة أحضرى الفانوس ونخرج معا للبحث عنه فى الجنينة • هل تفعلين هذا من أجلى يا نظاجة ؟

ثم أردفت قائلة وقد اختنقت بالبكاء •

ـ لو لم أكن خائفة لذهبت للبحث عنه بمفردى •

ـ حاضر يا سيدتى ، لا تحزنى ، سأذهب لاحضار الفانوس ونذهب الى الجنينة لنبحث عنه معا •

لم تستطع نظاجة السيطرة على عاطفتها فانفجرت تبكى قالت سوسن بدهشة :

ـ هل تبكين من أجلى يا نظاجة ؟ أنت حنون طيبة القلب •

قالت نظاجة وهى تجهش بالبكاء :

ـ قلبى يتقطع من أجلك ، لم يعد فى استطاعتى اخفاء الحقيقة •

ـ ما هى الحقيقة التى تخفينها عنى يا نظاجة ؟

ـ هشام •

قالت سوسن بلهفة وفزع :

ـ ما به ؟ ما به يا نظاجة ؟

ـ هشام هنا فى البيت ، لم يهرب منك •

ـ هشام هنا فى البيت ؟ أين ؟ أين يا نظاجة ؟

ـ محبوس فى احدى الغرف •

ـ ومن الذى حبسه ؟

ـ والدتك •

ـ ماما هى التى حبسته ؟ لماذا ؟ هل تعلمين مكانه ؟

ـ نعم ، أعرف الغرفة المسجون فيها ·

ـ لا أستطيع تصديق هذا ·

ثم أردفت قائلة وهى مختنقة بالبكاء :

ـ أكنت تعلمين ذلك وتتركيننى أتعذب ؟ أريد أن أراه وأكلمه ·

ـ المفاتيح مع والدتك ، لو أمكنك احضار حقيبة المفاتيح فسترينه وتتحدثين معه ·

انتفضت سوسن واقفة وقالت :

ـ سأذهب للبحث عن المفاتيح · سأحضر جميع المفاتيح من غرفة ماما ·

ـ ولماذا فعلت به هذا وتقول انه هرب منى ؟ لماذا تعذبنى ماما كل هذا العذاب ؟ سأذهب لاحضار جميع المفاتيح ، وسأحضر مفتاح البوابة الكبيرة أيضاً · لو أمكننى اخراج هشام من سجنه فلن نبقى فى هذا البيت لحظة واحدة ، لا أنا ولا هو · سنخرج معا الى الدنيا الواسعة · ساعدنى يا رب ·

كان باب غرفة نوم الأم موارباً ، أطلت منه سوسن فوجدت أمها نائمة على الجانب الأيمن وظهرها متجه نحو الباب · كانت الغرفة مضاءة بشمعة على وشك الانتهاء · ظلت سوسن مترددة فى الدخول فترة قصيرة · ثم دخلت واتجهت مباشرة نحو ضلفة الصوان التى سبق لها ان رأت أمها تفتحها لتضع حقيبة المفاتيح على أحد رفوفها · جذبت مقبض الضلفة ففتحت · نظرت الى أمها نظرة خاطفة فرأتها لم تتحرك عن الوضع الذى كانت عليه · بحثت سريعا عن الحقيبة وجدتها فى أسفل الصوان فأخذتها بحرص شديد حتى لا تحدث المفاتيح التى بداخلها أى صوت ، ولكن يدها اهتزت

فصدر صوت خافت سمعته سوسن من فرط خوفها وكأنه صوت ناقوس ضخم · بحركة لا ارادية التفتت نحو والدتها وجدتها تنقلت على الجانب الأيسر ، فشعرت برجفة وكادت تسرع باغلاق الصوان وتلوذ بالفرار ، ولكنها رأت عيني أمها مغمضتين وفمها مفتوحا وبدت كأنها تتنفس من فمها · أخذت الحقيبة واقفلت ضلفة الصوان · أسرعت بمغادرة الغرفة وهرولت نحو غرفتها فدخلتها وهي تلهث· بادرتها نظاجة قائلة بصوت هامس خائف :

ــ أين المفاتيــح ؟

ــفي هذه الحقيبــة ·

اختطفت نظاجة الحقيبة من سوسن وحاولت فتحها وقالت :

ــ ولكن الحقيبة مقفلة بالمفتاح ، اين مفتاح الحقيبة ؟

قالت سوسن شاعرة بيأس وخيبة أمل :

ــ لست أدرى · لا أعرف موضع مفتاحها فكيف نفتحها ؟

قالت نظاجة بعد لحظة تفكير :

ــ نكسرهــا ·

لم تجد نظاجة صعوبة في كسر الحقيبــة التي وجدت بها تسعة مفاتيح مختلفة الأشــكال والحجوم ، أكبرها مفتــاح بوابة البيت · أحضرت نظاجة فانوسا وأوقدت شمعته وحملت الحقيبة بحرص وأسرعت الخطى نحو الغرفة المسجون فيها هشام ، وسوسن تهرول خلفها · كانت الغرفة بالبدروم ·

أخذت نظاجة تجرب المفــاتيح لفتح باب الغرفة وفي رابع محاولة فتح الباب · ما كادتا تفرحان بهذا الانتصار حتى فوجئتا بوجود باب آخر لابد من فتحه ، اذ ان باب الغرفه مردوج·أخذت نظاجة تجرب المفاتيح من جديد وفي المرة السابعة فتح الباب ·

ما كادتا تفتحان الباب حتى فوجئتا بصوت هشام يصيح قائلا في ذعر :

ــ من ؟ من القادم ؟

رأت سوسن هشاما نائما على كنبة جنب جدار الغرفة · انخرطت في البكاء عندما رأته وصاحت قائلة :

ــ هشام ؟!

كان يتوقع رؤية الأم ، فكانت المفاجأة مذهلة عندما رأى سوسن ، فصاح قائلا :

ــ سوسن ؟! سوسن حبيبتى ؟!

تغلب هشام على الضعف الذى كان يسرى فى جسده ونسى الأحزان والآلام النفسية العنيفة التى عصفت به طوال هذه الوحدة ووجد نفسه واقفا فى الغرفة ممسكا بيد سوسن وكأنه يريد التأكد من وجودها ولم يجد ما يقوله · قالت سوسن :

ــ أحضرت معى مفتاح البوابة ·

قال هشام غير مدرك لمعنى هذه الجملة :

ــ مفتاح البوابة ؟

قالت سوسن بتصميم وحسم لم تعهده فى نفسها من قبل :

ــ نعم ، لابد أن نغادر هذا البيت بأسرع ما يمكن ·

قال هشام شاعرا بعدم القدرة على التركيز :

ــ هل سنكون معا ؟

ــ نعم · لم أعد أرغب فى البقاء هنا بعد هذه الأحداث ·

قالت نظاجة :

ـ وأنا معكم ، رجلى على رجلكم . أنا خائفة من هذا البيت .

قالت سوسن :

ـ هيا بسرعة قبل أن يشعر بنا أحد .

سبقتهما نظاجة ، وفى بضع خطوات قفزت درجات سلم البدروم وتأكدت من عدم وجود من يستطيع رؤيتهم ، ثم أشرت اليهما فصعدا . أخذت نظاجة المفتاح من سوسن وأسرعت نحو البوابة وهما يهرولان خلفها . بلغت دقات قلبها أقصى سرعتها وهي تدير المفتاح فى القفل وتجذب الباب نحوها .

عندما فتحت البوابة رأت سوسن العالم الخارجى لأول مرة فى حياتها . خرجت من باب البيت وكأنها خارجة من بطن أمها . قبضت على ذراع هشام بقوة وكأنها تستنجد به . تركت نظاجة المفتاح فى مكانه من الداخل وجذبت الباب نحوها من الخارج حتى ردته الى مكانه وتركته غير مغلق بالمفتاح . شعرت سوسن بمزيج من الخوف والفرح والحزن والقلق ، ومشاعر أخرى لا عهد بها من قبل . أخذت تدير بصرها فى أنحاء المكان وكأنها فى حلم انتزعها منه هشام عندما قال :

ـ هيا نسرع الى المحطة لنلحق القطار .

انطلق الجميع نحو محطة السكة الحديد وأمسك هشام بيد سوسن ونظاجة تمد الخطى خلفهم . حانت من سوسن التفاتة نحو منزلهم فطفرت من عينيها بضع قطرات من الدموع وقالت :

ـ أنا خائفة .

ضغط هشام على يدها قائلا :

ـ لا تخافى ما دمت معى . مم تخافين ؟

ـ من الدنيا . هذه أول مرة فى حياتى أخرج فيها من البيت .

ـ الخروج من هذا البيت لا يدعو للخوف ، بل دخوله هو المرعب .

ـ لم أكن أتصور أن ماما تفعل كل هذا وتقول لى انك هربت منى وتتركنى أتعذب كل هذا العذاب .

توقف هشام عن السير ونظر الى سوسن بدهشة قائلا :

ـ هل قالت لك والدتك اننى هربت منك ؟

ـ أجل . قالت انك خائن هربت منى وأرتنى الحبل الذى ادعت أنك تركته فوق السور بعد هروبك .

استأنف هشام سيره قائلا :

وهل من المعقول أن أهرب منك يا سوسن ؟

ـ هكذا قالت لى ، ولكن قلبى قال لى انك لم تغادر البيت . كيف أدخلتك فى تلك الغرفة التى وجدناك فيها ؟

ـ قالت لى انك فى انتظارى هناك فصدقتها وذهبت معها لأراك . وعند دخولى أسرعت باغلاق الأبواب وتركتنى وحيداً .

ـ كدت أموت من الحزن . نظاجة هى التى اخبرتنى أن ماما سجنتك فى هذه الغرفة ، ولو لم تبح لى بهذا السر لظللت أبحث عنك طوال حياتى .

قالت نظاجة :

ـ أجل ، أرشدتها الى مكانك ، فلقد رق لها قلبى . لم أحتمل رؤيتها وهى تتعذب وخفت عليها من الموت أو الجنون . كنت أراها

تحترق ولا أجرؤ على اطفـاء نارها خوفـا من سيدتى الكبيرة ، ثم خطرت لى فكرة افشاء السر والهرب من هذا البيت · ولو اننى لا اعرف لى مكانا أذهب اليه ، فالسيدة الكبيرة تختار خدمها من المساكين أمثالى الذين لا أقارب لهم ولا معارف ولا أصدقاء ·

ـ الى أين نحن ذاهبون الآن يا هشام ؟

ـ الى القاهرة · لى بيت فى الاسكندرية ولكن القاهرة مدينة كبيرة من الممكن أن نذوب فيها فلا يتعرف أحد علينا بسهولة · لى صديق حميم هناك ، فى حلمية الزيتون ، نظل عنده فترة من الوقت حتى نرتب أمورنا ·

اختلطت فى ذهن سوسن ذكريـات عديدة فوجدت نفسها تبكى · قال هشام بفزع ولهفة وهو يربت على ظهرها ·

ـ لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ من المفروض أن تفرحى لتخلصنا من الكابوس المروع الذى كنا فيه ·

قالت سوسن بصوت متهدج :

ـ ماما ستحزن عندما تصحو فلا تجدنى فى البيت ·

قالت نظاجة :

ـ ستنسى مع مرور الأيام ، ألم نقـل لك ان كل شىء من الممكن أن ينسى ؟

ـ لا ، لن تستطيع نسيانى · كنت أتمنى أن نعيش جميعاً معـاً ·

ثم التفتت الى هشام وأردفت قائلة :

ـ ولكن هذا مستحيل بعد الذى فعلته بك ·

قال هشـــام :

ـ والدتك يا سوسن تحب نفسها أكثر من أى شخص آخر فى الدنيـا ٠

ـ ولكنها تحبنى حبـا عميقا ٠

ـ لو كانت تحبك حبا حقيقيا لما صممت على حبسك طوال حيـاتك فى هـذا البيت ومنعك من الزواج بهذه القسوة وذلك التصميم ٠ انها تود أن تضعك أمامها وتتفرج عليك وكأنك تحفة من تحف البيت ٠ لا تحب أن يكون لك اى فكر أو احساس ، انها كما يحاول منع دوران الأرض حول الشمس أو منع توالى الليل والنهار ٠

قالت بصوت متهدج :

ـ لقد فعلت ذلك لخوفها على من الرجال ٠ كانت تريد أن تجنبنى العـذاب ٠

ـ وهل جنبتك العذاب ؟ كل البنات يتزوجن ، قد يشقى بعضهن ولكن الملايين يسعدن ٠ هل رأيت فى حياتك شجرة تنمو مقلوبة ، جذورها الى أعلى وغصونها الى أسفل ؟ هذا مستحيل ، فالأشجار لابد أن تنمو نموا طبيعيا ، تضرب بجذورها فى الأرض وتترك غصونها وأوراقها فى الهواء حتى لا تختنق وتموت ، ولو ظل الانسان طوال حياته ينطح صخرة لما كسرت الصخرة ، رأسه هى التى ستنكسر ٠

ـ اعتدت تصديق كل ما تقوله ماما ٠ كنت أعتقد أنها صادقة فى كل ما تقوله ، ولكن اتضح لى الآن أن الأمر ليس كذلك ٠

توقفت سوسن عن الحديث وهى سائرة جنب هشام ، وفى فترة الصمت هذه ازدحم راسها بأفكار وذكريات عديدة ، وبغتة التفتت نحو هشام وقالت :

ـ هشام ٠

ـ نعم يا حبيبتى ٠

ـ اريد أن اعرف أين أبى ٠

نظر اليها هشام بدهشة وقال :

ـ الم تخبرينى أنه توفى ؟

ـ هكذا قالت لى والدتى ، ولكننى الآن بدأت أشك فى هذا أيضا ٠ قلبى يرفض تصديقه ٠ لست أدرى لماذا يخيل الى أن أبى على قيد الحيـاة ٠

ـ لقد ذكرت لى انك لا تعرفين عنه شيئا ٠ حتى اسمه لا علم لك بـه ٠

ـ نعم ، لا أعرف اسمه ، طلبت ذلك من ماما ولكنها رفضت طلبى ، لست أدرى لماذا ؟! ليتنا نبحث عنه فقد نجده ٠

ـ وكيف نبحث عنه فى هذه الدنيا الواسعة يا حبيبتى ٠

أخذت سوسن تدير بصرها حولها وقالت :

ـ حقيقة الدنيا واسعة ، لم أكن أتصور أنها بهذا الاتساع ٠ لابد أن فى الدنيا كثيرا من الناس ٠

ـ ملايين من البشر ، فكيف نكتشف والدك من بين هذه الملايين ونحن لا نعلم مجرد اسمه ٠

ـ طوال حياتي أسمع من ماما حكايات مرعبة عن أبي · يخيل الى الآن انها لم تكن حقيقية · عندما رأيتك وأحببتك شعرت بحب قوى لأبي في الوقت ذاته لا أدرى له سببا · أشعر الآن برغبة شديدة في رؤيته ومعرفة ما اذا كان حيا أم ميتا ·

ـ هذه أسرار لا تعرفها سوى والدتك ولن نستطيع نحن معرفتها ·

ـ لابد أن نبحث عنه · هل تعدني بأنك ستبحث عنه ؟

ـ سأبذل كل جهدى ، فمعرفته تهمنى أنا أيضا ·

قالت بدهشة وقد اتسعت عيناها كعينيى طفل برىء :

ـ ولماذا تهمك أنت معرفته ؟

ـ تهمنى ، بطبيعة الحال ، معرفة والد البنت التى أحببتها وتزوجتها وأكون سعيدا لو عثرت عليه ·

ثم أردف قائلا وفى حديثه مرارة وسخرية :

ـ لم أر حتى الآن سوى والدتك ·

ظلوا بعد ذلك صامتين حتى وصلوا الى مبنى المحطة · أسرع هشام باحضار تذاكر السفر ووقف الثلاثة على الرصيف فى انتظار قدوم القطار · كان القلق يعصف بهم ، ولكن نظاجة كانت تبدو أشدهم قلقا · كانت عيناها مصوبتين نحو الطريق متوقعة أن ترى فى أية لحظة شخصا أو أشخاصا قادمين من ناحية البيت أرسلتهم السيدة الكبيرة للقبض عليهم والانتقام الرهيب منها ومن هشام · كانت اللحظات تمر عليهم وكأنها أعوام وهشام دائم النظر الى ساعته · لاحظ أن السيمافور مفتوح فتوقع قرب وصول القطار ، وكانت نظرات سوسن دائمة التنقل بين الساعة التى فى معصمها والطريق الطويل المؤدى الى بيتها ·

بغتة ، أقبل القطار بهدوء وقد انطلق منه صفير يعلو شيئا فشيئا . هز الرعب كيان سوسن فالتصقت بهشام صائحة وقد شحب لونها :

ـ ما هذا الشيء المرعب القادم نحونا يجرى ويصفر ؟ هل هو الغول ؟ أنا خائفة .

أحاط هشام كتفي سوسن بذراعه وقال :

ـ هذا هو القطار الذى سينقلنا بعيدا عن هذا المكان . ألا تعرفين شيئا عن القطارات ؟

ـ من أين لى معرفة هذه الأشياء وأنا لم أخرج من باب بيتى إلا اليوم ؟

وقف القطار جنب الرصيف فأمسك هشام بيد سوسن وانطلق بها نحو باب احدى عربات القطار ونظاجة خلفهما تتلفت فى جميع الاتجاهات وعيناها تفحصان كل غاد ورائح . جلست سوسن جنب هشام وجلست نظاجة أمامهما ، وما أن تحرك القطار حتى وجدت سوسن نفسها تبكى . قال لها هشام :

ـ ما بك يا حبيبتى ؟ لماذا تبكين ؟

ـ لست أدرى ، أشعر بشيء يشدنى نحو البيت وشيء يدفعنى بعيدا عنه .

لاحظ هشام أن سوسن لا تجد ما تجفف به دموعها فأعطاها منديله قائلا :

ـ أنا أيضا كنت فى يوم من الأيام أحب هذا البيت فلقد أمضيت فيه طفولتى . وعندما رأيتك فيه فيما بعد كانت عيناى

تراه أجمل مكان في الدنيا ، ولكنني الآن لا أطيق رؤيته ، وأنت أيضا ينبغي أن تكرهيه ٠

فزعت سوسن عندما رأت عربة القطار قد امتلأت بالرجال فقالت :

ـ هل الرجال كثيرون هكذا ؟! ان أشكالهم مختلفة ٠ ماما كانت تقول ان كل الرجال متشابهون وان وجوههم جميعا مخيفة ٠

ـ هأنت ذى ترين بنفسك أن كلامها كان بعيدا عن الحقيقة ٠

أطرقت الى الأرض فترة ثم قالت دون أن ترفع رأسها :

ـ يخيل الى أن أبى مظلوم ٠

شعروا بشيء من الاطمئنان عندما وصلوا الى القاهرة وهبطوا من القطار وقد خيل لسوسن انها انتقلت الى كوكب آخر من الكواكب المتناثرة في الفضاء الفسيح ٠ بغتة استولى عليها خوف غامض فقالت وهى ترتجف :

ـ أنا خائفـة ٠

ـ مم تخافـين ؟

ـ من النـــاس ٠

ـ ولماذا تخـافين من النـاس ؟ وجود النـاس فى أى مكان لا يدعو للخوف بل للاطمئنان ٠

ـ كلهم ينظرون الى ، لست أدرى لماذا يفعلون ذلك ٠ يخيل الى أنهم جميعا يعرفون أننى لم أخرج من البيت الا اليوم ٠

ضحك هشام وقال :

ـ هذا وهم ، كل ما فى الأمر أن الناس يحبون الفرجة على

الجمال ، وجمالك الذى لا نظير له يلفت اليك جميع الأنظار . هيا بنا نستقل تاكسى .

لم تفهم سوسن معنى كلمة (تاكسى) ولكنها خجلت من كثرة الاستفسارات فآثرت الصمت حتى تراه . أشار هشام الى أحد التاكسيات فتوقف وركب الثلاثة متجهين نحو حلمية الزيتون . بعد فترة غير قصيرة لاح لهم منظر فيلا من طابقين تحيط بها حديقة تبدو لسوسن ضئيلة الحجم اذا قورنت بحديقة منزلها . توقفت السيارة أمام باب الحديقة وهبط الثلاثة منها . أعطى هشام الأجر لسائق التاكسى ثم اتجه نحو باب الفيلا وضغط على جرس الباب . بعد فترة قصيرة فتح الباب وأطل منه شاب طويل نحيل قمحى اللون يرتدى سروالا وقميصا ، ما أن رأى هشاما ومن معه حتى ظل محملقا فيهم لحظة ثم ابتسم ابتسامة عريضة واحتضن هشاما قائلا :

ـ أهلا وسهلا ، تفضلوا .

لاحظ هشام أن صديقه ينظر الى سوسن ونظاجة نظرة استفهام فقال وهم يدخلون من باب الحديقة :

ـ هذه زوجتى سوسن .

قال بحرارة :

ـ أهلا وسهلا ، تشرفنا وألف مبروك .

ـ وهذه وصيفتها نظاجة .

ـ أهلا وسهلا .

ثم التفت هشام الى سوسن وقال :

ـ مختار ، من أعز أصدقائى .

شعرت سوسن بشيء من الخوف ولكنها ابتسمت وقالت وهي مطرقة الى الأرض :

ـ أهلا وسهلا ٠

واتجه الجميع نحو الباب الداخل للمبنى

(٢٤)

في صباح هذا اليوم صحت الأم من نومها في نحو التاسعة ٠ كانت تشعر بصداع خفيف فلقد رأت أحلاما لا تتذكر تفاصيلها ولكنها تذكر أنها لم تكن مريحة ٠ انها ترى مثل هذه الأحلام من آن لآخر عندما تكون مرهقة الأعصاب أو تحت وطأة قلق شديد فترى مثلا أنها جالسة على قمة جدار مرتفع لا تعرف كيف تهبط منه ، أو ذاهبة الى احدى الحفـــلات وتكتشف في الطريق أنهـــا حافية القدمين ، أو ترى أنها داخل مصعد توقف بها بين طابقين ولا تجد من ينجدهـــا ، وغيرهـــا من الأحلام التى تجعلها تحمد الله عنـــدما تصحو وتكتشف أنها لم تكن سوى مجرد رؤيا في منام ٠ صفقت كعادتها وصاحت قائلة :

ـ نظـــاجة ٠

لم تحضر نظاجة فأعادت النداء بصوت أكثر ارتفاعا ٠ دخلت عواطف فبادرتها السيدة قائلة :

ـ أمازالت نظاجة نائمة ؟

ـ نظاجة غير موجودة في البيت يا سيدتى ٠

لم تصدق الأم ذلك فقالت :

ـ هذا مستحيل ، ربما تكون مع سوسن في آخر الجنينة ٠

ـ فتشنا كل مكان فى البيت وفى الجنينة فلم نجدهما ، لا هى ولا سوسن ٠

استشعرت الأم هبوب عاصفة عاتية فأحست بقلبها يهبط فى صدرها ، وبحركة تكاد تكون لا ارادية وجدت نفسها واقفة فى وسط الغرفة تقول :

ـ ألا تجدن سوسن ؟!

ـ ولا هشام ، فغرفته مفتوحة وخالية ٠ وتوجد مسألة أخرى ربما ٠٠٠

وتوقفت عن الكلام فقالت الأم بفزع :

ـ أتوجد مسائل أخرى ؟ ماذا بعد كل هذا ؟ اية مسألة هذه؟

بعد فترة تردد قصيرة قالت عواطف :

ـ وجدنا البوابة الكبيرة مفتوحة ٠

شعرت الأم وكان كل الدم الذى فى جسدها صعد الى رأسها ولم تستطع الوقوف فجلست على حافة السرير وقالت وقد تحول صوتها الى فحيح كعادتها عندما تغضب :

ـ البوابة الكبيرة مفتوحة ؟! هذا غير ممكن ، فالمفاتيح عندى هنا ٠ أجل عندى هنا ٠

انتفضت واقفة وبحثت عن صندوق المفاتيح فى الصوان فلم تجده ٠ أخذت تعيد البحث عنه بحركة عصبية فى جميع أجزاء الصوان بلا جدوى فقالت وكأنها تحدث نفسها :

ـ هذا غير معقول ، صندوق المفاتيح غير موجود ٠

بغتة خرجت من الغرفة وأخذت تهرول فى أنحاء البيت وفى الحديقة صائحة :

– سوسن ، سوسن ، سوسن ..

ظلت تجول في جميع الأنحاء تنادى حتى خارت قواها فانهارت على أرض الحديقة وانخرطت في بكاء عنيف ، ثم أخذت تهذى بصوت ضعيف :

– تعالى لأمك حبيبتك يا سوسن . أين أنت يا سوسن يا قرة عينى ، يا فلذة كبدى ، يا أملى الوحيد فى الدنيا .

انبعث من خلفها صوت مرجانه تقول :

– قلنا لك يا سيدتى اننا بحثنا عنها فى كل مكان . سوسن غير موجودة في البيت . خانت العهد وهربت هى ونظاجة .

أخذت الأم تحرك جذعها الى الأمام والخلف وتضرب بكفها على فخذها قائلة والدموع تسيل من عينيها :

– آه يانا يا بؤسى . يا بؤسك يا منيرة . هل هذا نهاية تعبى فى الدنيا ؟ ابنتى التى بذلت كل ما فى وسعى لاسعادها تتركنى وتهرب ؟ الدنيا ظلام ، الدنيا مظلمة .

قالت مرجانة بفزع :

– سلامتك يا سيدتى ، الشمس طالعة .

– لا ، الدنيا بدون سوسن ظلام فى ظلام . الشمس مظلمة . الشمس والقمر والنجوم لم تعد تضىء . كانت سعيدة تغنى للقمر والنجوم .

طفرت الدموع من عينى عواطف وغمغمت قائلة :

– لا حول ولا قوة الا بالله ، ارحمنا برحمتك يا رب .

شعرت عواطف بارهاق فجلست على ارض الحديقة جنب الأم وما لبثت مرجانة أن جلست هي الأخرى بالقرب منهما . قالت الأم :

ـ هربت معه المجرم . خطفها منى كما تخطف الحدأة الفرخ الصغير .

قالت مرجانة :

ـ من هو الذى هربت معه يا سيدتى ؟

ـ المجرم المدعو هشام .

قالت مرجانة :

ـ هشام ؟ هل هرب مع سوسن ؟ سمعتك تقولين لسوسن يا سيدتى انه هرب وحده وترك الحبل على السور .

صاحت الأم قائلة بانفعال شديد :

ـ اخرسى قطع لسانك . لقد كذبت على سوسن وقلت لها هذا الكلام لأحميها منه وأمنعها من التفكير فيه وخبأته فى مكان لا يعرفه أحد سوانا أنا ونظاجة وعواطف . لابد أن خائنة العهد نظاجة هى التى سرقت المفاتيح وأخرجته من مخبئه . آه يانا يا بنتى يا غالية . واحسرتاه عليك . كيف أحيا بدونك يا رفيقة عمرى يا نور عينى . آه ...

لم تكمل الجملة فلقد أغمى عليها وبحركة شبه انعكاسية وقفت عواطف ومرجانة فى فزع . صاحت عواطف قائلة لمرجانة :

ـ أسرعى باحضار النوشادر ، هيا تحركى .

جرت مرجانة بأقصى سرعتها نحو مبنى البيت وكأنها معزة منطلقة فى حقل ، وتمتمت عواطف قائلة :

ـ أين كانت مختبئة كل هذه المصائب ؟

ثم أخذت تهز سيدتها قائلة :

ـ سيدتى ، سيدتى ، فوقى يا سيدتى ، لا تحزنى كل هذا الحزن ، ستعود سيدتى سوسن لن تستطيع البعد عنك .

اقبلت مرجانة تعدو وقالت وهى تلهث :

ـ ها هى ذى زجاجة النوشادر .

اختطفتها منهـا عواطف وأخذت تمرزها أمام أنف سيدتهـا قائـلة :

ـ فوقى يا سيدتى ، فوقى من أجل خاطرى .

بدأت الأم تحرك رأسها وتفتـح عينيها وبـدت كما لو أنها لا تتذكر شيئا ، ولكن سرعان ما صحت الأحزان من غفوتها فعادت الدموع تسيل من عينى الأم التى واصـلت ضرب فخذها بيدهـا قائـلة :

ـ آه يانا ، آه يا غلبى . سـأموت لو لم تعد الى . اذهبى يا مرجانة بسرعة واحضرى لى أم علية . ستجدين البوابة مفتوحة . اتركيها مفتوحة فربما تعود سوسن .

بعينين منتفختين ملتهبتين من كثرة البكاء قالت السيدة الكبيرة بصوت مختنق لأم علية الجالسة جنبها على الكنبة فى البهو :

ـ سوسن تركتنى يا أم علية وهربت مع رجل .

قالت أم علية بدهشة مذهلة غير مصدقة لما تسمعه أذناها :

ـ هربت مع رجل ؟! هل هذا معقول ؟ كيف تهرب مع رجل وهى تخاف من الرجال وتفزع من سيرتهم ؟!

ـ لكنها هجرتنى وهربت مع رجل · هربت مع هشام ·

ـ هشام ؟ ومن هو هشام هذا ؟

ـ رجل اسمه هشام ·

ـ وكيف وصل اليها ؟

ـ هذا ما حدث ، وأردت اكتساب ثقتها في والاطمئنان الى فزوجتها منه ليلة أمس ·

ـ زوجتها منه ؟! أتقولين انك زوجتها منه يا سيدة منيرة ؟

ـ أجل ، ولكننى كنت أنوى اخفاءه وادعاء هروبه من سوسن لاقناعها بأن الرجال خونة فتثوب الى رشدها وتكرهه ، ولكن خطتى فشلت ·· واكتشفت عندما صحوت من نومي اليوم أنهما ومعهما خائنة العهد نظاجة قد هربوا ، ولكنه لن يفلت من يدى حتى ولو ذهب الى آخر الدنيا ·

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ·

ـ اسمعي يا ست علية أريد منك أن ترسلى لى (فرحات) و (مرزوق) لأطلب منهما مساعدتى بأسرع ما يمكن ·

ـ حاضر يا ست منيرة ·

قالت الأم بصوت متهدج :

ـ لم أغلق البوابة بالمفتاح فقد تعود سوسن ، ولكن عند حضور فرحات ومرزوق فليدق أحدهم أربع دقات على الباب لتستقبلهما عواطف التى ستكون فى انتظارهما خلف الباب ، واذا أمكنهم الحضور فى خلال نصف ساعة فسأدخلهما أنا بنفسى ·

ـ سيحضران على الفور يا ست منيرة ·

خرجت أم علية وظلت منيرة تروح وتجيء في أنحاء البهو ثم تجلس دقيقة أو دقيقتين لا تتوقف في أثنائها عن هز قدميها هزات سريعة وما تلبث أن تقوم وتعاود الجلوس والقيام · بعد نحو خمس دقائق تركت البهو وظلت تذرع الأرض جيئة وذهابا بالقرب من البوابة ·

كانت فيما مضى على علاقة وثيقة بفرحات ومرزوق عندما كانت راقصة وكان الاثنان مسئولين عن حمايتها في الملهى الليلى الذى كانت تعمل فيه بالاشتراك مع شخص ثالث يدعى (شلاضيمو) · وتذكرت عندما حاول أحد السكارى الصعود اليها على خشبة المسرح موجها اليها عدة شتائم لشدة غيرته عليها وفى يده زجاجة خمر فارغة بدا انه ينوى استخدامها للاعتداء عليها ، وفى مثل لمح البصر أسرع اليها فرحات ومرزوق وشلاضيمو وقبضوا على الرجل ، وفى غرفة منعزلة انهالوا عليه ضربا ، ومن يومها لم تطأ قدمه ذلك الملهى · وعندما اعتزلت الرقص اعتزل فرحات ومرزوق البلطجة ومنحتهما قطعة أرض يرتزقان منها ، وظلا متفانين فى تقديم خدماتهما لها والاشراف على مزارع الفاكهة التى تمتلكها وبيع المحصول وتوصيل ثمنه اليها بأمانة · أما شلاضيمو فاقد استمر فى أداء مهمة حماية الراقصات بالملهى الليلى وانقطعت صلتها به ولم تعد تعلم عنه شيئا ·

سمعت صوت الدقات الأربع على البوابة فأسرعت بفتحها ورأت أمامها فرحات ومرزوق · أدخلتهما وجلس الثلاثة فى البهو وحكت لهما سبب استدعائها لهما وختمت حديثها قائلة :

ـ اسمع يا فرحات أنت ومرزوق · أطلب منكما مساعدتى للخروج من هذه المحنة بأسرع ما يمكن · أريد منكما أن تقتفيا أثرهما ولو كانا فى الصين · ابحثا واسألا واستقصيا حتى تعرفا مكانهما واستخدما من الأعوان أى عدد ترونه لازما وسأتكفل بجميع

النفقات ولو كانوا ألف رجل فلن ابخل بالمال مهما كان قدره ٠ سوسن لابد أن تعود ، أما هشام فعليكم القضاء عليه ومحوه من الوجود ٠ رجوع سوسن له ثمن وموت هشام له ثمن ٠

ظلا مطرقين الى الارض طوال الحديث ثم رفعا رأسيهما وقال فرحـات :

ـ اطمئنى ياست منيرة ولا تشغلى بالك ، سوسن ستعود اليك وهشام سنقطع خبره ٠

(٢٥)

فضلت سوسن الاقامة فى الدور الارضى من الفيلا لتستمتع بالحديقة ، وظل مختار فى غرفة نومه بالدور العلوى ، وسـعدت سوسن لوجود شجرة برتقال بالقرب من نافذة غرفة نومهما هى وهشام . كانت عندما تفتحها فى الصباح الباكر تستقبل أريج ازهارها المنعش الذى تعشـقه ٠ وكان يحلو لهما هى وهشـام أن يجلسـا معا فى شرفة تمتد من غرفة الصـالون بالقرب منها نخلة وشجرة ياسمين ٠ وعندما يكون هشام خارج البيت تظل نظاجة فى أوقات فراغها جالسة على الأرض بالقرب من سوسن فى الشرفة أو فى البهو وقد استندت برأسها على كفها وتركت لذكرياتها حرية الجولان فى رأسها ، معظم هذه الذكريات لا تجرؤ على التحدث عنها لأى انسان فتكتفى بلذة اجترارها من آن لآخر ٠

كان هشـام خارج البيت مع مختار لشراء بعض المأكولات والملابس ٠ جلست سوسن فى الشرفة وبالقرب منها نظاجة سابحة فى بحر ذكرياتها ورأسها مستندة على كفها كالعادة ٠ بغتة رفعت راسها والتفتت الى سوسن وقالت :

ـ ستى سوسن ٠

ـ نعم يا نظـاجة ٠

ـ تذكرت شيئا قد يساعد على معرفة مكان والدك ، اذا كان على قيد الحياة ٠

قالت سوسن بلهفة :

ـ ما هـــو ؟

ـ هل تذكرين الصـــورة التى عثرت عليها فى صـــوان والدتـــك ؟

ـ أجل ، انها صورة ماما ٠ ماذا عن هذه الصورة ؟

ـ فهمت من الصورة أن والدتك فى فترة من الفترات كانت راقصة ٠ ألم أقل لك ذلك ؟

ـ نعم ، ولكن ما علاقة هذا بالبحث عن أبى ؟

ـ كان مكتوبا على الصـــورة اسم المكان الذى تعمل فيه والدتك ٠ انه « كازينو النجمة » ٠

ـ أجل ، أذكر ذلك ٠

ـ هذا يعنى أن والدتك كانت تعمل فى هذا المكان ٠ من الممكن أن يذهب سيدى هشام الى هذا الكازينو ويسأل عن راقصة اسمها منيرة كانت تعمل هناك ويعرف اسم الرجل الذى تزوجت منه ، فهو أبوك ٠

ـ ولكن هذا كان منذ زمن بعيد ، منذ أكثر من سبعة عشر عاما ، فهل يوجد فى هذا الكازينو الآن من يتذكر شيئا حدث منذ هذه الأعوام الطوال ؟

ـ لن نخسر شيئا لو جربنا ٠

ـ سأخبر هشاما عندما يحضر ٠

قالت سوسن وهى تخلع ملابسها فى غرفة نومها وتستعد للنـــوم :

ـ هشـــام ٠

ـ نعم يا حبيبتى ٠

ـ ماما كانت تعمل راقصة ٠

ـ راقصة ؟! أحقيقة ما تقولين ؟

ـ أجل ، كانت ترقص فى كازينو اسمه « كازينو النجمة » ٠

ـ منذ متى بالضـــبط ؟

ـ منذ سبعة عشر او ثمانية عشر عاما ٠ هل تعرف كازينو النجمة هذا ؟

ـ لم أسمع فى حياتى عن كازينو بهذا الاسم ٠

ـ غريبة ٠ كنت أحب أن تعرفه ٠

ـ ولماذا تحبين أن أعرفه ؟

ـ لو تذهب الى هذا المكان وتسأل عن الرجل الذى تزوج من ماما فربما نتوصل الى معرفة أبى ٠

ـ قلت لك يا حبيبتى ان العثور على والدك من المستحيلات ٠

لمعت الدموع فى عينى سوسن وقالت :

ـ أشعر بالحزن عندما أسمع منك هذا الكلام ٠

ـ لا تحزنى يا حبيبتى ، سأبذل كل جهدى لاسعادك ، ولكن هل قالت لك والدتك انها كانت راقصة ؟

ـ لا ، لم تقل لى ، انا اكتشفت ذلك ٠ كنت أبحث عن شىء فى صوانها فعثرت على صورتها مرتدية ملابس الرقص ومكتوب على الصورة « كازينو النجمة » ٠

- هل أنت متأكدة أنها صورة والدتك ؟

- طبعا ، ليتنى أحضرت معى هذه الصورة .

- كنت قد ذكرت لى أنك لا تعرفين اسم أبيك ، ولكن والدتك ذكرت اسمه فى قسيمة الزواج .

قالت سوسن بفرحة ولهفة :

- أحقيقة ؟ ما اسمه ؟

- قالت ان اسمه المرحوم حمدى سعد الدين .

انطفأت شمعة فرحتها وقالت بحزن :

- المرحوم ؟ هذا يعني أنه مات .

- لست أدرى ، ولكن هذا هو ما ذكرته فى القسيمة . أنا محتفظ بها فى جيب سترتى ، سأريها لك .

فتح الصوان وأحضر السترة وأخذ يبحث فى جميع جيوبها فلم يجد القسيمة ، فشحب لونه وتمتم قائلا :

- شىء غريب . قسيمة الزواج اختفت . لابد أن والدتك أخذتها من جيبى .

قالت سوسن بفزع :

- هل يعنى هذا أننا الآن لم نعد متزوجين ؟

ضحك هشام ضحكة شاحبة وقال :

- ضياع القسيمة لا تأثير له على الزواج ، سأستخرج نسخة أخـــرى .

- ما هو الاسم الكامل لوالدتك ؟

- لست أدرى ، لا أعرف من اسمها سوى منيرة .

ـ على أية حال سابذل أقصى جهدى في البحث عن كازينو النجمة هذا ٠

في الصـــباح كان مختار بغرفة مكتبه بالدور العلوى يراجع بعض الأوراق الخاصة بمشروع تربية الدواجن وانتاج البيض الذى أنشأه منذ نحو خمسة أعوام وأصبح يدر عليه ربحا مجزيا ٠ دخل هشام وقص عليه ما ذكرته له سوسن فقال مختار بدهشة :

ـ أمها كانت راقصة ، وأبوها لا تعرف اسمه ، وظلت طوال هذه المدة لا ترى رجلا ؟ أشياء غريبة يصعب تصديقها ٠

ـ هذه هى الحقيقة ، ولم أشأ الذهاب الى الاسكندرية فأنا معروف هناك لعديد من الناس ففكرت فى الذهاب الى مكان فى مدينة كبيرة لا يعرفنى فيها أحد ، لذا لجأت اليك ٠ أخشى أن أكون قد أثقلت عليك بمجيئى هنا مع سوسن ٠

ـ على العكس ، أنا سعيد بوجودكما معى ٠

ـ على أية حال ، لن أثقل عليك كثيرا ، سأبحث عن شقة خالية ننتقل اليها فى أقرب وقت ممكن ٠

ـ لن أسمح لكمـــا بذلك ٠ انتمـــا هنا على العين والرأس وأخشى ان يكون وجودى أنا هو الذى يضايقكما وأنتما فى شهر العسل ٠

ـ أنا فى أشد الحاجة لوجودك معنا ٠

ـ أتعشم أن تكونا سعيدين ومستريحين هنا ٠

ـ فى منتهى الراحة والسعادة ، ولكننى من آن لآخر الاحظ حنين سوسن لأمها ومن العجيب أنها فى الوقت ذاته تشعر بنفور منهـــا ٠

- المهم أنـــك تمكنت من الخروج سليما من ذلك البيت . سوف تنسى سوسن كل شيء عنه وعن أمها مع مرور الأيام وتصبح أنت بالنسبة لها زوجها وأباها وأمها وكل شيء لها في الوجود .

- انها تتحدث كثيرا عن أبيها في هذه الأيام مع أنها لم تره . لديها رغبة شديدة في معرفة كل شيء عنه .

- هذا شيء طبيعي ، فكل بنت تهتم بأبيها ، خاصة اذا كانت قد قطعت علاقتها بأمها .

- عاشت طوال حياتها مع أمها ، وكانت هي وجميع الخدم طوال هذه المدة يحشون ذهنها بحكايات تصور أباها في أبشع صورة وكأنه وحش خرافي لتنفر منه ، ويحاولن ايهامها بأن جميع الرجال كذلك .

- وعندما رأتك ووجدتك حيوانا مستأنسا لطيفا تزعزعت ثقتها في كل ما سمعته من أمهـا واتضح لها ان أمها كانت تكذب عليهـا ، وعندما تنهـار ثقة البنت في أمهـا تـكون النتيجة الطبيعية أن تتجه بكل مشاعرها نحو أبيها ، فهي تعتقد الآن أن أباها قد يكون مظلوما .

- انها تطلب مني أمرا مستحيلا .

- ما هـو ؟

- تريد أن أبحث عن أبيها ، مع أن والدتها أخبرتها أنه توفي منذ عدة أعوام ولكنها أصبحت تشك في ذلك .

- من الطبيعي أن تتشكك في كل ما قالته أمها . أنا نفسي بدأت أشك في وفاة هذا الرجل .

ـ ولنفرض أنه على قيد الحياة فكيف أعثر عليـه ؟ لا أنا ولا سوسن نعرف عنه أى شىء ·

ـ لا أعتقد أن العثور عليه أمر ممكن بعد هذه المدة الطويلة · حاول أن تصرف ذهن سوسن عن التفكير فيه ·

ـ توجد مسألة قد تساعد بعض الشىء ·

ـ ما هى ؟

ـ سوسن عثرت على صـــورة لأمها مرتدية ثوب الرقص ومكتوب على ظهر الصورة « كازينو النجمة » وتاريخ التصوير · هل سمعت عن كازينو أو ملهى بهذا الاسم ؟

ـ نجمة ؟ لا يا أخى لم أسمع لا عن نجمة ولا عن قمر ·

ـ هل من الممكن أن نبحث معا عن كازينو النجمة هذا ؟

ـ ما هو تاريخ التصوير ؟

ـ أنا مستعد لمساعدتك على قدر استطاعتى ، ولكن ماذا يفيدنا العثور على هذا المكان ؟

ـ نسأل هناك عن راقصة تدعى منيرة كانت تعمل فيه ، وقد نجد من يعرف اســـم الرجل الذى تزوجته وسيكون هو والد ســـوسن ·

ـ سنكون كمن يبحث عن مفتاح سقط فى المحيط ·

بعد تناول الفطور مع سوسن خرج هشام مع مختار ليبحثا فى أنحاء القاهرة عن كازينو النجمة · وصلا الى كازينو يعتبر أقدم ملهى ليلى فى القاهرة · سألا عن مدير هذا الكازينو فوجدوه فى

نحو السبعين تدل ملامحه على أنه أجنبي • كان جالسا خلف مكتب صغير في غرفة ضيقة منهمكا في قراءة بعض الأوراق •

قال هشـــام :

ـ لامؤاخذة ، أريد الاستفسار من حضرتك عن بعض الأمور • فأنا أقوم بتأليف كتاب عن تاريخ الفن في البلد وتلزمني بعض المعـلومات •

رفع الرجل رأسه وتفرس في وجه هشام ومختار وقال وفي حديثه لكنة أجنبية :

ـ تفضل اسأل يا حبيبي •

قال هشـــام :

ـ من حوالى ثمانية عشر عاما كان في المدينة كازينو أو مسرح أو تياترو اسمه كازينو النجمة ، ألا تعرف عنه شيئا ؟

ضحك المدير وقال :

ـ نجمة ؟ لا يا حبيبي • لم أسمع اسما كهذا أبدا •

ـ ألا تعرف واحدة اسمها منيرة كانت راقصة في كازينو النجمة من نحو ثماني عشرة سنة ؟

قال بشيء من الانفعال :

ـ قلت لك يا حبيبي انني لا أعرف كازينو بهذا الاســم ولا أعرف منيرة هذه •

ثم أردف قائلا بعد لحظة تفكير قصيرة :

ـ اذا كنت تريد السؤال عن شيء كهذا اسأل شلاضيمو •

ـ من هو شلاضيمو هذا ؟

ـ شلاضيمو يعرف جميع ملاهى البلد منذ أكثر من ثلاثين عاما . كانت وظيفته « سمع هس » .

ـ « سمع هس » ؟ ما معنى هذا ؟

ـ معناه انه كان بلطجى . كل الراقصات كن يعطونه فلوسا، ولذا كان يعرفهن جميعا ، ولكنه الآن كبر فى السن وأصبح رجلا طيبـــا .

ـ وأين نجـــده ؟

ـ من يدرى ؟ لقد ترك العمل منذ عشر سنوات ولم يعد له مكان معروف ، ولكنه يشاهد أحيانا فى احدى المقاهى .

ـ ما اسم هذه المقهى ؟

ـ اسمها .. اسمها .. نسيت اسمها . غاب عن بالى ولا يريد أن يعود الى بالى ، آه ، تذكرت ، انها مقهى « أبو شنب » .

ـ أبو شنب ؟!

ـ نعم ، هذا هو اسم المقهى ، مقهى أبو شنب .

ـ أشـكرك يا خواجة .

ـ ولا حاجة يا حبيبى .

فى هذه الأثناء كانت سوسن جالسة فى الشرفة مع نظاجة ، قالت :

ـ هشام تاخر . أخاف عندما أجلس وحدى .

ـ الست جالســة معك ؟ مم تخافين ؟ الدنيا هنا أمان يا سيدتى .

أطرقت سوسن الى الأرض لحظة قفز فكرها فى أثنائها بعيدا عن المكان ، فقالت :

— ماما الآن حزينة ٠

— كل البنات عندما يتزوجن يعشن بعيدا عن أمهاتهن ٠ أكنت تريدين البقاء مدفونة فى ذلك البيت طوال حياتك ؟ بذمتك ، أليست الدنيا هنا جميلة ؟ على الأقل عندما نفتح النافذة نرى نـاسـا ، آدميين ، ولا نرى سوراً يلمس السماء ٠ الفرجة على الناس لذيذة ٠ أقول لك الحق يا سيدتى ، كنت أعيش فى بيتكم غصبا عنى ٠ كنت أنتظر اليوم الذى يمن الله على فيه بالبعد عنه ٠ الحمد لله ، كم أنت كريم يارب ٠ سيدتى ٠٠

— ماذا تريدين ؟

— فى صدرى شىء يعذبنى ولن أرتاح الا اذا بحت به اليك ٠

— ما هــو ؟

شىء فظيع لن تصدقيه ٠

قالت سوسن بخوف ونفاد صبر :

— تكلمى ، ماذا تريدين ؟

— حكاية سمعتها من بركة ولم أصدقها حين سمعتها ، ولكننى لست أدرى لماذا بدأت الآن أصدقها ٠ هل أحكيها لك يا سيدتى ؟

سيطرت سوسن على أعصابها التى أوشكت أن تفلت منها وقالت :

— قولى ، انطقى ٠

— يبدو يا سيدتى أن والدك توفى كما تقول والدتك ٠

قالت سوسن وقد شعرت برجفة خوف :

ـ وكيف عرفت ؟

ـ بركة كانت حكت لى حكاية غريبة ·

ـ ماذا قالت ؟

ـ فى ليلة من الليالى رأت والدتك تفتح البوابة ويدخل منها رجل ، وذهبا معا الى الغرفة الصغيرة المجاورة للبوابة ، وبعد نحو ساعة رأت بركة والدتك لا داعى لاكمال الحكاية فلا أحب أن أرعبــــك ·

شعرت سوسن بقشعريرة تسرى فى جسدها وتمتد الى رأسها ولكنها قالت :

ـ لن أخاف ، تكلمى · ماذا رأت ؟

ـ رأت والدتك تسحب الرجل من يده وهو ملقى على الأرض جثة هامدة ·

قالت سوسن بصوت مرتجف :

ـ ومن الذى أماته ؟

أسندت نظاجة رأسها على كتفها وقالت :

ـ ومن أدرانى ؟

صاحت سوسن قائلة بانفعال :

ـ هل تقصدين التلميح بأن ماما هى التى أماتته ؟ أنت وبركة مجنونتان · أنا لا أحب سماع مثل هذا الكلام عن ماما · بركة كذابة · اياك أن تذكرى هذا الكلام الفارغ لهشام · لن أبقيك معنا لحظة واحدة لو ذكرت له هذه الهلاوس ، بركة خائنة · ان لم تكن

خائنة فهل كانت تتركنا وتهرب بعد أن عاشت معنا كل هذه السنوات ؟

ـ أنا وأنت هربنا من البيت ، فهل نحن خائنتان ؟ ألا يوجد من الأمور ما يجبر الانسان على الهرب ؟ والدتك سمعت بركة وهي تحكي لى هذه الحكاية ، وفي اليوم التالى اختفت بركة ٠

ـ لابد أنها خافت عندما أدركت أن ماما سمعت أكاذيبها فهربت ٠

ـ لست أدرى ، الله أعلم ٠

ـ لا أريد سماع مثل هذا الكلام غير المعقول ، لا أريد أن أسمعه ٠ أبي لم يمت ، وعلى الرغم من أن ماما أرتني قبره في البيت ، فان قلبي يقول لى انه حي ٠ ترى أين هو ؟

في هذه اللحظات ، في غرفة تجارب الموسيقى بأحد الملاهي الليلية ، كان أحد العازفين منزويا في أحد أركان الغرفة يتمرن على عزف لحن جديد بآلة الكمان ٠ كان حليق اللحية والشارب ، شديد الهزال ، يشيع اللون الفضى في شعر رأسه ، يطل من عينيه حزن يجعله يبدو وكأنه على وشك البكاء ، تنم ملامح وجهه الشاحب الناصع البياض عن وسامة اغتالتها السنون والأحزان ولكن آثارها مازالت باقية ٠ لم يكن بالغرفة سواه ٠ دخل رجل في نحو الخمسين وفي صوته نبرة عطف :

ـ أين أنت يا حمدى ؟ انهم يبحثون عنك ٠

قال بصوت ضعيف كأنه خارج من بئر ٠

ـ من هم الذين يبحثون عني ؟

ـ رئيس الفرقة يريد التحدث معك • اذهب للقائه •

ـ حاضر •

قام بصعوبة محتضناً كمانه واتجه نحو غرفة رئيس الفرقة بصحبة كامل زميله في الفرقة • تقدم حمدى ووقف أمام رئيس الفرقة وظل كامل واقفا على بعد خطوات خلف زميله • وطلب منهما رئيس الفرقة أن يجلسا فجلسا • نظر رئيس الفرقة الى حمدى مبتسما وقال :

ـ أين كنت ؟

ـ كنت أجرب عزف اللحن الجديد •

ـ اعزف هذا اللحن ، أريد أن أسمعه •

عندما انتهى حمدى من العزف ، قال رئيس الفرقة :

ـ يدك بدأت ترتعش ولم تعد ثابتة فى أثناء العزف يا حمدى ، وهذا من شأنه أن يسبب ارتباك جميع العازفين بالفرقة • أنا مقدر لظروفك وأعرف المأساة التى حدثت لك ولن يرضينى أن ألقى بك فى الشارع وأتركك تموت جوعا • سأعفيك من العزف مع الفرقة ولكننى تحدثت بشأنك مع مدير الكازينو وسمح لك بالمرور فى الصالة والعزف للزبائن وسيصرف لك مرتبا علاوة على ما يتبرع لك به الجمهور •

قال حمدى وقد لمعت الدموع فى عينيه :

ـ أشكرك ، اشكرك على كل حال •

أطرق رئيس الفرقة الموسيقية الى الأرض لحظة ثم رفع رأسه وقال :

ـ يبدو عليك التعب والارهاق الشديد فى هذه الأيام يا حمدى • استرح أسبوعا فى منزلك •

ـ نعم ، أريد ان أستريح ٠٠ أنا تعبت ٠

قام حمدى محتضنا كمانه فقام كامل واتجها معا الى باب الغرفة ، وعندما اوشكا على الخروج استوقف رئيس الفرقة كامل وقـــال :

ـ لحظة واحدة يا كامل ، أريد التحدث معك ، عن اذنك يا حمدى ، انتظر قليلا خارج الغرفة ٠

وقف حمدى خـــارج الغرفة وهمس رئيس الفرقة لكامل قائـــلا :

ـ هذا الرجل مسكين جدا ٠ المأساة التى حدثت له أثرت عليه تأثيرا شديدا ٠ ولقد لاحظت اليوم أنه قد أصبح فى حالة قد لا تسمح له بالسير بمفرده ٠ ليتك تصحبه حتى يصل الى منزله ، وياحبذا لو بقيت معه فترة فهو فى حاجة الى من يتحدث معه ٠ اطلب منه أن يقص عليك قصته ، أعلم أنك سمعت منه هذه القصة عدة مرات ولكنه يحب أن يحكيها فهذا يخفف عنه وطأة الحزن ٠

(٢٦)

كان حمدى يعيش وحده فى غرفة على سطح مبنى قديم من أربعة طوابق باحدى حوارى حى السيدة زينب ٠ فتح باب الغرفة بيد مرتجفة والكمان بيده الأخرى ، ودخلا معا ٠ لم يكن بالغرفة سوى سرير قديم ذى أربعة أعمدة حديدية وفى ركن من أركانها حوض فوقه صنبور وجنبه منضدة صغيرة فوقها موقد كيروسين وكنكة قهوة وثلاثة أكواب زجاجية وفنجان قهوة واحد ، وبالقرب من المنضـــدة كرسى من خشب رخيص ، وبالغرفة نافذة واحدة مغلقة ، فتحها كامل فتساقط منها تراب كثيف ٠ تمدد حمدى على الفراش واستند بجذعه على مؤخرة السرير واضعا الكمان جنبه

وجلس كامل على الكرسى · بدا أن حمدى تذكر بغتة شيئا كان غائبا عن ذهنه فحاول الهبوط من السرير باذلا جهدا عنيفا فسأله كامل بلهفة :

ـ الى أين أنت ذاهب ·

ـ أعمل لك فنجان قهوة ·

ـ الزم مكانك · لن أستطيع شرب أى شىء ·

فعاد حمدى الى الوضع الذى كان عليه وبدأ يتحدث :

ـ لقد اقتربت نهايتى يا كامل · لا تظننى خائفا من الموت ، كلا ، فالموت راحة لأمثالى ، ولكننى أخشى أن أودع الدنيا قبل ان أرى سوسن ·

ـ كم كانت سنها عندما رأيتها آخر مرة ؟

ـ عشرة شهور وثلاثة أسابيع ·

ترقرقت الدموع فى عينيه وقدم الكمان لكامل قائلا :

ـ انظر ، لقد حفرت اسمها على الكمان · سميت الكمان باسمها ·

ثم أشار نحو ركن مظلم قائلا :

ـ هل ترى هذه القبعة الصغيرة المعلقة بالمشجب ؟ انها القبعة التى كانت تلبسها ·

ثم أشار نحو دمية على أرض الغرفة تحت القبعة قائلا :

ـ وهذه (العروسة) كانت تلعب بها ، اشتريتها لها قبل أن تتركنى بأسبوع واحد · أذكر جيدا عندما عدت الى منزلى الذى كنت أعيش فيه فلم أجدها لا هى ولا أمها · حوادث ذلك اليوم محفورة فى ذهنى وكأنها حدثت بالأمس ·

- لم يكن زواجا ، بل جنازة ·

- هكذا حظى فى الحياة ونصيبى من الدنيا ·

- أنت شديد الحساسية يا حمدى ، ومثلك يتعب كثيرا · لو حدث هذا لغيرك لما حزن كل هذا الحزن · من الذى أشار عليك بالزواج من هذه السيدة ؟

- قصـــتى عجيبة ·

- أحب أن أسمعها ·

- لست حزينا على ثروتى التى اغتصبتها منى هذه السيدة بقدر حزنى على حرمانى من ابنتى سوسن ·

- لا داعى للحديث فى هذا الموضوع اذا كان يؤلمك ·

- على العكس ، الحديث عن ابنتى سوسن يريحنى ·

أطرق الى الأرض لحظات ثم اردف قائلا :

- كنت فى شبابى اختلف كل الاختلاف عما أنا عليه الآن · كنت مرحا سعيدا غنيا ، ورثت عن أبى ثروة هائلة ظللت أنميها حتى تضخمت وأصبحت كما يقولون ، العب بالفلوس لعبا · كنت أحب الموسيقى والرقص والطرب · أحببت الموسيقى طوال حياتى ومنذ شبابى الباكر كنت أجيد العزف على الكمان والعود والبيانو · وفى احدى الليالى اصطحبت صديقا لى يدعى مراد ، لست أدرى ما اذا كان الآن على قيد الحياة أم توفى فلقد اختفى منذ سبع سنوات ولا أعرف مكانه هو الآخر ، وذهبنا معا ، الى ملهى ليلى لم يبق له الآن اى أثر ، كان اسمه كازينو النجمة ·

النجمة ؟!

ــ أجل ، كان هذا اســمه · ظهرت على المسرح فى تلـك الليلة احدى الراقصات ، كان اسمها منيرة · عندما رأيتها انتابنى شعور غريب ، أحسست بأن عينى لا تريدان النظر الى أى شىء سواها · كان جمالها من النوع الذى يصفق كالبرق · قلت لمراد الجالس جنبى :

ــ هل رأيت فى حياتك جمالا كهذا ؟

ــ لم أر هذه الراقصة هنا من قبل ·

ــ أنا على استعداد للجلوس فوق هذا الكرسى حتى آخر يوم فى عمرى لو ظلت ترقص أمامى ، ولكن لابد أن رقصتها ستنتهى بكل أسف ·

ــ احضر غدا لتراها ·

ــ لا أســتطيع الانتظار الى الغد · ســأنتظرها هنا لأجلس معهـــا ·

ــ اعقل ولا تكن مجنونا ·

ــ وهل أبقت لى عقلا ؟

ــ وظللت فى الكازينو منتظرا طوال الليل لأراها ولكنها لم تحضر لتجلس مع الزبائن كما كنت أتوقع وذهبت أسأل عنها مدير الكازينو الذى كان على علم بثروتى ومركزى ·

ــ ما اسم الراقصة التى كانت ترقص رقصة الثعبان ؟

ــ اسمها منيرة ·

ــ هل يمكننى رؤيتها لأتحدث معها بضع كلمات ؟

ــ يمكنك رؤيتها كل ليلة على المسرح لو حضرت الى الكازينو، لا أحد يمنعك من رؤيتها ·

– ألا أستطيع رؤيتها الا على المسرح ؟

– طبعا ، وأين تريد أن تراها ؟ انها ترقص لتعيش ولا يراها أحد الا على المسرح ، فلا تكلم أحدا ولا تسمح لأحد أن يكلمها .

– أنا متأسف ، ولكنني أحب أن تعلم أنني أرغب فى رؤيتها لغرض شريف .

– وظللت أتردد على كازينو النجمة كل ليلة لأراها وهى ترقص على المسرح وأخرج دون أن أتحدث معها . وأصبح معروفا أننى أغنى زبائن الكازينو وأننى متيم بمنيرة الراقصة . كانت جميع الراقصات تتسابق للجلوس معى الا هى . وذات ليلة ظللت فى صالة الكازينو حتى انتهاء العمل . كانت لى ثلاث سيارات فاخرة . وبينما أهم بركوب احداها وجدت منيرة واقفة تنادى سيارة أجرة . عرضت عليها توصيلها بسيارتى حتى منزلها فنظرت لى نظرة احتقار واستقلت سيارة أجرة . فى هذه الليـلة لم يغمض لى جفن حتى الصباح وصممت على الزواج منها . واظبت على الذهاب الى الملهى ومشاهدتها وهى ترقص ولم أطق صبرا . ظللت أسأل وأستقصى حتى عرفت عنوان منزلها فذهبت الى بيتها وضغطت على جرس البـــاب .

– اذهبى يا زكية لترى من الطارق .

– من حضرتك ؟

– قولى لسيدتك اننى أرغب فى مقابلتها لأمر مهم .

– شخص يقول انه يرغب فى رؤيتك لأمر مهم .

– شخص ؟ من هو هذا الشخص ؟

– من حضرتك ؟

– قولى لها حمدى سعد الدين .

ـ شخص اسمه حمدى سعد الدين يا سيدتى .

ـ أدخليـــه .

ـ فدخلت ، وجلست على أقرب كرسى فى البهـــو . وبعد ربع ســاعة أو أكثر قليــلا أقبلت نحوى . صافحتنى وجلست وســألتنى :

ـ ما هو الشىء المهم الذى حضرت من أجله ؟

ـ حضرت لأطلب يدك . أريد أن أتزوجك .

ضحكت وقالت :

ـ تتزوجنى ؟ كان غيرك أشطر .

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ عديدون طلبوا يدى ، ولكننى لا أرغب فى الزواج . جربت بختى مرتين وفى هذا الكفاية . كلما تزوجت رجلا يتوفاه الله . هل تريد أن تجرب حظك أنت أيضـــا ؟ هل تحب أن تتـــوفى ؟

ـ أجل ، لا مانع لدى من الموت بعد زواجك بليلة واحدة .

ـ سمعت هذا الكلام من رجال عديدين فلم أعد أتأثر به .

ـ آه لو تعلمين . ليتنى أستطيع فتح قلبى لترى مقدار حبى .

ـ اذا كنت طامعا فى مال فلتعلم أننى فقيرة . أنا أفقر راقصة خلقها الله . ديونى أكثر من أربعة آلاف جنيه ، فهل تقبل الزواج من امرأة غارقة فى كل هذه الديون ؟

– أنا رجل غني ، غني جدا والحمد لله ، وليس من المعقول أن أبخل على زوجتي بأية أموال • خذي ثروتي وكل ما أملك وتزوجيني • فهل هذا يرضيك ؟

– اذا كان الأمر كذلك فلا مانع لدي •

– سأكتب لك كل أملاكي •

ضحكت وقالت :

– وماذا تنتظر ؟ هيا اكتب ، على الاقل لتثبت حسن نيتك ، اذ ان ثقتي في الرجال ضعيفة بعض الشيء •

– أعطيك كل ما تريدين • ستكون ثروتي أول هدية مني اليك ، بعد عقد القران •

– يبدو أنك رجل طيب ، لست كباقي الرجال • متى عقد القران ؟

في أي وقت تشائين ، فليكن الآن لو أردت •

– لا داعي للعجلة ، فليكن بعد غد •

– تزوجتها ، وكتبت لها كل ما أملك • طلبت منها اعتزال الرقص فاعتزلت وبعد أن امتلكت كل ثروتي بدأت أيام العذاب • كانت تلتذ عندما تراني أتعذب مع انني لم أجرح مشاعرها على الاطلاق • وفي هذه الفترة ولدت سوسن • وذات يوم بعد ولادتها بنحو عشرة شهور ، كنت جالسا في الحديقة أطالع كتابا ، جلست جنبي وقالت :

– أريد مصارحتك بأمر قد يحزنك ، أرجو أن تحتمله بشجاعة •

– ما هو يا ترى ؟

ـ أنا لا أحبـــك ٠

ـ ولماذا تزوجتني ؟

ـ لست أدرى ٠ انني أعترف بأنك انسان رقيق وتحافظ على مشـــاعرى ، ولقد حاولت أن أحبـــك ولكنني لم أستطع ، ولا أريد أن أخدعك ٠ كل ما أريده منك الآن هو أن تثبت لى شهامتك وتطلقني ٠

ـ هل يوجد شخص آخر ؟

ـ نعـــم ٠

ـ من هـــو ؟

ـ أعفني من الاجابة عن هذا السؤال ٠

ـ وظللت أتوسل اليها الا تفارقني لأنني أحبها وأستعطفها قائلا لها انني ضحيت بكل شيء من أجلها ، وقلت لها :

ـ ألم تفكرى فى ابنتنا سوسن ؟

ـ ستبقى سوسن معى حتى تكبر ثم تعود اليك ٠

ـ ولكنك تعلمين أنني أصـــبحت لا أملك شـــيئا ، فكيف أعيش ؟

ـ نفكر فى هذا الموضوع فيما بعد ٠

ـ وعلى الرغم من مصارحتها لى بهذا السر الرهيب الا انني لم أستطع اتخاذ قرار الطلاق ٠ ولكن بعد أيام قلائل رجعت الى البيت فلم أجدهما ، لا هى ولا سوسن تاركة لى ورقة تقول فيها : « طلبت منك الطلاق فلم تحقق طلبى ، فلن تراني بعد اليوم ، ولا تبك على ثروتك فسوف أمتع بها ابنتك سوسن » ٠

ـ فى ذلك اليوم اسودت الدنيا أمام عيني ، فلقد فقدت كل شيء ، زوجتي وابنتي وثروتي ٠ بعد ذلك اكتشفت أنها كانت

تحب مرادا الذى كان صديقى • كانت تعتقد أنها لو حصلت على الطلاق منى فستتزوج من مراد ، ولكنها عندما ذهبت اليه وعرضت عليه فكرة الزواج غضب وطردها من بيته اذ ان زواجه منها لم يخطر له على بال • وعندما عادت الى البيت فى ذلك اليوم كتبت لى تلك الورقة واختفت •

قال كامل :

ـ هل يعنى أن تلك السيدة مازالت زوجتك ؟

ـ أجل ، لم يحدث طلاق •

ـ ولم تستطع العثور عليها ؟

ـ بحثت عنها حتى أضنانى التعب فلم أجدها • سمعت أنها سافرت الى أوروبا ثم سمعت أنها فى لبنان ، ثم قال لى البعض انها توفيت ، ولا أعرف حقيقة ما حدث •

وضع يده تحت الوسادة وأخرج مظروفا أصفر اللون ، وبيد مرتعشة أخرج منه عدة صور أخذ يفرج عليها زميله قائلا :

ـ ها هى ذى صورة ابنتى سوسن عندما كانت سنها شهرين، وها هى صورتها وسنها أربعة شهور ، وهذه صورتها وسنها عشرة شهور ، قبل أن تغيب عن عينى بثلاثة أسابيع •

ولم يستطع السيطرة على دموعه فانسابت على خديه وأخذ يجففها بمنديله •

(٢٧)

فرح هشام ومختار عندما عثرا على مقهى « أبو شنب » كان صاحب المقهى ضامر الجسم يلبس نظارة قنطرتها مرتكزة على منتصف أنفه ، وأكثر ما يلفت النظر اليه شارب ضخم يمتد خارج وجهه النحيل الأسمر •• سواد شعره لا يتوافق مع تجاعيد وجهه فاستنتج

هشام أنه يصبغ شعره · سأله هشام عن شلاضيمو فنظر الى هشام بعينين حمراوين ثم نظر الى مختار وعاد ينظر الى هشام ثم قال :

ـ عزرائيل سبقكما · شلاضيمو توفى منذ أسبوعين ·

غمغم مختار قائلا :

ـ ألم يحل لعزرائيل قبض روحه الا فى هذا الوقت ؟!

ضحك أبو شنب وقال :

ـ ماذا كنتما تريدان منه ؟

قال هشـــام :

ـ كنا نود الاستفسار منه عن كازينو اسمه كازينو النجمة ·

ـ لم يعد له أثر · راح وراحت أيامه · ولماذا الاستفسار عن هذا الكازينـــو ؟

ـ تهمنا معرفة أخبار راقصة كانت تعمل فيه تدعى منيرة ·

بدا أبو شنب وكأنه يجهـــد ذهنه لاسترجاع هذا الاســـم ، ثم قال :

ـ منيرة ؟ لم أسمع عن راقصة بهذا الاسم · على أية حـــال يوجد رجل ما زال على قيد الحياة كان يعمل فى كازينو النجمـــة منذ سنوات عديدة ، كان يجلس هنـــا أحيانا ولكننـــا لم نره منذ أكثر من عام ·

ـ من هو هذا الرجـــل ؟

ـ عازف كمان فى الفرقة الموسيقية فى كازينـــو صغير اسمه كازينو النزهة · كان يتردد على هذا المقهى كثيرا ·

ـ ما اســـمه ؟

ـ اســـمه حمدى ٠

قال هشـــام بلهفة :

ـ حمدى ؟ حمدى ماذا ؟

ـ لا أعرف باقى الاسم ٠

قال هشـــام لمختار :

ـ يحتمل أن يكون هو والد سوسن ٠

وأردف قائلا لأبى شنب :

ـ وأين نجد كازينو النزهة هذا ؟

ـ بالقرب من هذا المكان ٠ اسأل عنه عند ســـينما الكوزمو وستجد من يدلك عليه ٠

حول منضدة بالقرب منهما كان فرحان ومرزوق جالســـين يحتسيان الشاى ، وهو المكان الذى اعتادا الجلوس فيه منذ سنوات عديدة عندما كانا يعملان فى كازينو النجمة ٠ كان فرحات يرتدى بدلة زرقاء ويلبس مرزوق سروالا أسود وسترة خضراء ٠ كانا على وشـــك اليأس من العثور على هشـــام أو سوسن والعودة الى الأم معتذرين عن عدم تمكنهما من أداء المهمة التى عهدت بها اليهما عندما لفت انتباههما حديث هشام وصديقه مختار ٠

همس فرحات فى أذن مرزوق قائلا :

ـ يبدو أننا بدأنا نمسك ذيل السمكة ٠

ـ كيف ؟

ـ ألم تسمع ؟ انهما يبحثان عن شخص يدعى حمدى ويقول أحدهما انه من المحتمل أن يكون والد سوسن ٠

ـ الحمد والشكر لك يا رب ٠

عندما خرج هشام وصديقه مختار للبحث عن كازينو النزهة سار فرحات ومرزوق خلفهما دون ان يشعرا • اتجه هشام ومختار خلف شباك التذاكر ووقف بالقرب منهما فرحات ومرزوق متظاهرين بالفرجة على صور الراقصات الملصقة بالقرب من شباك التذاكر • قال هشام :

ـ هل يوجد فى هذا الكازينو عازف كمان يدعى حمدى ؟

ـ لابد أنك تقصد حمدى سعد الدين •

ـ نعم ، هو الذى أعنيه •

ـ لم يحضر منذ بضعة أيام ، فهو مريض •

ـ نحن نبحث عنه لأمر مهم ، ألا يوجد من يعرف عنوانه ؟

ـ اسأل فى استراحة الموسيقيين فقد تجد من يعرف عنوانه •

عندما هم هشام ومختار بالدخول من باب الملهى استوقفهما رجل وطلب منهما ابراز التذكرة فقال هشام انهما ذاهبان للسؤال عن عنوان أحد الموسيقيين ، فسمح لهما بالدخول • أسرع فرحات بشراء تذكرتين وتسلل هو ومرزوق خلف هشام ومختار • لم يكن فى استراحة الموسيقيين سوى ثلاثة أشخاص لم يعرف أحد منهم عنوان حمدى فخرج هشام ومختار شاعرين باحباط شديد • كان فرحات ومرزوق واقفين عند باب الغرفة منصتين الى ما يدور فيها من حديث • رأى هشام أحد الفراشين يحمل ثلاثة أكواب من الشاى متجها نحو الاستراحة • فى محاولة أخيرة سأله :

ـ ألا تعرف عنوان حمدى سعد الدين الموسيقى ؟

ـ اعرفه ، انه يقيم فى غرفة على سطح العمارة رقم ٢٥ بشارع سلامة بالسيدة زينب •

قال مختار لهشـــام :

– هل نذهب اليه الآن ؟

– الساعة تقترب من منتصف الليل ولا شك أن سوسن الآن قلقة لتأخرنا ، ولا داعى لازعاج الرجل وايقاظه من النوم . فلنذهب صباح الغد .

بعد خروج هشام ومختـار من الملهى تســلل خلفهما مرزوق وفرحات همس فرحات قائلا لمرزوق :

– ترى من منهما هشام ؟

– السائر على اليمين ، فأوصافه مطابقـــة للأوصـاف التى ذكرتها لنا أم سوسن .

– المطلوب الآن معرفة البيت الذى تعيش فيه سوسن .

– المسألة بسيطة ، نراقبهما حتى نرى البيت الذى يدخـــله هشـــام .

ثم ضحك وأردف قائلا :

– كنت تلومنى وتتهمنى بالكسل لجلوســنا معظم النهار فى مقهى أبو شنب الذى يذكرنا بالذى مضى وتطلب منى البحث عنهما فى الشوارع . يبدو أن هشاما هو الذى كان يبحث عنا .

توقفت سيارة مختار عند بيته فأدخلهـــا الجراج وفتح باب الحديقة ودخل بصحبة هشام . كانت سيارة فرحات متوارية عند أول الشارع . عرفا البيت ثم عادا الى الغرفة التى استأجراها فى أحد الفنادق .

كانت سوسن منذ مدة طويلة ناظرة من النافذة فى انتظـــار قدوم هشـــام .

ـ هشام تاخر يا نظاجة · أنا خائفة ·

ـ لا تخافي يا سيدتي ، جمدى قلبك · أنت تعلمين أنه يبحث عن ابيك في جميع أنحاء البلد وهذه مسألة صعبة ·

قالت سوسن وقد لمعت الدموع في عينيها :

ـ يخيل الى انه لن يعثر على أبى ، فلقد مضى أكثر من شهرين وهو يبحث ·

عندما رات هشاما يهبط من السيارة انتفض قلب سوسن فرحا كما ينتفض العصفور عند محاولة الطيران · بادرته عندما دخل الغرفة وكانها كانت يائسة من عودته :

ـ هل حضرت يا حبيبي ؟

ـ أجل يا حبيبتي هانذا امامك · انا متاسف لتاخري ولكنني أحمل لك مفاجأة مذهلة ·

ظل فترة ناظرا اليها مبتسما فقالت بلهفة :

ـ ما هي المفاجأة ؟ قل بسرعة ، هل عثرت على أبى ؟

ـ أجل ، عثرت عليه ·

ـ أحقيقة ؟ صفه لى ، ما شكله ؟ لماذا لم تحضره معك ؟

ـ لم أره حتى الآن ·

ـ لم تره ! كيف وجدته وانت لم تره ؟

ـ اخيرا عرفت مكانه وساذهب اليه غدا صباحا ·

ـ ولماذا لم تذهب اليه اليوم ؟ هيا بنا نذهب اليه الآن ·

ـ نحن الآن في ساعة متاخرة ، ومسالة كهذه ستهزه بعنف ، ولذا فضلت تاجيلها الى صباح الغد ·

- أريد أن يأتي الغد بسرعة · ولكنك منذ مدة طويلة تبحث عنه فكيف عرفت مكانه اليوم ؟

- كنت أبحث عنه بطريقة عشوائيـــة لم يكن من الممكن أن توصلنا الى أية نتيجة ، ولكن معرفتي لما هو مكتوب على الصورة التى عثرت عليها فى صوان والدتك مكنني من التقاط طرف الخيط الذى أوصلنى الى الطريق السليم · المهم الآن أننى عثرت على عنـــوانه ، لتعلمى أن زوجك عظيم ·

طوقت رقبته بيديها وقبلته قائلة :

- أنت أعظم شخص فى الدنيا ·

وأطلقت نظاجة زغرودة اخترقت ظلام الليل فنهرها هشـــام وطلب منها ألا تفعل ذلك مرة أخرى واحتضن سوسن وقبلها ·

قال فرحات لمرزوق والسيارة عائدة بهما نحو المدينة :

- ها نحن عرفنا بيت سوسن وهشام ، وما داما لم يذهبـــا الليلة الى حمدى فمن المحتمل أن يذهبا اليه غدا · نسرع نحن الآن الى حمدى ونوقظه من نومه ونوهمه بأن ســوسن موجـودة عندنا وترغب فى رؤيته · سيصدقنا على الفور ، فنحن نعلم شدة شـــوقه لابنته · نأخذه معنا ونخفيه فى المكان اياه وتظـــل أنت معــه · ومن الصباح الباكر ساكون واقفا بالقرب من بيت حمدى منتظرا قدوم هشام · وعندما يهل بطلعته البهية سأتركه حتى يصعد الســـلم ويطرق باب غرفة حمدى فلا يجده ، واستلمه وهو خــارج من باب العمارة واسأله عن الشخص الذى يبحث عنه · سيقول انه يبحث عن حمدى ، فأقول له انه انتقـــل من هذا المسكن وآخذه معى فى السيارة لأريه المسكن الجديد وأحضره الى المكان اياه · أليس هذا معقولا ؟

ـ معقول جـــدا ٠

ـ بعد ذلك نفكر في وسيلة لارجاع سوسن الى أمها ٠

كان القمر يضيء المكان عندما طرق فرحات باب غرفة حمدى ٠ لم تحدث استجابة في باديء الأمر ، ولكن مع تكرار الطرق ســمع فرحات ومرزوق صوتا ضعيفا مرتجفا يقول :

ـ من ؟ من الطارق ؟

قال فرحات :

ـ افتح يا حمدى بك ، افتح بسرعة ٠

فتح الباب فتحة ضيقة أطل منها وجه حمدى ٠ تفرس في وجهى فرحات ومرزوق ثم قال :

ـ ماذا تريدان منى ؟

قال فرحات :

ـ ألا تذكرنى يا حمدى بك ؟

أطل من بين ظلام ذاكرة حمدى شبح باهت لفرحات ، ثم قال :

ـ لا تؤاخذنى فلقد ضعف بصرى ، تفضلا :

بيد مرتعشة أشعل حمدى مصباح الكيروسين ، ثم قال :

ـ ما الخبر ؟

قال فرحـات :

ـ نحمـل اليك بشرى عظيمة سترقص من الفرحـــة عنـــد سماعها ٠

ـ الفرحة لم تدخل قلبى منذ سنوات عديدة ، لا يوجـــد فى الدنيا الآن ما يفرحنى ٠

قال مرزوق :

ـ ولكن الخبر الذى نحمله اليك لا يخطر على بالك ٠

ـ هل سيعيدوننى الى الفرقة ؟

ـ شىء أهم من هذا بكثير ٠

ـ ترى ما هو هذا الشىء ؟ ٠

قال فرحـــات :

ـ ابنتك سوسن ٠

انتفض جسد حمدى وهو يقول :

ـ ما بها ؟ ما بها سوسن ؟

قال مرزوق :

ـ تريد أن تراك ٠

ـ سوسن ؟! سوسن ابنتى ؟

ـ أجل ، سوسن ابنتك ٠ أصبحت الآن عروســـا آية فى الجمـــال ٠

سالت دموع حمدى على خديه وقال وهو مختنق بالبكاء :

ـ أنتما تسخران منى ٠ هل من المعقول أن أرى سوسن قبل أن أموت ؟ أنا لا أصدق ذلك ٠

قال فرحات :

ـ اذا لم تصدق أذنيك فتعال معنا لتراها بعينيك ٠ هى التى أرسلتنا اليك تطلب رؤيتك ٠

ـ أحقيقة سأرى سوسن ابنتى ؟ منذ سنوات عديدة وأنا فى انتظار هذا اليوم ٠ أين هى ؟

ـ تعال معنا بسرعة ولا تضيع الوقت ٠

ـ أين كانت طوال هذه السنين ؟ انتظـــرا قليلا لأحضر معى صورها عندما كانت طفلة لأفرجها عليها ٠ ستفرح عندما تراها ٠ والقبعة التى كانت تلبسها عندما كانت سنها خمسة شهور ، والدمية التى اشتريتها لها ٠

قال مرزوق :

ـ هل ستأخذ كل هذه الأشياء معك ؟

ـ أجل ، لتتأكد من أننى ابوها ٠ سأحضر معى الكمان أيضا فاسم سوسن محفور عليها ٠ ولكن هل أنتم متأكدون من أنها سوسن ابنتى ؟ لو رأيتها فلن أعرفها وهى لا تتذكرنى ٠

ـ انها سوسن ابنتك فهيا ولا تضيع وقتنا فهى فى انتظارك ٠

ـ حـاضر ٠

وأخذ يتمتم بصوت ضعيف قائلا وكأنه يوحى لنفســـه بأن ما سمعه حقيقة وليس حلما أو كذبا :

ـ سأرى سوسن ، سأرى سوسن ٠

طوال الطريق وهو جالس جنب فرحات فى السيارة لم تغب عن مخيله حمدي صورة سوسن عندما كانت فى الشهر العاشر من عمرها ولم يستطع تصورها فى ســن أكبر من ذلك ٠ انتبـــه واذا بالسيارة تخترق شوارع ضيقة متعرجة فتذكر كابوســـا كان قد أيقظه من نومه منزعجا منذ أعوام عديدة حيث وجد نفسه يسير فى شارع ضيق على جانبيه جزارون يبيعون اللحـــم الآدمى ، والجثث المعلقة من أقدامها فى حوانيتهم لنساء شعورهن طويلة مدلاة وعيونهن

واسعة وملامحهن تنطق بالرعب الذى كان يجتاحهن · رأى عيون الجثث تتجه نحوه أينما سار وأفواه الجزارين تنفرج عن أسنانهم دون ضحك أو ابتسام · ظل سائرا يرتجف متوقعا الموت فى أية لحظة متصورا جثته معلقة فى الخطاف ·· بدأ يمد الخطى ثم يهرول ثم انطلق يعدو ، واذا بعدد من الجزارين يجرون خلفه والجثث تصرخ صرخات تشبه مواء القطط · يبحث عن مكان يلوذ به . وجد بابا أخذ يطرقه طرقات سريعة مضطربة ، ففتح الباب ولم يجد أحدا خلفه ، وعندما دخل أغلق الباب تلقائيا ، ووجد نفسه يلهث من أثر الجرى وبدأ يشعر بشىء من الطمأنينة ، ولكنه عندما مد بصره فى المكان وجد فى الناحية الأخرى من المبنى بابا يشبه الباب الذى دخل منه · فتح الباب ودخل منه الجزارون الذين كانوا يطاردونه وفى يد كل واحد منهم سكين ضخمة . ثم اصطفوا على الجانبين ودخلت من ذلك الباب زوجته · أخذت من أحد الجزارين سكينا واتجهت نحوه بخطى بطيئة وهى تسنها على كفها · وفى هذه اللحظة صحا من نومه ·

وقفت السيارة وهبط منها فرحات ومرزوق · طلب فرحات من حمدى أن يغادرها فخرج منها بصعوبة متأبطا الكمان والدمية · تعجب من وجود سوسن فى مكان كهذا · أخرج مرزوق من جيبه مفتاحا ضخما ، فتح الباب وطلب من حمدى الدخول فدخل وأخذ يجول ببصره فى أنحاء المكان فلم ير شيئا لشدة الظلام لعدم وجود أية نافذة مفتوحة · أشعل فرحات مصباح كيروسين · على الضوء الخافت رأى حمدى المكان أشبه ما يكون بمخزن به عدد كبير من الأكياس يبرز القطن من بعضها ، والبعض الآخر أصغر حجما لا يعرف ما بداخلها ، فسرى فى جسده رعب شبيه بالذى شعر به فى الحلم وانتابه اكتئاب غامض عندما لاحظ وجود باب مغلق لا يدرى ما وراءه ، ولكن شعاعا من الأمل جعله يتصور أن ذلك الباب سيفتح وتدخل منه ابنته سوسن ، فقال بصوت مرتجف :

ـ اين سوسن ؟

ضحك فرحات ضحكة مجلجلة وقال :

ـ سوسن ؟ ما هي ذى تحت ابطك ، ألم تطلق اسـمها على هذه الكمـان ؟

قال وقد ازداد رعبه :

ـ أين سوسن ابنتى ؟ ألم تحضرونى الى هنا لرؤيتها ؟

قهقه فرحـات وقال :

ـ ترى سوسن ؟

وعـاد يقهقه من جديد . شـعر حمدى بيأس مرعب فازداد احتضانه للكمان والدمية وقال :

ـ هل أحضرتمانى الى هذا المكان لتسخرا منى ؟ حرام عليكم . أنا رجل مريض وحزين . ولماذا تعذباننى هكذا ؟

طفرت الدموع من عينيه فقال مرزوق ساخرا :

ـ لا تحزن ، حقك علينا . كنا نمزح معك .

وقال فرحات :

ـ أحضرناك لنسرى عنك ونتسلى معا بعض الوقت . أليس هذا أفضل من بقائك وحيدا فى تلك الغرفة التى على السطح ؟

ـ اتركانى وشأنى . أخرجانى من هذا المكان .

ثم أشار نحو باب المبنى الموصد قائلا :

ـ افتحا هذا البـاب .

ضحك مرزوق وقال :

ـ هل ترغب فى رؤية سوسن ؟

ثم التفت الى فرحات قائلا بسخرية :

ـ انه يريد رؤية سوسن .

وأردف قائلا :

ـ يا رجل يا مخلول هل تتصور أن سوسن ما زالت على قيد الحياة ؟ ألا تكفيك الكمان التي سميتها سوسن ؟

ظل حمدى ساهرا حتى الصباح مستسلما ليأس مريع في حين أن مرزوقا وفرحات انبعث شخيرهما عدة مرات وكان يعلو باطراد ثم يتلاشى عندما ينقلب أحدهمـــا على الجانب الآخـر ، وبعد فترة ينبعث من جديد .

صحا مرزوق من نومه قبل فرحـــات فرأى حمدى جالســا القرفصاء فوق أحد أكياس القطن ناظرا الى الجدار محتضنا الكمان والدمية وكأنه يخشى أن ينتزعهما أحـد منه . قال له مرزوق وفي صوته نبرة سخرية :

ـ صباح الخير يا حمدى ، هل ارتحت في نومك ؟ لا تحزن ، تعيش وتأخذ غيرها .

وقهقه بأعلى صوته فصـحا فرحات الذى نظـر الى ساعتــه ثم أسرع بالوقوف قائلا لمرزوق :

ـ سأخرج الآن وتبقى أنت مع حمـــدى لترعاه وتحافظ على راحته حتى أعود . ولا تفتح الباب الا اذا اسمعتني أدق عليه صائحا « افتح يا حمدى » . مفهوم ؟

ـ مفهـــوم .

أخرج مرزوق المفتاح من جيب سرواله وفتح البـــاب لفرحات الذى أسرع بالخروج ، فصرخ حمدى بأعلى صوته الواهن قائلا :

ـ أنقذوني يا ناس · أنا محبوس هنا ·

وضع مرزوق يده على فم حمدى وأسرع باغلاق الباب بالمفتاح من الداخل ودفع حمدى دفعة قوية ألقت به فوق أحد أكياس القطن قائلا :

ـ اياك أن ترفع صوتك مرة أخرى حتى لا أضطر لاستخدام هذا ·

وأخرج من جيبه مسدسا أخذ يلوح به ثم أعاده الى جيبه ·

استقل فرحات السيارة واتجه بها نحو منزل حمدى بحى السيدة زينب وأوقفها بالقرب من باب العمارة رقم ٢٥ بشارع سلامة وظل جالسا خلف عجلة القيادة وبعد نحو ساعتين أقبل مختار يقود سيارته وبجواره هشام · تأكدا من العنوان ثم هبطا من السيارة ودخلا العمارة ·

بعد نحو عشر دقائق رآهما خارجين من باب العمارة وسمع هشاما يقول لمختار :

ـ يبدو أن الرجل أعطانا عنوانا آخر غير عنوانه ·

قال لهما فرحات :

ـ عم تبحثان ؟

قال هشام :

ـ نبحث عن رجل قيل لنا أنه يعيش فى الغرفة التى على سطح هذه العمارة ·

قال فرحات :

ـ لابد أنه حمدى ·

- أجـــل ، هــو ٠

- لقد ترك غرفته وانتقل الى مسكن آخر ٠

قال هشـــام يائسا :

- ألا تعرف عنوانه الجديد ؟

- أعرفه ، ومن الممكن أن أرشدكم اليه ٠

قال هشام بلهفة :

- هل هو بعيد عن هذا المكان ؟

- الحقيقة أنه ليس قريبـــا ٠ سأسير أمامكما واتبعاني حتى نصـــل اليـــه ٠

- لا نود أن نتبعك ، أعطنا العنوان وسنبحث عنه ٠

- العنوان ؟ أنا أعرف البيت بالنظر ولكننى لا أعرف رقمه فلقد ساعدته على نقل متاعه ٠

- هذا كرم منك ، سر أمامنا وسنسير خلفك ٠

هبط الثلاثة من السيارتين عندما وصلوا الى أحد المبانى ٠ قال لهما فرحـــات :

- هيـــا معى ٠

طرق فرحات الباب عدة طرقات صائحا :

- افتح يا حمدى ٠

فتح الباب وتردد هشام في الدخول [illegible] ظات ٠ ولكنـــه رأى رجلا جالسا القرفصاء فوق أحـــد ا[illegible] حتضنا الكمـــار والدمية فشعر كان يدا تدفعه للدخـــول فدخل وفى آثره دخـــل مختار ، ولكنه ارتاب عندما دخل فرحات وحـــاول الخـــروج ،٦

مرزوقا أسرع بإغلاق الباب بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيب سرواله واشار نحو حمدى قائلا :

ـ ها هو ذا حمـــدى أمامكم .

تفرس هشام فى وجه حمدى الذى ظل قابعا فى مكانه محتضنا الكمان والدمية وقال :

ـ حضرتك الأستاذ حمدى سعد الدين ؟

دون ان يتحرك قال حمدى :

ـ أجل يا ابنى .

شىء غريب ، لماذا ترك غرفته وانتقل الى هذا المكان الكريه ؟ هل دفعته الى تغيير مسكنه ظروف مادية ؟ ربما . ومن هما هذان الرجلان ؟ وجودهما هنا لا يدعو للاطمئنان .

ولكن فرحة هشام بالعثور على حمدى منعته من الاسترسال فى مثل هذه الأفكار فاكتسى وجهه بملامح البهجة وقال :

ـ أهلا وسهلا ، أهلا وسهلا . أنا زوج ابنتك سوسن .

قال حمدى دون ان يتحرك او يبدو على وجهه اى تعبير :

ـ أهلا بك يا ابنى .

ـ لقد أضنانا البحث عنك ، وذهبنا الآن الى عنوانك القديم ٢٥ شارع سلامة بالسيدة زينب .

دهش كل من هشام ومختار عندما قال حمدى :

ـ أنا لم أغير مسكنى ، فعنوانى ما يزال ٢٥ شـــارع سلامة بالسيدة زينب !

ثم أشار الى فرحات ومرزوق قائلا :

ـ يبدو أن هذين الرجلين مجرمان . خدعاني واستدرجاني الى هذا المكان .

قهقه فرحات وقال لمرزوق :

ـ سأذهب لاحضار باقي الأعوان وأترك هؤلاء في حراستك . حافظ عليهم حتى أعود وتتصرف فيهم . سأرسل لك الآن عبد القادر والمندوه وأبو دومة . افتح لهم الباب لو سمعت من يقول « افتحوا للمندوه » . سيكونون مزودين بالسلاح فقد نحتاج اليه .

خرج فرحات وأغلق مرزوق الباب خلفه بالمفتاح وجلس فى أحد الأركان صامتا .

قرفص هشام جنب حمدى وظل مختار بضع لحظات واقفا شاحب الوجه ثم جلس على أحد الأكياس وكأنه طائر وقع فى فخ لا أمل فى الخروج منه وقفز فى ذهنه منظر سوسن وهى جالسة الآن فى انتظار عودة هشام ورؤية أبيها .

نظر الأب الى هشام بعينين مجهدتين وقال بصوت متهدج :

ـ ما اسمك ؟

ـ هشام .

ـ أحقيقة أنت زوج ابنتى ؟

ـ أجل ، انها فى شوق شديد لرؤياك . تعبت كثيرا حتى عرفت عنوانك ، وذهبت اليوم الى بيتك بصحبة صديقى مختار لتلتقى بسوسن . طرقت بابك فلم أسمع أية استجابة . هبطنا السلم ، وفى أثناء خروجنا من باب العمارة أوهمنا ذلك الرجل أنك انتقلت الى مسكن آخر وتطوع لتوصيلنا الى مسكنك الجديد فوجدنا أنفسنا فى هذا السجن ، ولست أدرى ماذا سيكون مصيرنا .

قال حمــــدى :

ـ لقـــد بكيت كثيرا وخفت أن أفقد بصرى من طـول البكاء أو أموت قبل أن ترى عيناى سوسن · لابد أنها مكيدة دبرتها أمها لتمنعنى من رؤية ابنتى ·

وأردف قائلا بصوت متهدج :

ـ يبدو أننى غير مقدر لى أن أراها ·

استند مرزوق برأسه على كيس بجواره واغمض عينيه فقـــام مختار وجلس بجوار هشام وحمدى وهمس قائلا :

ـ ماذا هم فاعلون بنا ؟ هل سنظل هنا مدى الحياة ؟

قال هشـــام :

ـ يبـــدو ذلك ·

ـ قال مختـــار :

ـ اشعر كاننى فى مقبرة ·

طرأت على ذهن حمدى فكرة قاتمة طغت على جميع المخاوف التى يرزح تحت وطأتها فى هذه اللحظات الرهيبة · ســاورته الشكوك فى أن تكون سوسن التى يتحدث عنها هشــام غير سوسن ابنتـه فقال لهشـــام :

ـ هل تتذكر ام سوسن جيدا يا ابنى ؟

ـ طبعا ، أذكرها جيـــدا ·

ـ صـــفها لى ·

ـ انها طويلة وجميلة ، بيضاء البشرة زرقاء العينين ذات أنف من النوع الذى يسمونه رومانى ·

- هذه أوصافها ، ولكن توجد صفة أخرى مهمة ، هل تذكرها ؟
- ما هي ؟
- توجد حسنة كبيرة بنية اللون على خدها الايمن .
- أجـل ، أذكر ذلك .

قال وكأنه يحدث نفسه :

- اذن فهي منيرة . ان تلك التي على خـــدها الايمن ليست حسنة بل سيئة . لقد عذبتني كثيرا .

- ولكنها أدخلت في روع سوسن أنك انت الذي كنت تعذبها .

وقال بصـــوت مرتجف :

- وهل صدقت سوسن كلامها هذا ؟

- كانت تصدقه ، ولكنها أصبحت ترتاب الآن في كل ما سمعته منهـــا .

- سامحها الله . أنا يا ابني لم أعذب طوال حياتي اى انسان أو حيوان . كانت عندما تضحك أشعر بأن قلبي يضحك وعنــدما تحزن أحس بالحزن في قلبي . كنت أتمنى رؤية ابتسامتها . كان يهون على كل شيء في مقابل ابتســامة منها . لم يحدث أن جرحت مشاعرها في أية لحظة ، ولكنها استولت على كل ثــروتي وتركتني فقيرا معدماً لا أملك قوت يومي .

وتهدج صوته عندما أردف قائلا :

- فراق سوسن كان أليما ، صعبا .

أطرق الى الأرض برهة ثم قال دون أن يرفع رأسه :

ـ كنت أهوى الموسيقى وأتقن العزف على الكمان فعملت عازفا في حانات وملاه ليلية لأحصل على الطعام الضرورى · وبعد أن كنت العب بالفلوس أصبحت الدنيا تلعب بى · كنت فيما مضى عندما أدخل أى مكان يشيرون نحوى قائلين « ها هو ذا أغنى شاب في البلد » ، فأصبحت أتوارى من الناس خجلا ·

ـ ولماذا تركتك ؟

ارتعشت شفتاه وقال وهو مطرق الى الأرض :

ـ أحبت رجلا غيرى ·

أخذ يروى قصته كما رواها لكامل زميله ، وعندما انتهى منها أخرج منديله وجفف به دموعه وقال وكأنه يحدث نفسه :

ـ أهكذا كبرت سوسن وتزوجت دون أن أراها ؟

(٢٨)

كانت سوسن فيما مضى تفزع عنـــدما ترى أباها فى الحـلم بصورة رسمتها لها أمها ، ولكنها فى هذه اللحظة وهى ناظـــرة من النافذة فى انتظار عودة هشام تشعر بشوق ولهفة لرؤية ذلك الأب فى صورته الحقيقية · التفتت الى نظاجة الجالسة جنبها وقالت :

ـ قلبى يقول لى ان أبى مظلوم ·

ـ وأنا أيضا يا سيدتى ·

قالت سوسن بدهشـــة :

ـ أنت أيضا ؟ وما الذى جعلك تشعرين هذا الشعور ؟

أطرقت نظاجة الى الأرض وترددت فترة قبل أن تقول :

ـ لو بحت لك بسر فهل تعدينني ألا تخبرى به أحدا ؟

– سر ؟! لن أخبر أحدا . تكلمي ٠

– بركة دادتك ، لم تخرج من عندكم كما قالت مامتك ٠

تركت سوسن النافذة وجلست جنب نظاجة وقالت بدهشة :

– ألم تخرج من عندنا ؟! وأين ذهبت اذن ؟

– لم تغادر البيت ٠

– ولماذا لم نرها طوال هذه المدة ؟

– اسكتي يا سيدتي ولا تضطريني للحديث ٠ لقد رأيت الرعب في هذا البيت ٠

– وما الذي أجبرك على البقاء فيه ؟

– لأنني مقطوعة من شجرة ، لا زوج لي ولا أقارب ولا أصدقاء ولا معارف ٠ فوالدتك تختار خدمها من أمثـــالي لتستطيع السيطرة عليهن والتحكم فيهن وتجزل لنا العطاء ، والفلوس تعمي البصر ، تجعل الانسان يكذب وينظر الى الشيء ولا يراه ٠ من يجرؤ منا على ترك البيت لا يضمن بقاءه حيا ٠ ما زلت حتى هذه اللحظة خائفـــة أرتجف ٠

– وما الذي يخيفك هنا ؟

– والدتـــك ٠

– ولكننا الآن بعيدون عنها ولا سلطان لها علينا ٠

– لن نأمن من شرها ولو ذهبنا الى آخر الدنيا ٠

– لا ينبغي أن نخاف ومعنا هشام ٠ هشام رائع ٠ انظري كيف تمكن من العثور على والدي في خلال هذه المدة القصيرة ٠ قلبي يقفز من الفرحة كلما تذكرت أنني سأرى بابا ٠

ـ ربنا يفرح قلبك يا سيدتي .

لم يكن يخطر على بال سوسن انها بعد لحظات ستتسحقها أكبر صدمة واجهتها في حياتها . كان من عادة مختـــار ان يترك بـاب الحديقة مفتوحا لاحتمال حضور الجنايني في أية لحظة ويكتفي باغلاق الباب الداخلي . تسلل فرحـــات الى الحديقة ودق جـرس البـاب الداخلي ، فاسرعت دقات قلب سوسن فرحة بعودة هشام ورهبـــة للقاء أبيها ، ولكن خاب ظنها عندما فتحت نظاجة الباب وظلت محملقة في وجه رجل لا تعرفه أعطاها خطابا وطلب منها تسليمه لسوسن . شعرت سوسن بخوف وترددت في فتح مظروف الخطاب .

شيء غريب . من هذا الذي يرسل لي خطابا هنا ؟ أنا لا يعرفني في هذا المكان سوى هشام ومختار وليس من المعقول أن يرسل لي أحدهما أي خطاب .

بيد مرتعشة فضت غلاف الخطاب وأسرعت بقراءة الامضـاء ، وما ان قرات مضمون الخطاب حتى انهـــارت فوق أحـــد الكراسي واجهشت بالبكاء . انزعجت نظاجة وأخذت تربت على ظهـر سوسن قائـلة :

ـ ماذا في الخطاب يا سيدتي ؟

ـ انه من هشـــام .

قالت سوسن بصوت يقطعه البكاء :

ـ يقول انه لم يعد يحبني ولن يراني مرة أخرى .

ثم أردفت قائلة في ذهول :

ـ ماذا يقول ؟

ـ اتصدقين هذا يا نظاجة ؟ انا لا أستطيع تصديق هذا الكلام .

انخرطت في بكاء عنيف وانهمرت الدموع من عيني نظاجة وشعرتا بالغربة والضياع وتمنت سوسن لو تموت لتستريح من عذاب فوق طاقتها ٠

قالت بصوت يمزقه الاسى :

ـ لماذا يلمع الأمل في حياتي ثم ينطفيء ؟ اصبحت وحيدة في الدنيا قلبي لا يريد تصديق هذا الكلام ٠ لست أدري ماذا افعل ٠

ـ لا تحزني يا سيدتي ، ربنا يفرجها ٠ بعد الضيق يأتي الفرج ٠

ـ وكيف يأتي الفرج بعد أن كرهني هشام ؟

ـ القلب الذي يحب لا يكره ٠

ـ قلبي هو الذي يفعل ذلك ، لابد أنه مختلف عن قلوب الناس ٠ كنت اتوق لرؤية ابي ، ولكن هاأنذى لن ارى ابي ولا امي ولا هشاما ٠

ظلت سوسن طوال الليل ساهرة مصغية الى جرس الباب وعينيها ترنو من النافذة وفي أعماقها شعاع خافت من الأمل ٠ لم تكن قد تناولت اى طعام منذ فطور الأمس ٠

ـ الا تفطرين يا سيدتي ؟

تجاهلت سؤال نظاجة وقالت :

ـ لابد أن ما جاء في الخطاب صحيح ٠ لن أرى هشاما بعد الآن ٠ أنا لم أفعل ما يغضبه أو ارتكب أى ذنب ، بل ضحيت بكل شيء من أجله ٠ يا حبيبتي يا ماما ، انها هي الوحيدة التي تحبني

كما قالت لى . كان من الواجب ان اصدقها . لابد أنها كانت تعلم أن هشاما لن يحبنى كما احببته فانا عندما احب أحدا أحبه حبا عنيفا ، ولكن لا أحد يحبنى غير ماما .. اريد أن أكره هشاما يا نظاجة ولكننى عاجزة عن ذلك ، مازلت أحبه ، ولذا أتعذب . أتمنى أن أموت فلم يعد لوجودى معنى .

ـ بعد الشر عنك يا سيدتى ، لا تقولى هذا الكلام . نحن لا نعلم ماذا سيحدث غدا . ألست أنت يا سيدتى التى قلت لى ذات يوم انه لا راحة الا بعد عذاب ، وان النهار جميل لأنه ياتى بعد الليل ، واننا نحب الربيع لأننا ذقنا برد الشتاء ؟ انسيت كل هذا الكلام ؟

ـ نسيت كل شىء فى الدنيا . لم أعد أشعر الآن الا بالعذاب . أنا حائرة لا أدرى ماذا أصنع . ولكن لماذا لم يعد مختار حتى الآن ؟ هل كرهنى هو ايضا ؟

قالت نظاجة بعد فترة تفكير :

ـ ربما يكونان قد اتفقا معا على ذلك حتى نضطر الى ترك البيت ، اذ ليس من المعقول ان نظل فيه وحدنا
بعد فترة صمت أردفت نظاجة قائلة :

ـ لماذا لا تبعثين خطابا لوالدتك تطلبين منها ارسال شخص تعودين معه اليها ؟

ـ هل تقبل ماما عودتى اليها وتغفر لى ذنبى ؟

ـ رجوعك اليها هو منتهى أمانها .

ـ ساكتب خطابا لأم علية أقول لها فيه اننى ندمت على ما فعلت واننى أبكى بدل الدموع دما ليرق لى قلب ماما . هل تعرفين عنوان أم علية ؟

ـ أعرفه يا سيدتي · هيا اكتبي الخطاب لألقيه في صندوق البريد · سيؤلمني فراقك يا سـيدتي ، فلن أستطيع العودة الى بيتكم بعد أن هربت منه ، ولا أحد لي في الدنيا · لست أدرى ماذا أصـنع ·

ـ وأنا أيضا يعز على فراقك ، ليتك تأتين معي ·

ـ قلت لك يا سيدتي ان رجلي لو وطئت هذا البيت مرة أخرى فسيكون آخر يوم في عمرى ·

كتبت سوسن الخطاب وسلمته لنظاجة التي ذهبت لتلقيه في صندوق البريد ، وظلت سوسن ناظرة من النافذة في انتظار قدوم نظاجة · بعد نحو خمس دقائق شعرت بخوف فأغلقت نافذة البهو ، وبينما تهم باغلاق الباب المؤدى الى الشرفة الخلفية دق جرس الباب الداخلي فأسرعت بفتحه منتظرة قدوم نظاجة ، ولكنها لم تجدها ، بل رأت رجلا لا تعرفه · قال لها فرحات :

ـ ألست أنت السيدة سوسن ؟

ـ نعم ، أنا سوسن ، ماذا تريد مني ؟

ـ هشام أرسل برقية الى السيدة والدتك يطلب فيها ارسال شخص ليرجعك اليها وكلفتني السيدة الوالدة بأداء هذه المهمة ·

طفرت الدموع من عيني سوسن وهي تقول :

ـ يا حبيبتي يا ماما ·

أدخلت سوسن فرحات وأجلسته في البهو قائلة :

ـ انتظرني هنـا لحظة ·

بمزيج من الحزن والخوف واليأس المرير ارتدت سوسن الثوب الذى خرجت به من بيت أمها ، وفي غمار المفاجأة نسيت أن

نظاجة خارج البيت ولم تتذكرها الا بعد أن جذبت الباب بعد خروجها فاغلق ·

ـ ماذا أفعل الآن ؟ نظاجة خرجت ولن تستطيع دخول البيت·

ـ توجد نافذة مفتوحة يمكنها الدخول منها ·

ـ قد لا تستطيع الوصول اليها ·

ـ ما شأننا نحن بنظاجة ؟ فلتذهب فى ستين داهية فهى خائنة غادرة ، خانت العهد وهربت من بيتكم · هيا أسرعى لنلحق القطار ·

عند خروج سوسن حانت منها التفاتة نحو البيت فلاحظت أن نافذة الصالون مفتوحة فشعرت بشىء من الاطمئنان على نظاجة ·

كانت الأم جالسة في البهو مستندة براسها على كفها وفي يدها منديل تجفف به من آن لآخر دموعا تسيل من عينيها · لم تشعر عندما دخلت عواطف البهو فانتفضت عندما سمعتها تقول :

ـ سمعت طرقا على الباب يا سيدتى ·

قامت الأم وأحضرت مفتاحين من الصوان أحدهما صغير والآخر ضخم سلمتهما الى عواطف قائلة :

ـ قد تكون أم علية · افتحى الطاقة وتاكدى من شخصية القادم قبل أن تفتحى الباب ·

أدارت المفتاح الصغير فى قفل طاقة الباب وفتحتها ونظرت من خلالها لترى القادم · لم تكن تتصور أنها سترى سوسن ، فظلت محملقة فيها بضع ثوان وكانها ترى شبحا ، ثم صاحت قائلة بأعلى صوتها :

ـ ستى سوسن ؟! يا ألف نهار أبيض ·

بيد مرتجفة فتحت البوابة فدخلت سوسن وخلفها فرحات · سمعت اسم ابنتها فهرولت الى الحديقة حافية القدمين · احتضنت الأم سوسن وغمرت وجهها بالقبلات والدموع وهي تغمغم قائلة :

— حبيبتي سوسن يا نور عيني · أحقيقة ما أراه أم حلم ؟ عميت عيناي من طول البكاء منذ رحيلك ·

قالت سوسن وهي ما زالت تبكي :

— سامحيني يا ماما ·

— سامحتك ، سامحتك يا روحي · البيت بدونك كان كالمقبرة · تعالى يا روحي أحكي لك على ما جرى لي من بعدك ·

اتجه الأربعة نحو مبنى البيت · وفي الصالون جلست الأم وبجوارها سوسن وجلس فرحات على كرسي مقابل لهما وظلت عواطف واقفة ناظرة الى سوسن غير شاعرة بوجود أحد سواها · قامت الأم ودخلت غرفة نومها وعادت وفي يدها مظروف سلمته لفرحات الذي وضعه في جيبه دون أن يفتحه وصافح السيدة واتجه نحو السلم المؤدي الى الحديقة وسارت خلفه عواطف لتفتح له البوابة ·

قصت الأم على سوسن كل ما حدث في تلك الساعات المظلمة التي غابت فيها عن البيت ثم قالت :

— على أية حال لست آسفة على ما حدث ، فلقد أتيحت لك الفرصة لتجربي بنفسك غدر الرجال · لقد ضحيت بكل شيء من أجله وها هو ذا يغدر بك ويتركك وحدك في مكان لا تعرفين عنه شيئا ولا أحد يعرفك فيه · أحمد الله على عودتك سالمة يا روحي · يخيل الى أن النهار اليوم أكثر ضياء وأن الأزهار تفتحت عندما رأتك والطيور التي على الأشجار تشدو بهجة · ولو رأيت القمر الليلة فسترينه مبتسما · هؤلاء هم أصدقاؤك الأوفياء يا حبيبتي : القمر والطيور والأزهار · لا تأمني بعد اليوم لجنس رجل ·

ـ لن أحزنك بعد اليوم يا ماما · سأظل طوال عمرى فى هذا البيت ولن أتركه أبدا ·

أصل الحكاية يا ماما أننى حزنت وخفت منك عندما عرفت أنك حبست هشاما وقلت لى انه هرب منى ·

ـ كاذبون وغادرون ·

ـ هأنت ذى رأيت بنفسك ما فعله فيك هشام · كل ما فعلته كان رحمة بك وخوفا عليك لعلمى بأنه لا يؤتمن · فأنا أعرف الدنيا وأعرف الرجال وأنت لا تعلمين عنهم شيئا · ما رأيك فيهم الآن ؟

ـ كاذبون وغادرون ·

ثم أردفت قائلة بعد فترة تردد :

ـ ولكن هناك شيئا لو قلته أتمنى ألا يغضبك منى ·

ـ قولى يا حبيبتى ، هأنت ذى قد رأيت أننى لا أغضب منك أبدا ·

ـ أحقيقة لن يغضبك منى ؟

ـ لا يا حبيبتى ، لن يغضبنى منك أى شىء ·

ـ ما زلت أحب هشاما يا ماما ·

قالت الأم وكأنها سقطت فى قاع المحيط :

ـ ما زلت تحبين هشاما ؟! أبعد كل هذا تحبين رجلا غادرا متبلد المشاعر ؟ لا يا سوسن يا حبيبتى لا ينبغى أن تكونى طيبة الى هذا الحد مع من لا يستحق طيبة قلبك ·

ـ الأمر ليس بيدى ، هكذا خلقنى الله طيبة القلب فماذا أصنع ؟

ـ ولكن قلب هشـام جامد كالحجر وأسود كالليـل وملىء بالشر ، ومن امتلأ قلبه بالشر لا يستحق سوى الشر

ـ هل تسـتطيعين يا ماما وضـع شيء من الشر فى قلبى ، ولو كمية صغيرة لكى أكره هشاما وأستريـح

قالت الأم وكأنها تحدث نفسها :

ـ حاولت ذلك طوال حياتى فلم أستطع • عيب الخير أنه أحيانا ، يكون أقوى من الشر •

أمضى هشـام والأب ومختار ليلتهم الثالثـة فى هذا المكان الموحش الكئيب ولم يتناولوا من الطعام طوال هذه الفترة سوى بعض التمر وقليل من الخبز والجبن القريش •

على بعد نحو ثلاثمائة متر من هذا المبنى يوجد دكان يبيـع المواد الغذائيـة والخضروات والسجائر التى يحتـاج اليها بعض السكان الذين يعيشون بالقرب من المقابر • لاحظ البقال وقوف سيارة هبط منها بعض الأشخاص حاملين بعض الأكياس واتجهوا نحو باب المبنى • تذكر أن الشرطة منذ عامين كانت قد اكتشفت كمية ضخمة من المخدرات أخفاها بعض المهربين فى هذا المبنى • اتصل البقال بالشرطة قائلا أن أحداثا غير عادية تجرى فى هذا المبنى منذ أيام ويخشى أن تكون العصابة قد عادت لتخزين المخدرات فيه فيتعرض للمسـاءلة والتحقيق والتفتيش كما حدث فى المرة السابقة لقرب دكانه من ذلك المبنى •

كان هشام يفكر فى سوسن بقلب مرتجف والأب تسيل دموعه على خديه فى صمت ومختار يلعن الظروف التى قذفت به فى هذا المأزق عندما سمعوا صوت دقات على الباب وضحكات وكلمات غير واضحة وشخصا يصيح قائلا « افتحوا للمندوه » • أسرع مرزوق

بفتح الباب فتحة ضيقة أطل منها ، وعندما رأى عبد القادر والمندوه وابو دومة فتح الباب وأدخلهم ثم اغلقه بالمفتاح . همس مرزوق في أذن عبد القادر قائلا :

ـ أين فرحات ؟

ـ سيحضر بعد اتمام بعض الترتيبات .

دخلوا احدى الغرف المليئة بالمخدرات ووضعوا فيها ما كان معهم من أكياس ثم عادوا وجلسوا على أكياس القطن . في أثناء انشغال مرزوق باعداد الزجيلة نظر الى هشام وقال :

ـ أحضرنالكم مزيدا من الرجال لتسليتكم فلن تشعروا بأي ضيق .

ثم ضحك ضحكة مفتعلة . التزم كل من هشام والأب ومختار الصمت معتقدين أن هذه الغرفة ستكون مقبرتهم فتجمعوا معا في أحد الأركان مستسلمين للمصير المحتوم . بدأ مرزوق ورفاقه الثلاثة يشفطون الهواء من قصبة الزجيلة وقد امتلأ جو المكان برائحة المخدر . بغتة صاح مختار قائلا :

ـ الى متى سنظل في هذا المكان ؟

ضحك أبو دومة وقال :

ـ حتى يوم القيامة . ماذا يضايقكم هنا ؟ كنتم تبحثون عن حمدى وها هو ذا معكم فلتظلوا حتى تشبعوا منه .

ـ على أية حال لا مانع لدينا أن تشاركونا الانسجام ، لن نبخل عليكم بذلك .

قال مختار ساخرا :

ـ نشكركم على هذا الكرم ، فلتنسجموا وحدكم ، لا مطلب لنا سوى الخروج من هذا المكان .

قال مرزوق :

ـ تخرجون من هنا ؟ دخول الحمام ليس كالخروج منه . أرواح كثيرة تملأ هذا المكان بعد أن قبضها عزرائيل . ألم تقرءوا اللافتة التى على الباب « الداخل هنا مفقود والخارج مولود » ؟

ثم قهقه وأردف قائلا :

ـ والسـلاح موجود .

بدا الأب وكأنه لا يسمع شيئا مما يقال وتمتم قائلا بصوت حزين :

ـ كنت أتمنى رؤية سوسن ابنتى .

وأخذ يجفف دموعه . قال هشام :

ـ لا تبك يا عمى . سنخرج من هنا غصبا عنهم . أيظنون أننا لن نقدر عليهم ؟

ضحك مرزوق وقال بسخرية :

ـ تقدرون علينـــا ؟

والتفت الى رفاقـه وقال :

ـ سيضربوننا بالكمان التى تحت ابط حمدى .

وضحك مقهقها ، ثم اردف قائلا :

ـ أو بالعروسة التى تفتح وتغمض .

فقهقه مرزوق ورفاقه وأردف مرزوق قائلا :

ـ فرجهم على السلاح الذى فى حوزتنا يا عبد القادر .

لوح لهم عبد القادر ببندقية سريعة الطلقات قائلا :

ـ هل ترون هذا جيدا ؟ نحن في انتظار اشارة لابادتكم أنتم الثلاثة كما نبيد الصراصير ·

شعر حمدى بذلك النوع من الراحة النفسية الذى يعرو المرء عندما يبلغ ذروة اليأس وتوقفت دموعه وكان منبعها قد جف ووضع هشام رأسه بين يديه ولم يعد يرى سوى سوسن اما مختار فلقد انتفض واقفا واخذ يذرع المكان جيئة وذهابا فصاح مرزوق قائلا :

ـ اجلس · لماذا تروح وتجيء هكذا كالدجاجة التى تبحث عن مكان تبيض فيه ؟

وبينما يستعد مختار للجلوس سمع صوت طرقات عنيفة على الباب فظل واقفا وأسرع عبد القادر باخفاء النارجيلة واختفى معها داخل المبنى استمر الطرق بشدة وسمعوا صوتا يصيح قائلا :

ـ افتحوا البـاب ·

كان الجميع قد انتفضوا واقفين عند سماع الطرق فيما عدا حمدى الذى ظل جالسا محتضنا الكمان والدمية وبدا وكأنه مخلوق أسطورى نصفه طفل ونصفه رجل ·

صاح مرزوق قائلا :

ـ من الطـارق ؟

رد الصوت الجهورى من الخارج قائلا :

ـ افتحوا الباب والا كسرناه ·

همس مختار لهشام قائلا :

ـ يبدو أن هذا المكان مشبوه ·

وتمتم حمـدى قائـلا :

ـ لا أمـــل ·

همس المنسوه قائلا لمرزوق :

ـ لا فائدة من المقاومة ، افتح البـاب

فتـح الباب واندفـع داخل المبنى عدد من ضـباط وجنود الشرطة صاح أحد الضباط قائلا :

ـ ارفعوا أيديكم ٠

بدون أية مقاومة رفـع الجميع أيديهم

ـ فتشوهم وفتشوا المكان ٠

أخذ الجنود يفتشوا الجميع تفتيشـا دقيقـا فوجدوا بعض المخدرات فى جيوب مرزوق ورفاقه ولم يجدوا شيئا منها فى جيوب هشام ومختار وحمدى الذى شعر بقلبه يعتصره الحزن عندما رأى أحد الجنود يكسر الكمان والعروسة مفتشا عما قد يكون بداخلها من مخدرات ويلقى بهما على الأرض عندما لم يجد بداخلهما شيئا من هذه المواد ٠ فى هذه اللحظة شعر حمدى وكأنه فقد سوسن مرتين ، وغير مبال بما قد يحدث سـار بخطوات بطيئـة وانحنى والتقط الكمان والدمية ووضعهما تحت ابطه ضاغطا عليهما بكل ما تبقى له من قوة ٠

عاد الضـباط والجنود الذين كانوا يفتشـون المبنى ومعهم عبد القادر منكس الرأس ، أشـار أحدهم نحو عبد القادر قائلا لرئيس الحملة :

ـ وجدنا هذا يا أفندم مختبئا فى سندرة ، كما وجدنا كمية ضخمة من المخدرات ، بعضها فى سراديب تحت الأرض والبعض الآخر في أماكن مختلفة داخل الجدران ، علاوة على كمية كبيرة من الأسلحة ٠

قال حمدى لأحد الضباط مستعطفا وهو واقف جنب هشام ومختـار :

ـ نحن الثلاثه يا حضرة الضابط لا ذنب لنـا

ثم أشار نحو مرزوق ورفاقه وأردف قائلا :

ـ هؤلاء مجرمون استدرجونا الى هذا المكان لمكيدة · نحن ضحايا أبريـاء ·

قال قائد الحملة متهكما :

ـ مكيدة ؟ اية مكيدة هذه يـا حضرات الأبرياء ؟ هذا كلام اعتدنا سماعه ·

ثم التفت الى بعض الجنود قائلا :

ـ القوا بهم جميعا فى السيارة ·

واشار الى باقى الجنود قائلا :

ـ وأنتم تبقون هنا لحراسة المخدرات والأسلحة المضبوطة حتى يتـم نقلها ·

وقفت السيارة أمام مبنى يعرفه مرزوق ورفاقه جيدا ولكن هشاما ومختـارا وحمدى لم تسـبق لهم رؤيتـه وبدأ اسـتجواب الجميع · استرعى انتباه الضابط منظر حمدى فقال له بسخرية :

ـ ما هذا الذى تحت ابطك ؟ ما الحكاية ؟ هل كنتم تلعبون فى سيرك أم تستخدمون هذه الأشياء لاخفاء البضاعة ؟

قال حمدى :

ـ يا سعادة البك أنا رجل مسكين ، أعمل عازفا فى فرقـة موسيقية ، وهذه الكمان اسمها سوسن ، ولى ابنة اسمها سوسن ·

صدرت من الضابط ضحكة لا ارادية وقال :

ـ كمنجة اسمها سوسن ؟ يبـدو أنهم ما زالوا تحت تأثير المخـدر ٠

ـ أجل ، سميتها سوسن على اسم ابنتى التى لم أرها منذ سبعة عشر عاما ، وكان من المفروض أن أراها منذ أيام ٠

ـ وما الذى منعك من رؤيتها ؟

أشار نحو مرزوق ورفاقه قائلا :

ايقظنى أحدهم من نومى طالبا منى أن أصحبه لرؤية ابنتى ، ففرحت وصـدقته وذهبت معـه لرؤيتها فأحضرنى الى المكان الذى وجدتنى فيه الشرطة ومنعونى من الخروج ، وبعد فترة انضم الى هشام هذا زوج ابنتى وبصحبته مختار هذا صديقه ، وظللنا سجناء فى ذلك المبنى ٠

التفت الضابط الى هشام وقال :

ـ هل أنت زوج سوسن ابنة هذا الرجل ؟

ـ أجـل ٠

ـ ولماذا أحضروك أنت وصديقك الى ذلك المكان ؟

قص عليهم ما حدث منذ بده البحث عن الأب حتى وجد نفسه هو وصديقه مختار فى ذلك المبنى ٠

قال الضابط :

ـ وأين سوسن ؟

ـ تركناها وحدها فى البيت مع الخادمة ولا ندرى كيف أمضت لياليها ٠ اننا كما قال الأستاذ حمدى ضحية مكيدة قذرة ٠

ـ وما الذى دعاهم لتدبير هذه المكيدة ؟

ـ يريدون ارجاع زوجتى سوسن الى أمها ، ولابد أن المكيدة بتدبير الأم ·

ـ يرجعون زوجتك الى امها ؟ وهل ذهاب زوجة الى امها يحتاج لتدبير مكيدة ؟ الا تستطيع اية زوجة الذهاب الى امها عندما تشاء ؟

ـ يا سعادة البك زوجتى تختلف عن جميع البنات ·

ـ كيف ؟

ـ لقد ظلت طوال حياتها مع أمها فى بيت منعزل مغلق عليها لا تفتح بوابته الا بأمر من والدتها ولم تخرج من هذه البوابة الا منذ أيام قلائل عندما هربنا معا ولم تر فى حياتها اى رجل قبل أن ترانى ·

ـ لم تر فى حياتها رجلا قبلك ؟ يبدو أنكم ما زلتم فى حالة غير طبيعية · هل توجد فى الدنيا فتاة لم ترى رجلا فى حياتها ؟

ـ انه شىء غريب ولكنه حدث ·

ـ على أية حال سوف نتحرى الأمر ونأخذ أقوال السيدة سوسن ونرى ما اذا كانت فى البيت أم سافرت الى والدتها ·

لم يستطع حمدى السيطرة على مشاعره فسالت دموعه من عينيه · شعر هشام باشفاق شديد على هذا الرجل الذى بدا أكبر من سنه فقال له :

ـ لا داعى للبكاء · لماذا تبكى ؟

قال وهو يمسح دموعه بطرف ثوب العروسة :

ـ ابكى على نفسى ·

(٢٩)

عادت نظاجة وظلت تضغط على زر جرس الباب الداخلي فلم تحدث أية استجابة ٠ هبطت السلم ودارت في الحديقة حول البيت فلاحظت أن نافذة غرفة الصـالون مفتوحة ٠ اقتربت منها وظلت تنادى سوسن ولا مجيب ، فارتجف قلبها

أين ذهبت سيدتي سوسن ؟ من غير المعقول أن تكون غادرت البيت فهي لا تستطيع المشي بمفردها في الطريق خطوة واحدة ٠ أخشى أن تكون ٠٠ لا ، لا ، لا قدر الله ٠

وعادت تصرخ بأعلى صوتها قائلة :

ـ ستى سوسن ، ستى سوسن

بدأت تشعر برعب رهيب عندما لم تسمع اجابة ٠ تنازعتها رغبتان ، رغبة في دخول الشقة ورغبة في عدم الدخول والابتعاد عن البيت خشية أن تجد بداخلها ما يروعها ، وأخيرا تغلبت رغبتها في الدخول ٠ دخلت عن طريق نافذة غرفة النوم ٠ أخذت تجول بخوف وحذر في أنحاء البيت فلم تجد أى أثر لسوسن ٠ أخيرا ، استجمعت شجاعتها وفتحت الصوان وظلت برهة مشيحة بوجهها عنه لاحتمال وجود جثة سوسن بداخله ، ثم نظرت بطرف عينها نظرة خاطفـة فلم تجـد سوى ملابس سوسن التي اشتراهـا لها هشـام

أين ذهبت اذن ؟ لهفي عليك يا سوسن ولهفي على نفسي ٠ ماذا أفعل الآن ؟ ولماذا لم يعد هشام ؟ واذا كان هشـام قد كره سوسن كما يقول أو أصابه مكروه فلماذا لم يعد مختار صاحب البيت ؟ وماذا سيكون مصيري ؟ ليس من المعقول أن أظل وحدى

فى البيت فهو ليس بيت أبى • هل اختفت سوسن فى خلال الفترة القصيرة التى القيت فيها الخطاب ؟ ليتني ما غادرت البيت وبقيت مع ستى سوسن • يا كبدى يا سوسن ويا حسرتـاه عليك وعلى جمالك وشبابك ! • ليتنا ما غادرنا بيت والدتك • حقيقة من ترك داره يقل مقداره • ليتها ما رأت هشاما هذا • أين أذهب الآن وأنا مقطوعة من شجرة ؟ كله من هشام ، منه لله • كان يحبها ويعزها فماذا جرى له ؟ كيف يتركها تواجه الوحدة والعذاب بمفردها ؟ هل أطاعه قلبه ؟ أين ذهب الحب والوفاء فى هذا الزمن الأغبر ؟ هل يموت الحب في يوم وليلة ؟ واذا كان الأمر كذلك فلماذا ركب الأهوال ليتزوجها ويعيش معها ؟ لماذا لم يرح نفسه ويريحنا معه ؟ أنا لا أصدق أنه كره سوسن ، فهذا مستحيل • لا أصدق أنه هو الذى كتب هذا الخطاب •

أقبلت سيارة وتوقفت أمام البيت وهبط منها ضابط وأربعة جنود ازداد هلع نظاجة عندما رأتهم متجهين نحو البيت فانكمشت وتكومت فى ركن الغرفة وودت لو تلاشت من الوجود •

ماذا يريدون منا هؤلاء العساكر ؟ اللهم اجعله خيرا • أدعوك يا ربى وأتوسل اليك الا يكون قد حدث لسوسن أى سوء •

سمعت طرقا شديدا على الباب فقامت تجر ساقيها وفتحت الباب • قال الضابط :

ـ هل هذا بيت هشام زوج سوسن ؟

ـ لا يا سيدى ، أنه بيت أحد أصدقائه ، وسيدى هشام ضيف فيه هو وسيدتى سوسن ، ولكن سيدى هشام وصاحبه لم يحضرا منذ ثلاثة أيام •

ـ ومن أنت ؟

ـ أنا اسم الله على مقامك خادمتهم نظاجة .

ـ هل سوسن موجودة ؟

ـ لا يا سيدى . ذهبت لالقاء خطاب فى صندوق البريد وعدت فلم أجدهـا .

ـ أين ذهبت ؟

ـ لست أدرى يا سـيدى .

ـ كيف لا تدرين ؟ أين ذهبت ؟ تكلمى

قالت وهى مختنقة بالبكاء :

ـ أعدم عينى وعافيتى يا سيدى لو كنت أعرف مكانهـا . قلت لسعادتك اننى عدت الى البيت فلم أجدها .

ـ متى حدث ذلك ؟

ـ اسم الله على مقامك ، حدث أمس الصبح .

ـ وماذا فعلت طوال هذه المدة وأنت وحدك فى البيت ؟

ـ خفت .

ـ هل رأيت أحدا يحوم حول البيت ؟

ـ لا ، لم أر أحـدا .

ـ وماذا كان فى الخطاب الذى ذهبت لالقائه فى صندوق البريـد ؟

ـ كتبته ستى سوسن لوالدتها لترسل اليها أحدا يرجعها الى بيتها فهى لا تعرف الدنيـا .

ـ ولماذا ارسلت هذا الخطاب ؟ هل حدث سوء تفاهم بينها وبين زوجها ؟

ـ لا ، حدث حسن تفاهم ، ولكن بغتة وبلا احم أو دستور وصلها منه خطاب يقول فيه انه لم يعد يحبها . شيء غير معقول .

ـ هل غاب عن البيت مدة طويلة ؟

ـ كلا ، لم يغب عن البيت سوى ليلتين . تناولا الفطور معا وخرج مع سيدى مختار صاحب البيت وصاحب سيدى هشام .

ـ هل تعلمين أين ذهبا ؟

ـ ذهبا ليحضرا والد ستى سوسن الذى لم تره ولا تعرف منظره . كانت تريد رؤيته ولهذا السبب ظل سيدى هشام يبحث عنه حتى استدل على عنوانه وخرج مع سيدى مختار ليحضره ، وبعد خروجهما هبط علينا كسهم الموت ذلك الخطاب الذى نكد على سوسن ونغص عليها عيشتها .

ـ ماذا كان فى الخطاب بالضبط ؟

ـ يقول انه لم يعد يحبها وانها لن ترى وجهه بعد الآن . ويقول أيضا انه ارسل برقية لوالدتها لترسل من يأخذها من هنا ويرجعها اليها لأنه لا يريد الاقتراب من بيتهم .

ـ ولماذا لا يريد الاقتراب من بيتهم ؟

ـ بسبب سوء تفاهم كان قد حدث بينه وبين والدتها .

ـ وماذا فعلت سوسن عندما قرات الخطاب ؟

ـ لم تصدق انه كلام هشام ، ولكن عندما تأخر ولم يحضر صدقت الكلام ولم تدر ماذا تصنع فهى وحيدة هنا .

- ولماذا لم تذهب أنت معها ؟

- لا أستطيع الذهاب ، فلقد حدث بينى وبين السيدة الكبيرة سوء تفاهم .

- ما سبب سوء التفاهم هذا ؟

- أصل الحكاية أن سيدى هشام عقد قرانه على السيدة سوسن منذ أيام .

- وأين تم عقد القران ؟

- فى بيت سوسن ، ولم تكن السيدة الكبيرة راضية عن هذا الزواج فأوهمت هشاما أنها ستوصله الى غرفة عروسه سوسن ولكنها أخذته الى غرفة أخرى فى البدروم وحبسته فيها . وعندما صحت سوسن من نومها فى الصباح وسألت عن عريسها قالت لها والدتها انه هرب ، ولكننى رأيتها وهى تحبسه ، ولما رأيت حزن سوسن وخفت أن تفقد عقلها ، لا سمح الله ولا قدر ، رق لها قلبى . أطلعتها على الحقيقة ، فأحضرت المفاتيح فى أثناء نوم والدتها وفتحت البوابة وهربنا نحن الثلاثة من البيت .

- وما الذى كانت تنوى عمله والدة سوسن بعد سجنها لهشام ؟

- لا أدرى .

- اذا كان الأمر كذلك فليس بمستبعد أن تكون المسألة مكيدة مدبرة لخطف سوسن وارجاعها الى أمها كما قال هشام . هل الخطاب الذى أرسله هشام لسوسن موجود هنا ؟

- لا أدرى ، أبحث عنه فقد أجده .

لم تكن نظاجة فى حاجة لبحث طويل للعثور على الخطاب فلقد وجدته ملقى جنب أحد كراسى البهو . التقطته وسلمته للضابط الذى قرأه بسرعة ثم وضعه فى جيبه وقال :

ـ كيف وصل الخطاب الى سوسن ؟

ـ أحضره رجل ·

ـ هل يمكنك التعرف على هذا الرجل ؟

ـ أستطيع التعرف عليه من بين ألف رجل

ـ هل أنت متأكدة من أن سوسن لا تستطيع السفر بمفردها ؟

ـ من المستحيل أن تستطيع السفر بمفردها ، فهذه أول مرة تخطى فيها عتبة البوابة · انها لم تر فى حياتها أى رجل قبل رؤيتها لهشام سوى رجل واحد قبيح الخلقة أحضروه لها لتعتقد أن جميع الرجال بهذا المنظر وطردوه من البيت عقب ذلك مباشرة ·

تمتم الضابط قائلا :

ـ هذه مسألة غاية فى الغرابة ·

ثم أردف قائلا :

ـ هيا معى يا نظاجة ·

شعرت نظاجة بأن ساقيها لا تقويان على حملها فاستندت على الجدار وقالت وهى ترتجف ·

ـ أين ستذهبون بى يا سعادة البك ، أين ستذهبون بى ؟

قال الضابط بهدوء :

ـ لا تخافى ، تعالى ، تعالى

سارت مع الجنود وكأنها تسير وهى نائمة وخذلتها ساقاها وهى تحاول الصعود الى السيارة فساعدها أحد الجنود · لم تر شيئا طوال الطريق وشعرت وكأنها انتقلت فجأة الى مكان

لا تعرفه ، ولكنها شعرت بشيء من الاطمئنان عندما رأت هشاما ومختارا جالسين جنب رجل يتأبط كمانا ودمية ٠

جلس الضابط الى مكتبه وأخرج الخطاب من جيبه وأعطاه لهشام قائلا :

نظاجة تقول انك أرسلت هذا الخطاب لزوجتك لتقطع صلتك بها ، فما رأيك فى ذلك ؟

ـ أنا أقطع صلتى بسوسن ؟ هذا غير معقول ٠ أنا لم أكتب أى خطاب ٠

قرأ الخطاب بسرعة وقال :

ـ لقد خرجنا من البيت أنا وصديقى مختار لنحضر والد سوسن الذى أبدت لى رغبتها الشديدة فى رؤيته ولقد أضنانا البحث عنه حتى عرفنا مكان اقامته ، فهل من المعقول بعد كل هذا أن أرسل اليها هذا الخطاب ؟

قال الضابط :

ـ وأنت يا حمدى ، يقولون انك لم تر ابنتك منذ سبعة عشر عاما فهل لو رأيتها الآن يمكنك التعرف عليها ؟

أخرج حمدى من الجيب الداخلى لسترته مظروف خطاب وأخرج منه بحرص وعناية صورة قدمها الى الضابط قائلا :

ـ هاهى ذى سوسن التى أعرفها ٠ هذه صورتها وهى فى شهرها العاشر ٠

ثم أردف قائلا وقد أطرق الى الأرض :

ـ ولكن لابد أن شكلها قد تغير الآن كثيرا ٠

ـ هل افهم من هذا أنك انفصلت عن زوجتك والدة سوسن منذ سبعة عشر عاما ؟

ـ هى التى انفصلت عنى · رجعت الى البيت ذات يوم فلم أجدها ، لا هى ولا سوسن ·

ـ ماذا كان سبب اختفائها ؟

التزم حمدى الصمت فترة وهو مطرق الى الأرض ثم قال دون أن يرفـع رأسـه :

ـ لست أدرى · انها ما زالت زوجتى ·

ـ ألم تنفصلا بالطلاق ؟

ـ لم أسـتطع ··

وأخذ يجفف بضع قطرات من الدموع انسابت من عينيه ·

قدمت الشرطة تقريرها الى النيابة · وأسفر تحقيق النيابة عن تقديم مرزوق للمحاكمة بتهمة اختطاف هشـام ومختار وحمدى بالاشتراك مع فرحات الذى بدءوا البحث عنـه ، أما عبـد القادر والمندره وأبو دومة فلقد اتهمتهم النيـابة بالاتجار فى المخدرات وحيازة أسلحة ، وقررت الافراج عن حمدى سعد الدين وهشام عبد الحميد ومختار سعيد ونظاجة محمد حنفى ، فاطلقت نظاجة زغرودة ولكن أحد الجنود لكزها فى ظهرها فأسكتها ·

قال حمدى لهشام :

ـ ماذا هم فاعلون فيما يتعلق باختفاء سوسن ؟

ـ قال لى المحقق فى أثناء التحقيق انهم سيجرون اتصالات سريعة ويرون ما اذا كانت قد وصلت الى والدتها أم لم تصـل ،

فاذا اتضح أنها عند والدتها فلا جريمة فى ذلك فهى سيدة متزوجة وليست قاصرا ، ولكن اذا اتضح عدم وصولها الى أمها فستكون مسألة أخرى ، وطلب منى عنوان الأم فذكرته له ، وقال انهم سيقومون بعمل اللازم . قال حمدى :

– ومتى نعرف نتيجة هذه التحريات ؟

– طلب منى أن أمر عليه صباح الغد لأعرف ذلك .

أطرق حمدى الى الأرض حزينا . قال هشام :

– لا تحزن يا عمى . سأحضر سوسن من عند أمها .

– يا ابنى لا يوجد على ظهر الأرض من يستطيع الانتصار على هذه السيدة فانا أعرفها جيدا .

استند حمدى على ذراع هشام وخرج الثلاثة وخلفهم نظاجة التى ظلت تتلفت خلفها من آن لآخر وكأنها غير مصدقة أنهم أطلقوا سراحها . استقل الأربعة السيارة واتجهوا بها نحو بيت مختار وقلبا حمدى وهشام يعتصرهما الالم لعدم وجود سوسن فى البيت ومختار مستغرق فى التفكير فى وسيلة لارجاع سوسن الى زوجها ، أما نظاجة فلقد طغى خوفها من المجهول على كل ما عداه من مشاعر .

(٣٠)

فى نحو الثامنة صباح اليوم التالى خرج هشام لمتابعة تحريات الشرطة فيما يتعلق بوصول سوسن الى والدتها ، وبعد نصف ساعة خرج مختار متوجها الى عمله وبقى حمدى نائما فى غرفة المكتبة المجاورة للبهو وانشغلت نظاجة بتحضير طعام الغداء . علم

هشام من ضابط الشرطة أن سوسن موجودة عند والدتها فشعر باكتئاب ويأس مرير وعاد الى البيت على الفور يستعرض فى ذهنه شتى الطرق الممكنة لانتزاع سوسن من بين براثن أمها . فتحت له نظاجة عندما دق جرس الباب وعلم أن حمدى نائم وأن مختار لم يعد . فجلس على كرسى فى احد اركان البهو مطرقا الى الارض يفكر في سوسن . بعد نحو عشر دقائق اقبلت نظاجة نحو هشام وناولته خطابا قائلة :

ـ نسيت اعطاءك هذا الخطاب ، لابد أنه من سيدتي سوسن، يا حبيبتى يا ست سوسن .

اختطف هشام الخطاب بلهفة وقرأ ، قالت نظاجة :

ـ ماذا فى الخطاب يا سيدى ؟ هل هو من سيدتي سوسن ؟

أقبل حمدى يجر ساقيه من الغرفة المجاورة قائلا بلهفة :

ـ ما بها ؟ ما بها سوسن ؟

قال هشام وقد بدا شارد الذهن :

ـ هل صحوت يا عمى ؟

ـ أجل ، سمعت اسم سوسن فاستيقظت . ما بها سوسن ؟

ـ لم نكن نتحدث عن سوسن .

ثم لوح له بالخطاب قائلا :

ـ كنا نتحدث عن هذا .

ـ ما هذا ؟

ـ خطاب عجيب .

ثم التفت الى نظاجة قائلا :

– من الذى سلمك هذا الخطاب ؟

– وجده سيدى مختار فى صندوق البريد فى أثناء خروجه فعاد وأعطاه لى وطلب منى تسليمه لك .

قال حمدى :

– من الذى أرســله ؟

قال هشام :

– شخص مجهول لم يذكر اسمه ، والخطاب موضوع باليد .

– وماذا يريد مرســله ؟

– يقول ان سوسن موجودة هنا فى القاهرة .

ابتسمت عيناه وقال بلهفة :

– سوسن هنا فى القـاهرة ؟

– هكذا يقول مرسل الخطاب ويطلب منى الذهاب لاستلامها بنفسى غدا الساعة الثالثة صباحا مدعيا أن والدتها اعترفت لها بأنها هى التى دبرت خطة عودتها اليها ، وأن هشاما لم يكتب لها ذلك الخطاب الذى وصلها ، وذلك بعد أن خافت على سوسن من الموت حزنا بعد أن تدهورت صحتها وفقدت الرغبة فى تناول أى طعام .

قال حمدى وقد بدا أكثر ابتهاجا :

– أحقيقة ؟ هل سأرى سوسن ؟ ولكن لماذا الساعة الثالثة صباحا ؟ ألا يخشى على سوسن من السهر والبرد فى هذه الساعة ؟

نظر هشام الى الخطاب وقال :

– ويقول أيضا أن سيارة ستمر فى ذلك الوقت فوق كوبرى امبابة ولو وجدنى هناك فسيسلمنى سوسن .

– أحقيقة ؟ انه خبر أجمل من أن يصدقه عقلى .

ثم تجهم وجه حمدى وانطفأ بريق عينيه عندما قال هشام :

ـ فعلا ، انه خبر لا ينبغى أن نصدقه . انا متأكد من أنها خدعة أخرى . انهم ينصبون لى فخا لأقع بين أيديهم . يبدو أنه والدة سوسن لن يهدأ لها بال الا بعد أن تمحونى من الوجود .

شعر حمدى بارهاق مفاجىء فجلس على أحد الكراسى مطرقا الى الأرض وقد اكفهر وجهه وقال بصوت ضعيف :

ـ أنا مستعد للذهاب فى تلك الساعة لاستلام ابنتى سوسن. اذا لم تكن يا بنى راغبا فى الذهاب .

ـ قلت لك يا عمى أن سوسن من المستحيل أن تكون هنا فى القاهرة كما هو مذكور فى الخطاب ، صدقنى ، انها خدعة . انهم لن يسلمونى سوسن بل يرغبون فى استلامى أنا . انه تفكير ساذج لا يصدر الا عن أغبياء ، فهم يعرفون العنوان فلماذا لم يحضروا سوسن الى البيت . أو يتركوها عند الباب أو بالقرب منه ؟ ولماذا يطلب منى الذهاب بنفسى فى ذلك المكان فى تلك الساعة المتأخرة من الليل وكأنه يهرب شحنة مخدرات .

لم تستطع نظاجة الصمت فقالت :

ـ قد تكون المسالة حقيقة يا سيدى . أليس من الممكن أن تكون السيدة الكبيرة قد أشفقت على سوسن كما هو مكتوب فى الخطاب ؟

نهرها هشام قائلا :

ـ اسكتى أنت لا شأن لك بالموضوع . هل من المعقول أن ترسل لى سيدتك الكبيرة ابنتها سوسن مع أحد الناس ؟ لا يوجد أمامى الآن سوى حل واحد ، لابد من ابلاغ الشرطة .

قال الضابط :

ـ وما الغرض من ارسال هذا الخطاب فى تصورك ؟

ـ أعتقد أنهم يرغبون فى التخلص منى بايعـاز من السيدة والدة زوجتى ·

ـ لا أظن أن المسألة تبلغ هذه الدرجة من الاجرام ·

قال هشـام :

ـ هنـاك أمور أخرى على جانب عظيم من الخطورة سمعتها ليلة أمس من نظاجة التى عاشت فى بيتهم عدة سنوات تدل على أن هذه السيدة من الممكن أن تفعل أى شئ ·

ـ ما هى هذه الأمور ؟

ـ نظاجة تتهم هذه السيدة بجريمتى قتـل ·

ـ كيف ؟

ـ حكت لها خادمة أخرى تدعى بركة أنها شـاهدت والدة سوسن فى احدى الليالى منذ حوالى سبع سنوات تقتل رجلا أدخلته الى البيت ولم يخرج منه وسمعتها السيدة وهى تقص على نظاجة هذه الحكاية ، وفى الصـباح اختفت بركة وادعت السيدة أنها هربت ·

ـ سوف نتحرى عن ذلك ونتصل بك عند اتخاذ أية خطوة لتكون معنـا ·

فى الثانية وخمسين دقيقة كان فرحات جالسا خلف عجلة قيادة سيارة تسير الهوينى فوق كوبرى امبابة وبجواره رجل نحيل يرتدى سترة رمادية اللون وسروالا أخضر · كان هذا الرجل بادى

القلق يتلفت فى جميع الاتجاهات وكأنه يبحث عن شىء أو خائف من شىء . لم يكن يعبر الكوبرى فى ذلك الوقت سوى عدد ضئيل من السيارات المنطلقة بسرعة منتهزة فرصة خلو الكوبرى من المشاة . قال فرحات :

ـ لا يبدو أى أثر لصاحبنا .

ـ ما زال باقيا على الموعد بضع دقائق ، فلننتظر . نركن بالسيارة هنا على اليمين ونفتح مقدمتها ، واذا رآنا أحد نتظاهر باصلاحها .

ـ يهيأ لى أنه لن يحضر .

ـ سوف نرى . كم قبضت من السيدة الكبيرة حتى الآن ؟

ـ ألف فقط لا غير .

ـ ومتى تصلنى مستحقاتى ؟

ـ بعد الانتهاء من مأمورية هشام . ربما يسهل وتكون نهايته على يدينا الليلة .

قال الرجل النحيل بنبرة فرح وقد رأى سيارة تتجه نحوهم ببطء ثم تتوقف ويهبط منها رجل :

ـ ها هو ذا قادم ، يبدو أنه ..

لم يكمل الجملة فلقد انبثق من جهات مختلفة من الكوبرى عدد من الجنود انضموا الى ذلك الرجل القادم الذى اتضح عندما اقترب منهم أنه مسلح . اسرع فرحات ورفيقه بالقفز داخل السيارة وادارة محركها استعدادا للانطلاق بها ، فصاح أحد الضباط قائلا :

ـ قف مكانك ٠

ولكن السيارة بدأت تبتعد عنهم فأطلق أحد الضباط بعض أعيرة نارية فتوقفت السيارة على الفور ٠ انتزع الجنود فرحات ورفيقته من السيارة واقتادوهما حتى نهاية الكوبرى حيث كانت فى انتظارهم ثلاث سيارات اتجهت بهم نحو قسم الشرطة ٠

استرسل الضابط فى حواره مع فرحات قائلا :

ـ وماذا كان سبب وجودكما فوق كوبرى امبابة فى تلك الساعة ؟

قال فرحات :

ـ كنا نشم الهواء ٠

ـ تشمون الهواء الساعة الثالثة صباحا ؟

ـ أجل ، الا يوجد هواء فى الثالثة صباحا ؟

ـ لا جدوى الآن من الانكار ٠ أين سوسن ؟

ـ ليست هنا ٠

ـ وأين هى ؟

ـ هناك ٠

صاح الضابط قائلا بصبر نافذ :

ـ فى أى مكان هى الآن ؟

قال فرحات وهو مطرق الى الأرض :

ـ عند أمها ٠

ـ وما دامت عند أمها كيف كنت ستسلمها لهشام الساعة الثالثة صباحا ؟

بعد تردد لفترة قصيرة قال :

ـ لست أدرى ٠

ـ من الذى أرجع سوسن الى والدتها ؟

ـ لست أدرى ٠

ـ بل تعرف جيدا أنك أنت الذى أخذتها ودبرت لها خدعة الخطاب لتجد نفسها مضطرة للرجوع الى أمها ٠

ـ وهل ذهاب سيدة الى أمها يعتبر جريمة ؟ أجل أنا الذى أوصلتها الى أمها لأنها لا تستطيع الذهاب بمفردها ٠

ـ ذهاب سيدة الى أمها ليس جريمة ، ولكن يبدو أن هناك جرائم أخرى ٠ ماذا تعرف عن هذه السيدة والدة سوسن ؟

ـ سيدة طيبـة تحب ابنتها ولا تريد أن تزوجها من رجل لا تعرف عنه شيئا ٠

ـ ولكنها سمحت بزواجها من هشام ، أنسيت أنها متزوجة ؟ لماذا زوجتها من هشام اذا لم تكن راغبة فى ذلك ؟

ـ لست أدرى ٠

ـ ماذا تعرف عن بركة ؟

لم يكن فرحات يتوقع هذا السؤال المفاجىء فقال متلعثما :

ـ بركة ؟ لست أدرى ٠ لا أعرف أحدا بهذا الاسم ٠ من هى بركة هذه ؟

ـ أمتأكد أنت أن والدة سوسن سيدة طيبة كما تقول ؟

ـ هذا ما أعلمه عنها ٠

ـ سنعلم كل شىء فيما بعـد ٠

استصدرت الشرطة أمرا من النيابة بالانتقال الى منزل والدة سوسن بالقرب من دمنهور لجمع معلومات ذات علاقة بالقضية المنظورة بالقاهرة ، وطلبت الشرطة من حمدى وهشام ونظاجة الحضور ليكونوا بصحبة القوة المتجهة الى هذا المكان .

كانت سوسن جالسة ناظرة الى بعض الغيوم التى تدفعها نحو الجنوب رياح سبتمبر ، وبجوارها فى الحديقة جلست أمها تتناول طعام الفطور . لم تدخل سوسن فى معدتها سوى نصف فنجان من الشاى وبدت شاردة الذهن غير راغبة فى تناول أى لون من ألوان الطعام التى تزدحم بها المائدة تحت شجرة المانجو العتيقة . قالت الأم :

– أمازلت حزينة يا سوسن ؟

– لم يعد الحزن يؤلمنى بعد ان ألفته وتكيفت معه ، ولكننى أشعر بقلبى وكأنه مجروح .

– سوف تنسين جميع الأحزان يا حبيبتى . كل شيء ينسى . مرور الأيام يداوى جراحا عديدة . هل تذكرين يا روحى الكلبة التى أنشبت اظافرها فى ساقك منذ سنوات عندما دست على ذيلها عن غير قصد وأحدثت فى ساقك جرحا ؟ لقد اندمل الجرح مع مرور الأيام ولم يبق له أثر ، ومنذ ذلك اليوم اقسمت ألا يدخل بيتى أى كلب ، ليكون بيتا نظيفا خاليا من الكلاب والرجال .

ثم أردفت قائلة بانفعال وقد اكفهر وجهها :

– ولكن فى آخر الزمن دخل البيت رجل وانظرى ماذا فعل . الجرح الذى أحدثه الكلب تلاشى . ولكن الذى أحدثه الرجل لا يريد ان يشفى ، سيستغرق شفاؤه وقتا طويلا ، لكنه سيندمل فى يوم من الأيام .

أطرقت سوسن الى الأرض وقالت :

ـ يخيل الى أن جرح قلبى هذا لن يشفى ، سأعيش طوال حياتى بقلب جريح ·

ـ ضعى جرحك على جرحى يا حبيبتى · لقد تمنيت ذات يوم أن تصبحى مثلى فى كل شىء · هاأنت ذى قد أصبحت مثلى حتى فى جرح قلبى ·

ـ ألم يشف جرح قلبك حتى الآن ؟

ـ لا ياروحى ، لا يريد أن يشفى ·

ـ اذن فسأظل أنا أيضا هكذا طوال عمرى ·

سالت الدموع من عينيها ولم تجد معها منديلا فأخذت تمسحها بكم ردائها · أخرجت الأم منديلها وأخذت تجفف به دموع ابنتها قائلة :

ـ لا يا حبيبتى ، ما زال قلبك صبيا من السهل شفاء جرحه سريعا ، ولكن قلبى عندما جرح كان قد جف وشاخ · مازالت أمامك أيام سعيدة ·

ـ من أين تأتى السعادة ؟ انها لو أرادت دخول بيتنا لما استطاعت اجتياز السور ·

ـ لا تحتاج السعادة لاجتياز السور يا حبيبتى ، فهى هنا فى البيت · العبى واجرى وغنى واستمتعى بهذا النعيم الذى تعيشين فيه · هاأنت ذى قد رأيت مصير من تبحث عن السعادة خارج البيت ·

ـ ولكننى أشعر بالاختناق · كل الحزن الذى فى الدنيا فى قلبى أنا وحدى ·

– لا ياروحى ، يخيل اليك ذلك • افتحى عينيك جيدا وسترين السعادة •

– الانسان لا يرى السعادة بل يحس بها •

بعد فترة ابتلعت فيها ريقها عدة مرات مقاومة البكاء اردفت قائلة :

– عندما كان هشام يحبنى كنت أغمض عينى وأظل شاعرة بالسعادة • السعادة فى الأمل ، فى انتظار شىء جميل يعيش الانسان لأجله • ولكننى لم أعد أنتظر من الدنيا شيئا • لم يبق عندى أمل فى أى شىء • انتهى كل شىء • سأظل طوال حياتى فى هذا البيت • كل ما أرجوه الآن ألا يطول عمرى حتى لا أتعذب كثيرا •

– لا يا روحى ، لا تعذبى نفسك هكذا ، فأنا سعيدة لوجودك معى •

– ولكننى لا أشعر بأية سعادة ، وما دمت أنت سعيدة فهذا يكفى •

ولم تستطع السيطرة على مشاعرها فانخرطت فى البكاء • فى هذه اللحظة أقبلت عواطف مهرولة وقالت وهى تلهث :

– يوجد طرق شديد على البوابة يا سيدتى •

أخرجت الأم من ثنايا ملابسها مفتاحا سلمته لعواطف قائلة :

– قد يكون فرحات • افتحى طاقة الباب وتعالى لتخبرينى عن القادم •

بعد فترة قصيرة أقبلت عواطف تعدو ووقفت تلهث قائلة بصوت تمتزج فيه الدهشة بالفرحة :

ـ هل تعلمين من القادم يا سيدتى ؟

على الرغم من البهجة التى لم تستطع عواطف اخفاءها فلقد استشعرت الأم هبوب عاصفة انقبض لها قلبها ولم تفصح سوسن عما يدور فى ذهنها بل ظلت ناظرة الى عواطف فى لهفة وترقب ·

قالت الأم :

ـ من ؟

ـ هشــام ·

انتفضت سوسن واقفة بحركة لا ارادية قائلة :

ـ هشام !؟ كان قلبى يقول لى انه سيعود · سأذهب لأفتح له الباب وبينما تهم بالانطلاق نحو البوابة جذبتها والدتها من يدها بقوة قائــلة :

ـ انتظرى يا روحى · ابقى معى هنا · لا تظهرى أنك ملهوفة عليــه ·

ـ ولكننى ملهوفة عليه ، أريد أن أراه ·

ـ لا يا حبيبتى ، اجلسى وانتظــريه حتى يأتى هو ، واذا تحدث معك فلا تردى عليه · لابد أن يعرف أنك غضبى منه ·

ـ ولكننى أحبه ، لست غضبى منه ·

ـ جلست سوسن على مضض وأخرجت الأم من تحت ردائها مفتاح البوابة . وسلمته لعواطف قائلة :

ـ أدخليه وأغلقى البوابة بالمفتاح وأحضريه الينا هنا ·

نهضت سوسن قائــلة :

ـ سأذهب الى الغرفة وأطل عليه لأراه عند دخوله ·

قبل أن تتمكن الأم من جذبها من يدها انطلقت سوسن تعدو نحو مبنى البيت · تمتمت الأم قائلة :

ـ لن تفلت من يدى هذه المرة ٠

وقفت سوسن في غرفة الصالون ناظرة من النافذة . وما كادت عواطف تفتح البوابة حتى اندفع الى البيت عدد هائل من رجال الشرطة تاه بينهم هشام فلم تستطع سوسن رؤيته ٠

عندما رأت الأم بعض الجنود أسرعت بالذهاب نحو المبنى ، رأتها عواطف فأسرعت اليها قائلة :

ـ العساكر يا سيدتى ٠٠

ـ وماذا يريدون منا ؟

رأت الأم سوسن تطل من نافذة غرفة الصالون فأسرعت بالذهاب اليها ٠ كانت عينا سوسن تبحثان عن هشام ٠ شعرت الأم برعب شديد ، فأقفلت النافذة وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح وانكمشت في أحد أركان الغرفة وقد بدت أصغر من حجمها الحقيقى ٠ أما سوسن فلم يدر فى ذهنها فى تلك اللحظات سوى انتظارها رؤية هشام ، وفكرت فى الخروج من الغرفة للبحث عنه ولكنها لم تستطع عندما رات أمها تبكى ٠

بعد فترة من الزمن لم تستطع الأم تقديرها ولم تعرف ماذا حدث فى أثنائها ، سمع طرق على باب الغرفة ، فظلت الأم جالسة وأمرت سوسن بعدم فتح الباب ٠ ولكن عندما تكرر الطرق خطر ببال سوسن أن الطارق قد يكون هشاما ٠ رأت المفتاح موضوعا فى ثقبه فأسرعت بفتح الباب ٠ اقتحم الغرفة أحد ضباط الشرطة وبصحبته ثلاثة جنود مسلحين ٠ فزعت سوسن وحزنت لعدم وجود هشام معهم وانتفضت الأم واقفة ٠ قالت بصوت مختنق بالبكاء ٠

ـ ماذا تريدون منا ؟ هل جئتم لحرمانى من ابنتى مرة أخرى؟ هذا مستحيل ، مستحيل ٠

كادت سوسن تبكي عندما بكت أمها ، ولكن في هذه اللحظة دخل هشام فأسرعت اليه سوسن قائلة بلهفة :

ـ ما هؤلاء الرجال ؟ أنا خائفة ٠

ـ لا تخافي يا حبيبتي فلن يؤذيك أحد ٠

قال الضابط موجها حديثه لهشام وسوسن :

ـ هل من الممكن أن تتركانا وحدنا مع السيدة منيرة لحظة قصيرة ؟

خرج هشام ممسكا يد سوسن وقادته الى غرفتها وأغلقت بابها ٠ أمر الضابط أحد الجنود أن يمنع الدخول الى الغرفة وطلب من الأم أن تجلس فجلست وجلس هو بالقرب منها ٠ قال وعلى فمه ابتسامة :

ـ حضرنا للاطمئنان على سوسن لاختفائها المفاجيء ، ولكنها ما دامت عندك فهي في أمان ٠

ـ أهذا كل ما اتيتم من أجله ؟

ـ نعم ، هذا هو كل ما جئنا من أجله ، ولكن يوجد سؤال واحد نحب أن نعرف الاجابة عنه قبل رحيلنا من هنا ٠

ـ تفضـــل اســأل ٠

كان آخر ما تتصوره أن يفاجئها بقوله :

ـ أين ذهبت بركة ؟

زلزل هذا السؤال كيانها ولكنها سـيطرت على أعصـابها وقالت :

ـ بركة ؟ بركة تركت البيت ولا أدري أين ذهبت ٠

لم تستطيع احتمال نظراته التى شعرت وكأنها تنفذ الى أعماق البئر التى تخفى فيها أسرارها عندما قال :

ـ أمتأكدة أنها غير موجودة هنا فى البيت ؟

ـ طبعا متأكدة ، فلست فى غيبوبة ·

ـ ولماذا تركت البيت ؟

ـ خانت العشرة ·

ـ هل اختفت لخيانة العشرة أم بسبب الحكاية التى حكتها لنظاجة ؟

قالت وذهنها يرتجف :

ـ حكاية ؟ أية حكاية هذه ؟

ـ حكاية مراد ·

شعرت وكأن قنبلة نسفتها ، فحاولت جمع أشلائها المبعثرة وقالت :

ـ مراد ؟ من هو مراد هذا ؟ أنا لا أعرف أحدا بهذا الاسم ·

قاومت الدوار الخفيف الذى انتابها والألم الذى شعرت به فى صدرها لكى تبدو طبيعية · نظر اليها الضابط وأطال النظر فأسبلت جفنيها · قال بهدوء وكأنه يقص عليها مشهدا رآه فى الطريق :

ـ فى احدى الليالى ، منذ سبع سنوات تقريبا ، رأتك بركة تفتحين البوابة فى سكون الليل ودخل رجل ولم يخرج من هذا البيت حتى الآن · أليس هو مراد الذى اختفى منذ ذلك الوقت ولم يعرف أحد مكانه ؟

ـ قلت لسعادتك اننى لم أعرف طوال حياتى رجلا بهذا الاسم وبركة كانت معروفة بالتخريف والهلوسة ·

ـ اما زلت متأكدة من عدم معرفتك لشخص يدعى مراد ؟

ـ طبعا متأكدة فأنا لم أفقد ذاكرتى

وضع الضابط يده فى جيب سترته وأخرج صورة قدمها اليها قائلا :

ـ وما رأيك في هذه الصورة ؟

نظرت الى الصورة نظرة خاطفة وقالت :

ـ صورة ؟ صورة من هذه ؟

ـ صورة مراد ، وجدناها فى الصندوق الأسود الذى كنت تحتفظين به فى صوانك • ويوجد شخص آخر تتوقين لرؤيته بعد طول فراق •

قال الضابط للجندى الواقف عند الباب :

ـ أحضر الأستاذ حمدى سعد الدين فريد •

عند عتبة الباب توقف حمدى متأبطا الكمان والدمية ناظرا الى زوجته وكأنه فى حلم وقد ارتسمت على فمه ابتسامة لا تعنى شيئا • كان الاجهاد واضحا فى عينيــه اللتين يطـل منهما حزن وطيبة • ظلت زوجته محملقة في وجهه وكأنه عفريت خرج من قمقــم •

كل هذا بسببك يا هشام • كانت ساعه نحس سوداء تلك التى رأتك فيها سوسن • لقد خطفت منى ابنتى وألقيت بى فى دوامة الرعب الذى ظننت أن الزمن ابتلعه • لقد دخلت البيت لعذابى وعذاب ابنتى • الخطأ الوحيد الذى ارتكبته هو اننى لم أقتلك • ليتنى قتلتك •

انتزعها من الاسترسال فى هذه الأفكار صوت الضابط عندما قـــال :

ـ ادخل يا أستاذ حمدى ٠

خطا حمدى بضع خطوات داخل الغرفة وعيناه لا تتحولان عن وجه زوجته ٠ قال الضابط :

ـ اجلس يا أستاذ حمدى ٠ لقد تعبت كثيرا ٠

جلس حمدى على الفـور واطرق الى الأرض ٠ نظر اليهـا الضابط وقال مشيرا نحو حمدى :

ـ وهذا ، هل تعرفينه يا سيدة منيرة ؟

أشاحت بوجهها عنه قائلة :

ـ كلا ، لا أعرفه ٠

ـ هل تنسى الزوجة زوجها بهذه السهولة ؟ زوجها الذى تستمتع بثروته ؟

اطرقت الى الأرض فى صمت وظل حمدى ناظرا اليهـــا ٠ لم تتغير صورتها فى نظره وكأنه تركها بالأمس ٠ قال الضابط لأحد الجنـــود :

ـ أحضر هشاما وسوسن ٠

سالت الدموع على خدى حمدى وغمغم قائلا :

ـ سأرى سوسن ، سوسن ابنتى ٠

أقبلت سوسن بصحبة هشام ٠ قال الضابط :

ـ ها هى ذى سوسن يا أستاذ حمدى ٠

صرخت سوسن قائلة :

ـ بابا ٠

وانخرطت في البكاء قام حمدى ووضع الكمان والعروسة على الكرسى واحتضن سوسن قائلا بصوت متهدج :

ـ حبيبتي سوسن ، ابنتى ، سبعة عشر عاما وأنا أبحث عنـــك ٠

دمعت عيناه وهو يبوس أبنته ويربت على ظهرها ٠ شعر بارهاق فجلس ووضع الكمان والدمية على حجره وجلست سوسن ملتصقة به وظلت الأم مطرقة الى الأرض تفرك أصابع يديها ٠ قالت سوسن لأبيها بنبرة حزينة :

ـ كان قلبى يحدثنى بأنك حى وأننى سأراك فى يـــوم من الأيـام ، مع أن ماما كانت تقول انك ٠٠ انك توفيت وأرتنى المكان الذى قالت لى انك مدفون فيه ٠

انتفضت الأم واقفة وصفعت ســـوسن صفعة قوية على خدها قائلة فى ثورة غضب :

ـ اخرسى ، قطع لسانك ٠

انفجرت سوسن باكية فأسرع هشام اليها وباســـها فى المكان الذى تلقى الصفعة واحتضنها وأسند رأسها على كتفه ٠ قالت سوسن وهى تبكى :

ـ لماذا صفعتنى يا ماما ؟ لم تصفعينى طوال حياتى الا اليوم ٠

لم تنطق الأم بل جلست فى صمت ووضعت ســـاقا على ساق وأخذت تهز الساق العليا هزات عصبية ٠

غمغم الضابط قائلا :

ـ هل قالت لك ان والدك مدفون ؟ أين ؟

قالت سوسن :

ـ في البدروم ٠

سحب الضابط سوسن من يدها وخرجا معا من الغرفة قائلا :

ـ تعالى يا سوسن أرينا تلك المقبرة ٠

كانت نظاجة واقفــة فى البهو جنب أحــد الجنود وكأنهــا تحتمي به ٠ طلب منها الضابط احضار أدوات الحفــر فهرولت الى الحديقة وهي ترتجف ٠٠ أطل الضابط من باب غرفة الصالون فرأى الأم وحمدى وهشاما ٠ أشار اليهم فاسرع نحوه حمــدى وهشــام ولم تتحرك الأم ٠ أمرها الضابط بالحضور فقامت ببطء ووقفت بالقرب منهم ٠ طلب من الجنود الثلاثة الذين كانوا بالغرفة الانضمام الى المجموعة ٠ وعندما أحضرت نظاجة أدوات الحفر هبط الجميع الى البدروم يتقدمهم الضابط وسوسن التى بدت شاحبة الوجه وسار الجنود الثلاثة خلف الجميع ٠

أمر الضــابط بكسر بابى السرداب والغرفة فرأى المقابر ٠ أسرعت الأم مهرولة نحو غرفتها فأمر الضابط أحد الجنود بالاسراع اليها والتحفظ عليها ٠ دخلت الأم غرفتها فظل الجندى واقفا عند باب الغرفة ٠ فى أثناء عمليــة الحفر ظلت سوسن جنب هشــام مشيحة بوجهها عن المقابر شاعرة بحزن عميق وأسف شديد اذ لم تكن تتصور أن تسبب تلك الكلمات التى صــدرت منها بحسن نية كل هذا الاضطراب ٠

كانت الجثتان مدفونتين بملابسهما الكاملة ٠ تعرف الخدم على جثة بركة من ملابسها التى كانت ترتديها عند اختفائها ٠ وتعرف حمدى على جثة مراد عن طريق بعض الأســنان الذهبيــة فى فكه العــلوى ٠

بعد اتمام المعاينة صعد الجميع من البدروم واتجهوا نحو غرفة الصالون . طلب الضابط من حمدى وهشام وسوسن البقاء خارج الغرفة فذهبوا الى غرفة سوسن ، وأمر باستدعاء الأم فجاءت فى حراسة أربعة جنود وقف أحدهم عند باب الغرفة ودخل الثلاثة الآخرون . أمر الضابط باغلاق الباب وعدم السماح بدخول أحد . طلب من الأم الجلوس وجلس بالقرب منها . نظر اليها وقال :

ـ ما رأيك يا سيدة منيرة فى بركة التى وجدناها مدفونة هنا فى البدروم ؟

أطرقت الأم الى الأرض والتزمت الصمت . قال الضابط :

ـ والجثة الثانية التى عثرنا عليها ، جثة من ؟

ظلت ملتزمة الصمت ، فقال الضابط :

ـ من الواضح أنها ليست جثة حمدى كما ذكرت لسوسن . أليست جثة الشخص الذى دخل البيت منذ سبع سنوات ولم يخرج ؟ هل هو مراد ؟

بلغت الأم ذروة اليأس عندما يتلاشى الحد الفاصل بين الحياة والموت حيث يصبح الموت والحياة سواء ، فانهارت وقالت بصوت خافت وهى مطرقة الى الأرض :

ـ اجل ، مراد .

اثارت الأحداث الغريبة فى أعماق الضابط الشاب رغبة قوية فى حب الاستطلاع فبدأ يسأل أسئلة لاشباع تلك الرغبة ، قال :

ـ عندما شاهدت حمدى زوجك وتحدثت معه بدا لى شخصا وديعا مسالما ، علمت من الخدم أنك قاسيت من سوء معاملته لك ، فهل كان يعذبك كل هذا العذاب ؟

نظرت الأم الى صورة امرأة جميلة معلقة على أحد جدران الغرفة وطافت بذهنها فى هذه اللحظات لقطـــات سريعة من الذكريات ثم قالت وقد أطرقت الى الأرض وأخذت تعبث بأصابعها :

ـ حمدى لم يعذبنى مطلقا ، بل على العكس ، هو الرجل الوحيد الذى لم يجرح مشاعرى ولم يوجه الى أية اهانة واحترمنى كانسانة ، ولكننى على الرغم من ذلك لم أشعر نحوه بأية عاطفة ، تزوجتـــه بلا حب ، بل كنت أكرهه ٠

ـ ولماذا تزوجته ؟

ـ كنت فقيرة وهو غنى ٠

وجد الضابط نفســـه أمام ظـاهرة عجيبة تستحق الاهتمام ولغز محير من ألغاز النفس البشرية فقال :

ـ ولماذا كرهته ما دام لم يسىء اليك ؟

ـ لم أستطع التخلص من كراهيتي للرجال ٠

ـ ولماذا كرهت الرجال ؟ هل عذبوك الى هذا الحد ؟

ـ لست أنا التى تعذبت ٠

قال بدهشة لم يستطع اخفاءها :

ـ لست أنت التى تعذبت ؟

ـ أمى هى التى تعذبت ٠ أذاقها أبى عذابا فوق طاقة البشر ٠

ـ أمـــك ؟!

ـ أجـــل ٠

وأردفت قائلة بصوت متهدج :

ـ الحكايات التى كنت أحكيها لسوسن عن تعذيب أبيها لى هى فى الحقيقة حكايات العذاب الذى قاسته أمى من أبى · لا يمكننى نسيان ذلك العذاب الذى جعلنى أكره جميع الرجال كراهية تسرى مع كل قطرة من دمى منذ سنوات بعيدة ، عندما كنت فى الخامسة من عمرى · ليال عديدة كنت أصحو فيها من نومى مرعوبة عند سماع صراخ أمى مستغيثة من أبى ·· كنت أشعر بخوف يحطمنى فانكمش فى ركن الغرفة واظل أبكى وحدى · فى ليلة من تلك الليالى السود أيقظنى صراخ أمى وبكاؤها · رأيته يشدها من شعرها ويلقى بها على الأرض ويركلها بقدمه · سمعتها تستنجد بى :

ـ الحقينى يا منيرة أبوك سيقتلنى ·

ـ اترك ماما يا بابا · ماما حبيبتى ·

ـ اخرسى يا بنت لا اريد سماع بكائك والا ألقيت بك من الشباك ·

كان هذا المشهد يتكرر كثيرا · ولكن فى ليلة أحلك سوادا ، طرد أمى من البيت ، فخرجت فى الظلام تحملنى على كتفها · كانت هذه آخر مرة رأيت فيها أبى · كنت صغيرة لا املك القدرة على الدفاع عن أمى وهى تصيح مستغيثة بى · هذه الصورة ما زالت محفورة فى ذاكرتى حتى هذه اللحظة · مازلت أذكر أمى وهى تهبط درجات السلم وقد احتضنتنى بقوة وأنا أرتعش من الخوف · تعثرت فى أثناء هبوطها فتركتنى وظلت تتدحرج حتى آخر السلم · حاولت الوقوف فلم تستطع ، فرأيتها تزحف على الأرض ، وظللت أبكى لعجزى عن مساعدتها · قضينا الليلة جنب جدار فى زقاق مظلم ، وظلت محتضنه لى طوال الليل وقد غطتنى بثوبها حتى لا أشعر بالبرد · منذ تلك اللحظة تشردنا معا · عملت خادمة فى بيوت عديدة · لم يكن لنا اقارب أو معارف · وعندما ماتت كنت فى

السادسة عشرة من عمري ولم يكن معها أحـد غيري في الغرفة التي كنـا نعيش فيها . رأيتها وهي تفارق الحياة . ماتت وهي تبكي .

انخرطت الأم في بكاء عنيف ، وعندما هدأت موجـة البكاء غمغمت قائلة :

ـ من أقسى الأشياء أن يموت الانسان وهو يبكي .

ثم تغيرت لهجتها وقالت بصوت أقرب الى الفحيح

ـ عند ذلك اجتاحني شعور عجيب . تمنيت أن أعذب جميع الرجال الذين على ظهر الأرض . التقطني صـاحب ملهى ليـلي وأصبحت راقصة . كنت أشـعر بلذة غريبة عنـدما أرى الرجال يتعذبون بسببي . وتزوجت حمدي ، وبعد زواجي منه ببضعة شهور عرفت مراد الذي لم يعرني أي اهتمام ، فشعرت بمهانة لم أشعر بمثلها منذ كنت طفلة . كان هو الوحيد الذي أذلني بعد أن اعتدت اذلال الرجال . كان الجميع يلهثون خلفي فوجدت نفسي أجري خلف مراد . كنت أتمنى أن أنتصر عليه ولكنه لم يحقق لي هذه الأمنية . ذات ليـلة ..

لم تكمل الجملة والتزمت الصمت . نظـر اليهـا منتظرا استئنافها الحديث ولكنها ظلت مطرقة الى الأرض صامتة ، فقال :

ـ ماذا حدث في تلك الليلة ؟

عندما أدركت شغف الضابط بالاستماع الى حكايتها شـعرت برغبة في تعذيبه فظلت ملتزمة الصمت . قال آمرا :

ـ تكلمي ، ماذا حدث في تلك الليلة ؟

ترددت فترة قصيرة ثم قالت :

ـ ذات ليلة زارنا مراد فى البيت • كنا جالسين فى البهو نحن الثلاثة ، أنا وحمـــدى ومراد • فى هذه الليلة التى لن أنســاها سكر مراد • كان من عادته عندما يشرب أن يثرثر فتنزلق من فمــه الكلمات معبرة عن الأفكار التى يحرص على اخفائها عندما يكون فى كامل وعيه :

أنت مجنـون يا حمدى • هل من المعقول أن شـــخصا فى مركزك يتزوج راقصة ؟ الراقصـــات ليستمتع بهن الرجال لا ليتزوجوا منهن • كل شىء فى الدنيـــا لمتعة الرجـــال •

ـ وأخذ يقهقه فى الوقت الذى سالت فيه دموعى على خدى • فى هذه اللحظة بلغت كراهيتى ذروتها لجميع الرجال الذين وجدوا على ظهر الأرض من عهد آدم والذين سـيولدون حتى يوم القيامة • طفح من قلبى طوفان من الكراهية أغرق كل شىء فى أعماقى • طلبت الطلاق من حمدى فلم يوافق • أخذت سوسن وهربت وقررت بينى وبين نفسى ألا ترى أى رجل طوال حياتى • ولكننى لم أستطع •

أطرقت الى الأرض وقد تقلصت عضلات وجهها وأردفت قائلة :

ـ انهـــا الثغرة •

ـ أية ثغـــرة ؟

ـ فتحة صغيرة فى السور •

ثم قالت بنبرة سخرية :

ـ وبعد عشر سنوات اكتشف مراد مكانى وأرسل لى يطلب موعدا للقائى • حددت له موعدا لالتقى به هنا فى احـدى أمسيــى • والتقيت به •

ضحكت ضحكة حزينة وقالت :

ـ تصور ! بعد عشر سنوات كلف نفسه عنـاء الحضور الى منزلى هذا ليقول لى انه يحبنى ، هه ، بعـــد علمه أننى أصبحت من الأغنيـــاء ٠

أخذت تدير بصرها فى أنحاء المكان وكأنهـــا تراه لأول مرة ، ولآخـــر مرة ، وأردفت قائلة وهى تضغط على الحـــروف مؤكدة كل كلمة :

ـ انه لم يكرمنى ، ولكننى أكرمته ٠

والتزمت الصمت ، فقال الضابط :

ـ كيف أكرمتـــه ؟

ـ دفنته فى منزلى ليظل معى طوال العمر ، فهل يوجد تكريم أكثر من ذلك ؟

ظل الضابط ناظرا اليها يتأمل ملامحها بضـع لحظات ثم قال بهدوء وقد لمعت الدموع فى عينيه :

ـ ضع الحديد فى يديها يا شاويش على ٠

وضع الحديد فى يدها اليمنى ، وبينما يهم بوضعه حول معصم اليد اليسرى صدرت منها أنه خافتـــة ومالت على جانبهـا ٠ أسرع الضابط بوضعها على أريكة وحـــاول افاقتهـا ٠ كانت دقات قلبها قد توقفت ٠

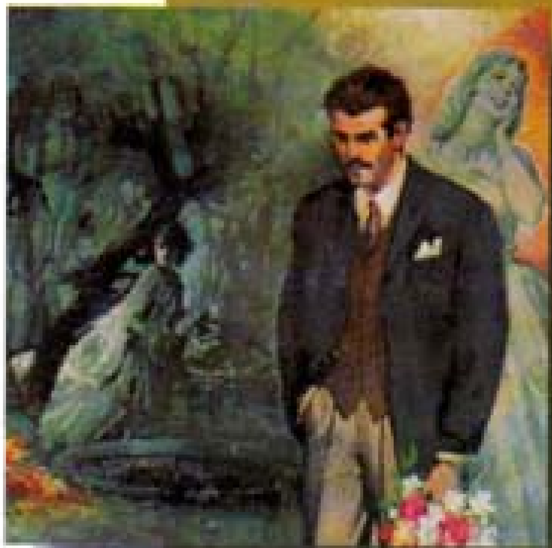
(انتهـــت)

الاسكندرية عام ١٩٥٨

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٨/٨٠٩٨

ISBN — 977 — 01 — 5729 — 5



مكتبة الأسرة

بسعر رمزى جنيهان
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٨

■ د. يوسف عزّالدين عيسى

● تخرج فى كلية العلوم ـ جامعة القاهرة، وعين معيداً بها عام ١٩٣٨.

● حصل على الدكتوراه من جامعة شفيلد بإنجلترا، وعين مدرساً بجامعة الاسكندرية عام ١٩٥٢، ثم أستاذاً مساعداً عام ١٩٥٤، ثم أستاذاً عام ١٩٦٥. ومنذ عام ١٩٧٤ شغل وظيفة أستاذ متفرغ»، وما يزال حتى الآن بها.

● حصل على العديد من الأوسمة والجوائز منها:

* درع المؤسسين لجامعة الاسكندرية عام ١٩٤٢، وجامعة طنطا عام ١٩٧٢.
* وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى.
* وسام الجمهورية من الطبقة الثانية.
* جائزة الدولة التشجيعية فى الدراما عام ١٩٧٥.
* جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٨٧.

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب